"عملٌ عن فساد البراءة في أكثر فترات تاريخ إسبانيا سوداوية"

رواية

بلاي بونيت

البحر

ترجمة: عبد السلام باشا

بلاي بونيت

البحر

رواية

ترجمة

عبد السلام باشا

SEFSAFA PUBLISHING HOUSE
WWW.SEFSAFA.NET

عبد السلام باشا/ مترجم وصحفي مصري، له العديد من الترجمات عن الإسبانية. أهمها " السيرة الذاتية" و"حكايات" لخورخى لويس بورخيس، ورواية "المهرطق" لميجيل ديليبس، ورواية "ليل تشيلي" لروبرتو بولانيو، ورواية "الطريق إلى إيدا" للكاتب الأرجنتيني ريكاردو بيجليا.

....

البحر
طبعة 2021
رقم الإيـــــداع: 2021/1847
الترقيم الدولي: 978-977-821-182-5
جميع الحقوق محفوظة ©
عدا حالات المراجعة والتقديم والبحث والاقتباس العادية، فإنه لا يسمح بإنتاج أو نسخ أو تصوير أو ترجمة أي جزء من هذا الكتاب، بأي شكل أو وسيلة مهما كان نوعها إلا بإذن كتابي.

No part of this book may be reproduced or utilized in any from or by means electronic or mechanical including photocopying recording or by any information storage and retrieval system without prior permission in writing of the publishers.

الناشر
محمد البعلي

إخراج فني
علاء النويهي

الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبِّر بالضرورة عن رأي دار صفصافة.

This is full translation of the novel "EL MAR" by Blai Bonet
© Estat of Blai Bonet, 1958 - 2011.
First published in Catalan in 1958 by Club Editor. All rights reserved by Club Editor.
This Agreement by arrangement with SalmaiaLit

The translation of this work was supported by a grant from the Institut Ramon Llull.
Translated from Catalan by Abdelsalam Basha.

institut ramon llull
Catalan language and culture abroad

GOIB Conselleria Presidència, Cultura i Igualtat

institut d'estudis balearics

This book has been published with the help of the Institut d'Estudis Baleàrics

SEFSAFA PUBLISHING HOUSE
WWW.SEFSAFA.NET
elbaaly@gmail.com

دار صفصافة للنشر والتوزيع والدراسات
5 ش المسجد الأقصى - من ش المنشية - الجيزة - ج م ع.

بطاقة فهرسة

إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية،
إدارة الشئون الفنية

بونيت، بلاي، ١٩٢٦ - ١٩٩٧

البحر: رواية/ بلاي بونيت، ترجمة عبد السلام باشا

الجيزة، دار صفصافة للنشر والتوزيع والدراسات، ٢٠٢١

٢٩٢ ص، ٢٠ سم

تدمك ٥-١٨٢-٨٢١-٩٧٧-٩٧٨

١ - القصص الاسبانية

أ- باشا، عبد السلام (مترجم)

ب- العنوان

٨٦٣

رقم الإيداع: ١٨٤٧/ ٢٠٢١

الإنسان مثل البحر: يَلجُ ويُولَج،
يعكس الحياة السماوية ويتأثر بها. بالإنسان
يُنيرُ الرَّبُ الخلقَ كما يُنيرُ القمرُ الأرضَ.

ب.ب.

1

مانويل تُور

كان الطريق لامعًا بين غابات الصنوبر والسنديان وأشجار الزيتون، والتي كانت تسمح برؤية الصخور الرمادية بين طبقات الخضرة والظل. كان لون أشجار السنديان زيتونيًّا شاحبًا هادئًا، أخضرَ جافًّا كزي الجنود. كانت بقعة الشمس الطويلة الرفيعة بجوار غابة السنديان، وتبدو مُتحركةً فوق قمم الأشجار متعددة الألوان. كان الظلُّ كاملًا على الجانب الآخر من الطريق، في الغابة ذات الأشجار العالية، كأنه عتمة سوداء. كانت أشجار السنديان تهبط الجبل في تتابع رتيب للون الأخضر الغامق، والذي يتوقف أمام المدينة الرمادية، التي تبدو بناياتها متراكمة واحدة فوق الأخرى. والكاتدرائية، التي تشبه بقعة بيضاء ضخمة، في المنتصف.

السهلُ جميلٌ، عذبٌ، منطوٍ على نفسه. بقعةٌ سوداء طويلة،

لأشجار متعددة الأنواع في الظل، تغطي الحقول من طرف إلى آخر. السهل هادئ، حيٌّ، مثل بحر.

تُعتم الأرض وقمم أشجار السنديان بين الهواء الساخن والسحب الرمادية والبيضاء. وفي وقت الغروب، تصبح السماء عكرة، بزرقة خفيفة، كمدية مفتوحة على البحر. بعد ذلك، مرة أخرى، يصبح الضباب كالرصاص الداكن، كالرماد المتناثر في الهواء، كغبار الزجاج، كالفطريات الحية، كالرمال المتسخة، كالصخور المتكلسة.

وأمام حاجز الشرفة كان الغاب الأخضر والرمادي والأزرق يتمايل سامقًا وعاليًا بحرية لا نفع لها. كانت فتحة النافذة تمتلئ بحركة الغاب ومرور السحب فوق أشجار السنديان السوداء، الكثيفة المنحدرة.

أضعُ يديَّ على جبهتي وأشعر بالعرق الذي يلتصق بأصابعي. أنظرُ لليد اللامعة المبتلة. سقطت بضع قطرات كبيرة قوية متباعدة على قرميد النافذة الأحمر.

– إلى اللقاء!

كان وجه أندريو رامايو ممصوصًا، شفته السفلى بارزة، مقلتا عينيه سوداوان، وحرَّك يده بتحية من الشرفة.

– مانويل تُور.

– أهلًا يا أختِ.

- رسالة.

- أشكرك.

- رسالة من بيتك.

خرجت الراهبة فرانشسيكا لونا، الشاحبة وبالغة التركيز، إلى الممر حيث تقوم بتوزيع الخطابات بالنداء على اسم كل فردٍ. أفتحُ الرسالة متوترًا، كأنني أفضُّ تلغرافًا. صدر صريرٌ عن الورق.

5 مارس، 1942

أخي العزيز:

تلقينا رسالتيك ويجب أن تسامحنا لأننا لم نكتب لك قبل الآن. لا يتعلق الأمر بأننا لا نفكر بك أو نسيناك، لكن الوقت يمر وسقطَ خوليانيتو مريضًا ولم نتوقف عن حمله من هنا إلى هناك لأنه يبكي باستمرار. ولن تستطيع أمنا أن تذهب يوم الخميس إلى المصحة لأنها تذهب للعمل باليومية في الحقول مع ماتيو كلار، ولم يدفعوا لها هذا الأسبوع، والذهاب إلى المصحة يُكلِّف خمسين بيزيتا، وتطلب منك ألا تقلق وتقول لك إنها ستذهب فور استطاعتها. كنا نودُ الذهاب يوم الأحد لأننا قلنا لك هذا، لكننا لم نخرج طوال اليوم بسبب شُحِّ المال، وفي منتصف النهار أكلنا بضع كريات من الطحين والسبانخ، وفي الليل تناولنا برتقالة، وتشاجر بيبيه مع ماما لأن سينما «ريكرياتيفو» كانت تعرض «جسر واترلو»، وكان يرغب بالذهاب لكننا لم نكن نمتلك مالاً، وجاء أصدقاؤه وسألوه لَماذا لم يخرج، ولم يقل أي شيء فرحلوا.

لم نأتِ بالمقاعد الجديدة بعد لأن الظروف لم تسمح. كل واحد منها سعره خمسين بيزيتا، ولا نستطيع دفع هذا المبلغ، فأنت تعرف أننا نعيش في بؤس منذ قتلوا بابا في الحرب. وعندما يأتي مُحصل الكهرباء، تأخذ ماما في البكاء لأنها لا تستطيع الدفع، وتقول إنها لا تمتلك أوراقًا مالية صغيرة، ويصرخ المُحصل، وبعد

ذلك يحدث لماما الأمر الذي تعرفه.

بالأمس كسر خطيب ماجدالينا مقعدًا آخر عندما جلس عليه، وشعرنا جميعًا بالخجل، فالمقاعد متعفنة في الداخل ولا تتحمَّل أكثر من هذا.

بيبيه يتناول الآن دواء «تريكالثين»، وأصبح أكثر شحوبًا ولا يريد تناول الطعام لأنه لا يحب خبز الذرة، لأنه ينتفش كثيرًا، ويقول السيد أونوفريه إن ذهابه إلى المصحة أفضل لأن جو الريف صحيٌّ للغاية في هذه الحالات.

تقول لك ماما ألا تلقي الخبز الذي يفيض عن حاجتك، وتطلب منك أن تحتفظ به وهي ستحمله إلى البيت، فعلى الرغم من أنه سيكون جافًّا، إلا أنها ستنقعه في الماء فيصبح طريًّا وبعد ذلك تضعه في الفرن فيكون شهيًّا.

لا يمكنني الكتابة لك أكثر من هذا لأن خوليانيتو يبكي في الفراش، وهو يحب التنزه فقط. لقد بدأ في المشي ويقول بابا وماما وأصبح رجلًا صغيرًا، أجمل رجال العالم، ومن غيري سيقول هذا؟

عناق من أمك وإخوتك

أبولونيا تُور

يلفُّني الصمت، الورقة بين يديّ، أنظرُ إلى ساقيّ الناتئتين تحت الملاءات، والضوء الذي يدخل من النافذة المفتوحة يُذكرني بالجير الذي يُلقونه على الموتى بأمراض القلب لكي لا تنتفخ جثثهم. لا أعرف لماذا يُذكرني الضوء بالجير. إنها فكرة غريبة. كُلنا هنا نهذي، نحيفون، كأننا مغروسون في الجير. ونتحدث ونفكر ونتبادل المشاعر دون أي شخصانية، كأننا فرد واحد، بصوت مقزز كأنه موتٌ حيٌّ... الحياة في المصحة كأنها القليل من الأفيون الذي ندخنه، وأنا بشراهة أكبر، لأن المقاعد المسوسة في بيت أمي لا تدعني أنام.

يسقطُ المطر بعنفٍ. ستارة المطر، برائحته على الأرض الجافة، تغطي كل الحقول وتهز أشجار التوت في الطريق. ولا يمكن رؤية الغاب خلف المطر. المرآة المُعلقة فوق الحوض تعكس المطر والأعمدة البيضاء في الشرفة. مثل ذلك الماء عندما كان أندريو رامايو يحكي لي خطيئته، وعضضت على لساني لكيلا أسمعه حتى أدمى. كان قد وقع في الخطيئة بلسانه الأبيض لأنه كان وحيدًا.

دخل جوردي ميركادير غرفتي بوجهه العريض الصريح، ووقف أمامي بتحية عسكرية.

- تحت أمرك يا سيدي القائد!

تلمع عينا جوردي ميركادير شفقةً.

- يقف أمامك الضابط الثاني للمدمرة «ألهوثيماس».

اقترب جوردي ميركادير من الفراش، وبدا طويلًا، وقلت له:

-الثاني...

- هل أعجبتك «أسرار كولومبيا»؟

- نعم...

- ستعيد قراءتها؟

- نعم. سأعيدها.

- السر الثاني المؤلم عندما جلدوا بونيتكو أربعين جلدة وجرجروه في مهانة من مكان لآخر كأنه ممسحة حقيرة.

2

أندريو رامايو

بالأمس، في الحادية عشرة ليلًا تقريبًا، شاهدتُ الاحتضار لأول مرة في حياتي. أتحدثُ عن خوستو باستُور، ذلك الفتى من مدينة ألباثيته، قصير القامة، ذي الظهر المنحني، ذي البشرة المائلة للصفرة، والعينين السوداوين الغائرتين في تجويفين عميقين بنفسجيين ولامعين كشخص يشعر بالحب بينما يموت.

ذهبت إلى صالة العلاج في الصباح. حقنتني ممرضة العنبر بجرعة «تريوم». لم تعثر على الوريد واضطرت لغرس الإبرة في أماكن مختلفة. كنت أشعر كيف تخترق الوريد دخولًا وخروجًا. كانت تنظر لي بوجهٍ مُحمَّل بالتعبيرات، بذلك الحزن الشفاف لدى النساء اللائي يجعلن الرجال البالغين تسعة عشر عامًا يشعرون بالمعاناة. وكنت أتأمل الحقنة ذات السنتيمترات العشرة، التي تحول السائل داخلها إلى اللون الوردي لأن نقطة دم دخلت فيها.

خرجت الممرضة من الصالة بعد أن حقنتني بالتريوم، واتجهتُ بدوري، بسرعة، إلى دفتر المتابعة الطبية. وأخذت أُقلِّب الصفحات

بنفاد صبر وتحفز: أنطوني جاموندي، جوردي بلانييس، مانويل تُور، جاومه جاليندو، بيدرو ماركث، أندريو رامايو: سرعة ترسب الدم، 85. الضغط 8. كريات الدم الحمراء، 2500500، كريات الدم البيضاء، 12000000. تحليل المخاط في الشُّعب الهوائية: ثلاث علامات حمراء.

صفَّرت بصوت عالٍ، بيدي في جيوبي، كما أفعلُ دائمًا عندما أكون متوترًا، ودخلت غرفة رقم 5. كانت غرفة خوستو باستُور، بذات الرائحة القوية المعتادة، التي لم أعرف حينها أنها قد تكون رائحة الموت.

توجد ثلاث علامات حمراء أيضًا في ملف خوستو باستُور. عملية شفط فاشلة للمخاط، التهاب في كلتا الرئتين وسعال مستمر لا يستجيب لعقار «ديوسان».

– كيف حالك يا خوستو؟

– كما ترى، أحاول الاستمرار على قدميّ.

– يا لها من حياة!

– نعم...

– كيف حال السعال؟

– سيئ. ترك صدري مُحطمًا الليلة.

وضع يدًا على صدره وأضاف:

- إنه يتقدَّم.

- هذا أمرٌ سيئ.

- أمرٌ سيئ. كم تبلغ من العمر؟

- تسعة عشر عامًا. وأنت؟

- أنا، سبعة عشر. أنتبهُ الآن أنني لا أعرف لقب عائلتك.

- أنا، ديث. وأنت؟

- ألكانترا.

- لقد مرَّ عليك عامٌ هنا...

- نعم، والمشكلة أن...

- ما هي المشكلة؟

- أن الحالة تتدهور و...

- لا تكن كالأطفال يا رجل.

- والذنب ذنبي في كل شيء. هذه هي الحقيقة.

- هل يمكن أن تدع هذا الأمر جانبًا؟

- كان هناك مجنون مريض بالسُّل في قريتي، واضطروا لربط يديه.

- هل يمكن أن تدع هذا الأمر جانبًا؟

- هل يوجد شعرٌ في صدرك؟

- القليل.
- لقد نبت في صدري أيضًا.
- يجب أن نحتفل بهذا.
- دائمًا ما احتفلت بمثل هذه الأمور. أول مرة أصبحتُ فيها رجلًا كنتُ في الثانية عشرة. ذهبت راكضًا إلى عربة الجيلاتي، لأشتري جيلاتي بعملتي بيزيتا، لأحتفل بهذا. كما ترى، كنت أحتفل بهذه الأمور.

كان خوستو مُهتاجًا. كانت وجنتاه بلون الزيتون ومحاطتين بدائرتين حمراوين. كان ينظر لي بنظرة لامعة وعكرة، مثل نظرة الحيوانات في المساء. ثم جلست على فراشه، بجواره. واصلَ الكلام بصوته الأجش، كأنه يتكلم بمفرده، كأنه يعترف، هو الذي لم يكن يريد الاعتراف في الفراش وكان يذهب لقاعة المعيشة للقيام بهذا، جالسًا على مقعد على أحد جانبي الستارة، والأب جابرييل على الجانب الآخر.

يا رامايو، سأجن بسبب الحياة هنا. أحيانًا أذهب إلى الحمام وأظل عاريًا طوال ساعات وساعات، أنظر إلى نفسي في المرآة، لكنني لا أخلع الحذاء، كأنني أقول لنفسي وداعًا، هذا هو حالي. لا تعرف قدرَ تأثري عندما أرى نفسي في المرآة، بينما يكون الحذاء في قدميّ. أعتقد أنني مريض للغاية لأن إشفاقي على ذاتي أمرٌ قديم للغاية. عندما كنت طفلًا، كنت أذهب إلى حظيرة الدجاج مع فتاة

في التاسعة من عمرها، كان اسمها ماجدالينا. كانت هناك مصطبة من الحجر، في الحظيرة حيث تضع الدجاجات بيضها. كنت أجلس مع الطفلة على المصطبة، وأضع في حِجرها زهرة بليس، من تلك الزهور البرية التي تنبت في أشجار التين الشوكي. لن تصدقني، لكنني كنت أرى نفسي بوجه عاشقٍ. وهي كانت تقول اسمها، دون أن تضحك. ولم يكن لدي سوى ذلك الحزن لدى طفل يعرف أنه لن يستطيع اللعب مجددًا ببهجة الزمن السابق.

استيقظتُ ليلًا على ضجيج متواصل للجرس. كنت أسمع سعالًا يائسًا. قفزت من الفراش واتجهت إلى الممر بينما أضع البنطلون في الطريق. نظرتُ إلى مصباح الإشارة الأتوماتيكي. كانت غرفة رقم 5. كان النور يصدر من الغرفة. فتحتُ الباب. وقبل أن أرى خوستو، ظهر الدم على البلاط.

- ستأتي الممرضة الآن يا خوستو. اهدأ يا خوستو.

خرجتُ إلى باب الممر البارد، تحت الضوء الرمادي من مصابيح النيون. كانت الآنسة إيستر تقترب بسرعة وسط صمت الردهة.

- خوستو يعاني من بصق دم قوي للغاية.

عدتُ للدخول إلى الغرفة رقم 5. كان الدم يفيض عن مبصقة خوستو باستُور.

- لا تتوتر يا خوستو.

وبسرعة أمسك خوستو بالبطانية والملاءة، وألقى بهما بعنف على مائدة الحمام. لم يكن يرتدي سروالًا داخليًّا. صدرت عنه صرخة، وخرجت دفقات دم من عينيه ومن أذنيه. امتلأ وجهي بالدم. وسقط رأسه إلى جانب.

جاء أجوستي آلكانترا، وزوجته (كارمن أونياندبا) وجوردي أجوستي. نظفوا الدم. خوستو المسكين! لفوه في بطانية. وضعوه على النقالة التي يحملون عليها مرضى الالتهاب الرئوي في أول أيام وصولهم. لن أنسى مُطلقًا هذا المنظر البسيط المرعب عندما رأيت الممر الطويل، بمشعاعات التدفئة، الألوان غير الواضحة، ضوء النيون الأزرق، وأنا وسط الممر، أنظرُ إلى النقالة التي تبتعد في صمت. والحزن عندما اختفت العجلات ولم يعد صوتها مسموعًا. تلك العجلات الشبيهة بعجلات الدراجة، سيئة التشحيم («الآن تعبر ممر قاعة الطعام. الآن أمام اللافتة التي تحتوي على قائمة طعام الغد؛ تخرج، وفي النهاية تسير بجوار أحواض زهور الحوذان حتى المشرحة»).

في اليوم التالي دخلتُ صالة المعيشة لكتابة رسالة لأمي. كانت هناك أرفف فوق المكتب. النساء اللاتي يكوين الملابس كن يتركن ملابس المرضى النظيفة على الأرفف لكي يأخذوها. طوال الوقت الذي استغرقته في كتابة الرسالة، كان هناك أمامي قميص بُنِّي، باهت اللون، هالكٌ للغاية، ويحمل الأحرف الأولى لاسم خ.ب.أ.

عندما نهضت من المائدة، أدخلت يدي في القميص (كيف حالك يا خوستو؟) وأبقيتها لبرهة.

- وهل تمتلك شعرًا في صدرك؟

- القليل.

- نبتَ الشعر في صدري أيضًا.

3

الأخت فرانثيسكا لونا

المكواة لامعة فوق المائدة المُربعة. هذه المكواة الكهربائية قديمة. سلكها عارٍ مهترئ. نحتاج لمكواة أخرى جديدة. يجب أن يضطلع الإداري بأمور كثيرة، مثل غلايات التدفئة على سبيل المثال.

لن يعرف المدير الإقليمي للصحة مُطلقًا بكل شيء. يأتي هنا مرَّةً كل شهر بسيارته الكاديلاك. وأحيانًا لا يأتي كل شهر. عندما يأتي المدير الإقليمي يرافقونه لرؤية زهور الزينيا وأحواض الزهور ذات الأسماء الغريبة، والجهاز الجديد لتسجيل استجابة المرضى. كل الأشياء اللامعة. كل الأشياء التي لا تتعلق بالألم والدم.

عندما يأتي المدير الإقليمي، يكون لبن المرضى بمذاق اللبن. عندما لا يأتي، يتم غلي لبن المرضى والخدم –خوليا بوتجسيرفير، جوردي أجوستي وأجوستي آلكانترا– في وعاء قلي سردين العشاء. اللبن هنا –لبنهم– يحتوي على سمك أكثر من اللبن.

الملابس البيضاء الموجودة أمامنا مليئة بالثقوب وقديمة. طيلة الحياة أمام الملابس البيضاء، كتلك الموجود أمامنا، أنا والأخت

تيريزا كروس. منذ ساعة ونحن منكفئتان على المائدة، يدٌ تُمسك بالمكواة واليد الأخرى تثبت الملابس، ولا نتكلم. بعد ساعة من الصمت، ونحن منكفئتان على المائدة، قلت لها:

- أندريو رامايو موجود هنا منذ عام. وطوال هذا العام لم يرتدِ سوى قميصين. قميصا أندريو رامايو بائسان. عائلته لا تأتي لزيارته. قبل ذلك كان السيد أوجيني موريل، التاجر، يزوره، وكان يصطحبه للتنزه في غابة الصنوبر. بعد ذلك أصبح أندريو رامايو يحبس نفسه في الحمام في أيام الزيارة، لأنه لم يكن راغبًا في رؤية ذلك التاجر من قريته. لم يعد السيد أوجيني. أندريو رامايو شخص مهجور، طفلٌ يؤلمه أن يكون نحيفًا كالسكين.

دقات الساعة تمطّ الصمت في غرفة الكي. دون أن ترفع الأخت تيريزا كروس عينيها، وضعت أصابعها في طبق الماء الموجود في وسط المائدة. بللت الملابس. دون أن ترفع عينيها. تمر المكواة فوق أكمام قميص، وينبعث دخان أبيض من الملابس، دخان خفيف وسريع، مثلَ أنفاس الجياد في الشتاء، خلال الساعات الأولى من الصباح.

الصمت يجرح فمي، كأنني آكل خبزًا جافًّا. أقولُ:

- الأيام تمر دون أن تدرك الواحدة منا مرور الزمن. مرَّ علينا عامان هنا. جئنا معًا، في القطار. كان قطارًا مليئًا بالجنود

الذين يغنون.

صحن الماء أصفر. توجد به خطوط خضراء حية. طلاء الصحن متشقق.

- كانت يداك فوق ركبتيك يا تيريزا. كما كنت تنظرين إلى أسفل، وكنت أرى كيف تتحرك شفتاك في صمت، كشفاه القسس الذين يسيرون خلف المسيرات في القرى.

يوجد أصيص فخاري في أحد الأركان. زهور الخطمي العطرية تنفتح.

- كنتِ تقولين، كأنما تنظرين للخلف، كأنما بعدما نظرتِ لقلبك: «أصابُ بالقشعريرة عندما أُفكرُ أنني سأطلق صومعةً على غرفتي». كان الجنود يغنون أناشيد وأغاني عسكرية، بصوت أجش، كأنما بسبب النبيذ. قلتِ بعد الكثير الأغاني العسكرية: «بالنسبة لنا نحن الراهبات، رفع الجسد أمر هام وحساس. لسنا أدوات للصلاة فقط. يتم نزع أي شيء غير قادر على الصلاة من الحياة الخارجية لأجسادنا. عفتنا ليست سوى صلاة بالجسد». بعد ذلك تبتسمين. كأنك تخجلين من امتلاكك لكل هذه الشجاعة.

كانت الضوء يتسرب عبر الخصاص المغلق وينساب بهدوء إلى

الحيطان، حيث تلمع النظافة الأبدية كالجير.

في الأيام الأولى، بالليل، بعد الانتهاء من العمل في عنبر المرضى، كنا نذهب، كما الآن، إلى مسكننا. أنتِ تتذكرين هذه الأمور. كنا نخلع المريلة ومعطف العمل الأبيض، في صمت، وفي الكورال نستعيد الحالة المعتادة والتلقائية أثناء الصلاة. كنتِ تقولين: «الصلاة لا تمنح القوة فقط؛ إنها القوة ذاتها». وبعد ذلك، بعد الانتهاء من العشاء، في وقت الفراغ، كنتِ تبدئين الحوار ذلك الصوت الدافئ، الفريد، الذي يصدر دائمًا بعد الصلوات. كنتِ تقولين: «أمام الرب، أثناء الصلاة، يجب أن نصل للنسيان التام لأنفسنا. يمكنني التأكيد أن هذا النسيان هو التواضع التام».

شفتا تيريزا كروس رفيعتان. وجهها جامد. كأنه حجر أصفر. تيريزا كروس تبكي في صمت، بقوة، داخل صدرها.

-الرئيسة، بصوتها المُحمَّل بالسنوات والتَّفهم، بتلك الثقة التلقائية التي تتمتع بها نساء الريف، كانت تقول: «يجب أن تُفكري كثيرًا يا أخت تيريزا، وعندما أقول كثيرًا فأنا أعني يوميًّا. فالنسبة لنا، نحن الخاضعات للقواعد، دائمًا ما نحتاج المقاومة أكثر من الرغبة. نحن لم نأتِ هنا لكي نفعل، وإنما لكي يُفَعَلَ بنا. مثل الإبريق الذي يصنعه صانع الفخار. الكمال بالنسبة لنا صعب. الطريق نحو الكمال أسهل في الأديرة المغلقة، بتدمير

الوحدة الإنسانية في عزلة صومعة: تدمير الأنا وتحويلها، عن طريق الصلاة، إلى قلب وشرايين في جسد الكنيسة الروحاني. نحن، بعد هذا الفرض، لدينا مهمة جديدة، مهمتنا الرئيسة: الخدمة باسم المسيح. لكننا لا يجب مُطلقًا أن نقدم الطعام والشرب باسمه، إن لم نصل قبل ذلك إلى هذا التواضع العميق كي نصبح مجرد أدوات بسيطة لتقديم الطعام والشراب. إن كنا نرغب في الوصول إلى هذه الدرجة العليا من التواضع، لا يجب أن يكون لَكُنَّ حضور، وإنما ببساطة يجب أن تكون أعمالكن حاضرة». كنتِ صامتة، أسيرة صمت هادئ وبشري، كالصمت الذي تتذرعين به داخلك، وبعدما قلتِ إنك تريدين الذهاب لقطع الحطب للجماعة، أمروك بتغيير زهور السوسن في المذبح.

دقات الساعة تطارد الصمت، ذلك الصمت الهائل الذي أود إغلاقه برقة لا نهائية كما طويت قميص خوستو باستُور، الذي مات عندما كانت ملابسه في غرفة الكي.

4

مانويل تُور

هذا الهوس بدم المسيح، بالآلام، بالشيطان، بالكلام بسرعة كأنني مُتَّقد، بالشعور بأنني حي والنظر حولي كأنني مدفون. بدأ كل شيء في ذلك العام، في أغسطس.

هذا ما أقول للرب:

كانت البداية في أغسطس. كانت السماء مُغطاة تمامًا. كانت الريح تثير الغبار في الشارع، ويبدو أن عاصفة صيفية ستهب. أبي الذي كان آتيًا من القرية، دخل البيت وأغلق الباب الزجاجي بعنف. ارتجَّ الزجاج، ونحن أيضًا. هذه هي الحقيقة، لأن أبي كان سيئ المزاج باستمرار، ودائمًا ما كان يزعق بأمي حتى تبكي. بعد ذلك كان يذهب إلى البار، وعندما يعود كان يجد البيت في صمت، ويسأل إن كان أيٌّ شيءٍ قد حدث. كان أبي يشبه عاصفة صيفية. دخل المطبخ وقال:

- ماريا.

– ماذا؟

– يجب أن تجهزي الملابس الضرورية. الحقيبة الصغيرة. الحقيبة الصغيرة فقط. ربما كانت هناك حاجة للهرب. أنت والأولاد إلى المدينة.

– ماذا حدث؟

– إنها الحرب. إنهم على وشك الإنزال. هنا في القرية. خمس سفن. أمام الساحل. يمكن رؤيتها من برج مبنى البلدية. جنود الطيران رأوها من نقطة المراقبة التي أقاموها فوق البرج. وأعطوا الإنذار. لا توجد ذخيرة تقريبًا في القرية.

أنا وأبي وأمي كنا نقف وسط المطبخ. دون كلام. كأننا ننتظر. كان أبي يُدير القبعة بين يديه، وكنا ننظر له ونرى أنه خائف.

ذهبتُ إلى الباب الزجاجي المُؤدي إلى الشارع، وكانت السماء معتمة والطريق رماديًّا، مثل البحر عندما يكون الوقت ليلًا. كانت مجموعات من الرجال بأقمصتهم على الدرجات الحجرية أمام البيوت. كانوا يتحدثون بصوت خفيض، بأيديهم في جيوبهم. والنساء، بالتعبير الغبي لمن لا يفهم أي شيء، كُن يسمعن ذاهلات، بشعورهن غير مصففة، بفتحات الصدر مفتوحة وتكشف عن القمصان الداخلية المتسخة. كانت يداي على مقبض الباب الزجاجي، كنتُ مترددًا، لأن الشارع كان يبدو لي الحربَ ذاتها،

أرض معركة حيث يُمكن أن تسقطني رصاصةٌ لأتمدد في الشارع بذارعيّ وساقيّ منفرجة بشكل مرعب. خرجتُ إلى الشارع. ببطء. كأنني جندي. كأنني أخرج من دشمة لأداء واجبٍ يتوقف عليه أمر حياة أو موت. لم أذهب بعيدًا. ذهبت إلى بيت باو إنجلادا، فتى من عمري، وكان رئيس المعسكر الذي كنا نقيمه في كهف، على مدخل القرية.

كان باو إنجلادا جالسًا بمفرده في الحظيرة، كان يغطي وجهه بيديه. كان باو إنجلادا يبكي في صمت، مثل من يذهبون إلى ركن للجلوس على انفراد ويبكون أحيانًا. لم أقل له أي شيء لأنني لم أكن أعرف الكلمات التي تُقال عندما يذهب فتى، وهو رئيس المعسكر أيضًا، للبكاء في ركن. وضعت يدي على عنقه، دون أن أقول أي شيء. كأنني أعرف لم يبكِ. بالنسبة للأطفال في التاسعة من أعمارهم لا يوجد سوى البكاء والموت، واضحين وبديهيين، مثل سكين أو شجرة. الأطفال في التاسعة من أعمارهم لا يعرفون ما هي الأسباب الطويلة العميقة والتي لا تخمد أبدًا.

رفع باو إنجلادا عينيه نحوي. حينئذ اكتشفتُ أن الطفل عندما يبكي، يبدو رجلًا كبيرًا. قال باو إنجلادا:

- ذهب أبي، مساء أمس، في الغروب. ولم يعد حتى الآن، وأنا رأيت... وأنا رأيت أنه يضع مسدسًا في جيب بنطلونه، وضع

ذلك المسدس ماركة آسترا في جيب بنطلونه.

كان باو إنجلادا ينظر لي بينما يقول «ماركة آستر ا»، لأنه أخذها من أبيه ذات يوم وحملها إلى المعسكر، وغرسها في صدر جوليان بايستير لكي يعطيه شارة للمدفعية يحملها في جيبه، لأن باو إنجلادا كان القائد ولم يكن يحمل أي شارة تكريم، وكان يثبت غطاء زجاجة مشروب غازي إلى القميص.

كان الشارع ممتلئًا بالحرس المدني[1] المسلحين طوال اليوم، كانوا يوقفون السيارات ويسجلون أرقامها. كان مشهدًا غريبًا بالنسبة لي ولباو إنجلادا. في الحقيقة كان يبدو أن السيد سيلفيستري والسيد كاسيميرو والسيد ماتياس والسيد باسكوال، وكانوا أصدقاء أبي، قد احتلوا الشارع. لم ينزل جنود السفن على ساحل قريتي.

في المساء، عندما كانت أمي قد أدخلت الحطب والماء والخضروات في المطبخ، وكان أبي قد قدَّم الماء للحصان، وصل الخبر. كانوا قد عثروا على أبي باو إنجلادا ميتًا فوق تلٍّ صخري، برصاصتين في قفاه ورصاصة في ظهره. جاء بالخبر اثنان من أصدقاء أبي باو إنجلادا، الذي كان اسمه ماتيو وكان رجلًا طيبًا ومبتهجًا قبل أن يموت. جاؤوا بالجثة في وقت متأخر للغاية من الليل، أدخلوه من الباب الخلفي للبيت فوق نقالة خشبية، وكانت مُغطاة ببطانية.

1- الحرس المدني في إسبانيا، جهاز أمني تابع لوزارة الداخلية، ورغم اسمه إلا أنه يشبه «شرطة عسكرية».

صمتُ الرجلين اللذين يحملان النقالة أخافني بقدر خوفي من الجثة، التي كان رأسها يتحرك ببطء تحت النسيج الذي يغطيها. لفَّت أمُّ باو إنجلادا منديلًا وجلعت منه كرةً ووضعته بين أسنانها.

ترك الرجلان النقالة على الأرض. كشفا عن الجثة وألقيا بالبطانية في أحد الأركان. كان أبو باو إنجلادا يرتدي بنطلونًا قديمًا، من الدريل الأزرق، وقميصًا كاكيًّا. كان وجهه شاحبًا وفمه مفتوحًا كاشفًا عن أسنانه. اعتمد الرجلان اللذان جاءا بالنقالة على ركبيهما على الأرض وعرَّيا الجثة. لم يكن أبو باو إنجلادا يمتلك شعرًا في جسده تقريبًا. لكي يخلعا البنطلون، فكا الأزرار ثم جذبا من القدمين إلى أسفل. وحينئذ أدركت قدرة الموت عندما خلعا البنطلون ورأيت أن الأجزاء الحميمية لأبي باو إنجلادا لم تكن مُغطاة.

حمل أبي الملابس المبتلة إلى مخزن في نهاية الحظيرة، وكان وجه أبي أبيض كجير الحائط.

جاؤوا بباو إنجلادا لينام معي، وظل يبكي طوال الليل. في الصباح، عندما نهضنا من الفراش، كان يبدو أكثر نحافة، مثل الفتيان عندما يبدؤون في معرفة كيف يُنجب الأطفال.

بعد ذلك، في ليالي الصيف، كنا نُحبس في المطبخ أو في الحظيرة، كالمسجونين. وكأننا يجب أن نشعر بالخجل من جريمة ما. وكانت لنا عيوبنا، لكن إن كان أي شخص قد رآنا نقتل أو نسرق أو نلوث

سمعة الناس، فليقل هذا.

لم يكن أبي راغبًا في أن نخرج ليلًا لتنسم الهواء في الشارع مع الرجال والنساء. كنا أصدقاء للجميع، وكانت النساء يأتين إلى بيتنا في منتصف النهار وفي الليل، لطلب حزمة بقدونس، بضع أوراق كرات، حفنة من الملح، وكان الرجال لا يملون من المجيء طلبًا لحجر ولاعة من أبي، وكان يقول لهم، وكان محُقًّا في هذا: حتى إن كانت أعضاؤهم صغيرة لكن صلبة مثل رصاصة، لذهبوا إلى دكان التبغ، حيث يبيعون عشرة أحجار للولاعة مقابل 2 بيزيتا. كنا نعرق كالملاعين في الحظيرة ليلًا، لكيلا نرى الرجال الذين يعبرون الشارع، بأيديهم مصفدة بالأغلال أمام بطونهم، كأنهم مساعدون ملاعين للقسس في المسيرات الدينية. كانوا يقودونهم إلى مدخل القرية. ويسيرون في طريق ضيق بين حقلين. كانت الأسوار على جانبي الطريق عالية للغاية، وكانت ممتلئة بأشجار كبيرة، جذوعها شائكة، وبها كريات كبيرة صفراء تُدعى كريات الشيطان. وفي ذلك الطريق الضيق كانوا يجبرونهم على شرب زيت الخروع. لتر أو لتر ونصف اللتر. بعد ذلك، كانوا يربطون الأطراف السفلية لبنطلوناتهم ويجعلونهم يجوبون القرية بينما ينشدون أغاني وطنية، وكان صوت الرجال ينحبس، ويبكون كالنساء، ولا يستطيعون المشي لأن البنطلونات من الداخل لم تكن نظيفة.

بعد أن رأيت كل هذا الرعب وكل هذه الإهانة، بدأ الشَّر يتَّقد داخلي.

ذات ليلة، في شهر أكتوبر، كنت مع باو إنجلادا وسمعنا أنهم يعدمون بعض الرجال بالرصاص أمام سور المقابر. قال هذا شاب قصير القامة يقوم ببناء المخابئ ضد القصف، كان يبنيها تحت سقف من القش، بواسطة عصى من الخيزران وأجولة من الرمال ومن الخروب. كانت أمي تذهب إلى بيت باو إنجلادا ليلا، لكي تنام هناك في رفقة الأرملة، التي كانت حانقة وتتكلم كالمجانين. أبي، الذي كان عضوًا في الميلشيات[2]، كان يذهب لمراقبة الساحل بينما يحمل بندقية ماوسير أعطاها له رقيب من الشرطة المدنية. قد أكون مخطئًا، لكنني أعتقد أن أبي لم يكن سيعرف ماذا يفعل بالبندقية إن ظهر له رجل من خلف شجيرة على مبعدة مترين. كان أبي رجلًا جبانًا، وكان يظهر في الأماكن الخطأ فقط، في المنتصف، مثل يوم الثلاثاء. أنا وباو إنجلادا كنا ننام معًا، وكنا نحب أن يتركونا ننام بمفردنا، مثل الرجال الكبار. كان باو إنجلادا يدخن في الفراش. لم أكن أحب التبغ، لكنني كنت أدخن لكي لا يقول إنني لا أمتلك أي شيء بين ساقيّ.

في تلك الليلة خرجنا من البيت. قفزنا فوق السور الذي يفصل الحظيرة عن الطريق. عندما عبرنا أمام الإسطبل، سمعنا الضجيج الناتج عن تحرك الحصان. كان الطريق خاويًا، والأسفلت يلمع تحت ضوء النجوم. كان الهواء ساكنًا، والأشجار لا تتحرك. لم يكن هناك سوى الرائحة المنبعثة من الأرض الحمراء، هذه الرائحة

2- «الميليشات الوطنية»، تنظيم شبه عسكري في إسبانيا بين 1937-1944، وضم العديد من التنظيمات اليمينية مثل الكتائب والملكيين.. إلخ.

المميزة للأعشاب الجافة، المطحونة، التي ماتت بجوار السور. عبرنا القرية دون كلام. كانت الشوارع خاوية، وعندما وصلنا إلى مخرج القرية، أمام صليب محاطٍ بالزهور وأشجار الصنوبر القصيرة، الممتلئة بالغبار، تبادلنا النظرات ضاحكين، بمرارة، لأننا كنا في بداية طريق المقابر، وكنا نشعر بالخوف.

خرجنا من الطريق، توغلنا في الحقول الجافة، الممتلئة بكتل الوحل المتصلبة، وكانت أقدامنا تؤلمنا بسبب سيقان النباتات الجافة المترامية على الأرض. كانت رائحة أشجار الزيتون، التي أصبحت قريبة، تملؤنا بالانقباض والصمت والجُبن المكتوم. وأمام الأرض الحمراء، المُتصلبة بفعل الشمس، كان السير صعبًا لأننا كنا نسير لصق الأسوار المليئة بأشجار العليق، ونبات الهليون الذي بدأ يزهر وتنبعث عنه رائحة قوية للغاية. كانت هذه الرائحة غريبة لنا في الحقول.

كانت المقابر بجوار الطريق السريع، على مبعدة خمسين خطوة تقريبًا. المسافة بين الطريق والسور كانت أرضًا مليئة بالحصى والشجيرات النحيلة. ظللنا على الجانب الآخر من الطريق... في غابة سنديان صغيرة بها بعض الأشجار الكثيفة العالية. كان مكانًا جيدًا للاختباء. دخلنا وسط بضع أشجار. كانت أطول منا بثلاث مرات. من موقعنا بين الفروع، كنا نرى السور الذي يضيئه نور القمر وأشجار السرو المنتصبة، التي كانت تتجاوز السور بمقدار نصف متر. كما كنا نرى واجهة المصلى العالية، والتي كانت مطلية

بالجير.

- باو.
- ماذا؟
- أين أنت؟
- هنا.
- لم أكن أراك.
- الليلة معتمة للغاية.
- معتمة للغاية.
- لا بدَّ أن الوقت متأخر.
- نعم.
- هل تحمل تبغًا؟
- لم أنتبه لحمله.
- عليك اللعنة.

كان الانتظار طويلًا، صامتًا. لم نتحدث. من حين لآخر فقط، كان أحدنا يضع ذارعه على كتف الآخر. بعد وقت طويل سمعنا صوت محرك سيارة، وكأن شخصًا ما قد وضع سلكًا كهربائيًّا في العمود الفقري. غطى كلٌّ منا فمه بيده لكي لا نصرخ. مرَّر

باو إنجلادا يده على عنقي، ولا أعرف أي شيء غريب مر بخاطره عندما سمع صوت محرك السيارة، لأنه قبَّل جبهتي بسرعة. أمسكت بيده، لكي يشعر بالرفقة. كانت يده باردة وكان يرتعش.

- سيعودون الآن لقتل أبي.

توقفت السيارة إلى جانب الطريق. شعرنا بالرعب لسماع صوت توقف المحرك. كان الصمت موترًا، مثل حبل مشدود. انغلق باب السيارة بعنف، وصدر صوت إيقاع الخطى فوق العشب، والحذاء الذي يرتطم بالأحجار. بعد ذلك بدا أن الدم تجمد في عروقنا. كان بضعة رجال يسيرون في طابور باتجاه السور، كانوا يبكون كالحمير، بصوت محشرج وعال كالحمير. وكان هناك رجلان بملابس عسكرية، بالمدفع الرشاش مُعلقًا على الكتف، وكل منهما يحمل في يده مصباحًا يشع ضوءًا قويًا. وأضاءت مصابيح السيارة المتوقفة أمام المدافن، ووجهت ضوءها إلى السور. ترك من يرتديان ملابس عسكرية المصباحين على الأرض؛ خلعا الأصفاد من الرجال، ومدَّ الرجال أذرعهم وثنوا سيقانهم كأنهم يوشكون على السقوط، وصاحوا بأسماء نساء ورجال. كانت الأسماء الذكورية تصدر بصوت خاص، بصوت ضعيف وأكثر انكسارًا، كأنما يتم النداء على طفل. دفعا الرجال بكعب المدفع الرشاش نحو السور. جعلاهم يقفون في صف، متلاصقين، بوجوههم إلى السور. كانوا يبكون كالحمير. على مبعدة مترين، أطلق العسكريان رصاصات مدفعيهما الرشاشين. سقطوا جميعًا على ظهورهم، بأذرعهم

مفرودة، كالدُّمى. بعد ذلك سُمعَت بضع تآوهات طويلة وضعيفة. اقترب رجلٌ يحمل مسدسًا في يده –بام، بام، بام، بام!– وانتشر صمتٌ حاد في كل الحقل. انطفأت مصابيح السيارة وسقط السور في العتمة، بالقليل من ضوء القمر على الأحجار. غرَّد طائرٌ على شجرة سنديان. تحركت أشجار الصنوبر الخضراء التي تفوح رائحتها، وصدر عنها خشيش تحت النجوم.

– مانويل...

بعد وقت طويل، أمسك باو إنجلادا بيدي، كأنه قد تعرَّف عليَّ هناك، ليلًا. وعدنا إلى القرية بحنقٍ طفولي لأننا عرفنا أن الشخص الذي أنهى قتل الرجال هو أبو جوليان بايستير، الفتى الذي هدده باو إنجلادا بمسدس أبيه ماركة آسترا ليعطيه شعار المدفعية.

بعد ذلك، حلَّ مساء اليوم التالي يا سيدي. كان مساءً رقيقًا شفافًا. مساء في شهر أكتوبر، عندما خرجنا من المدرسة، ترك كلٌّ منا حقيبته في بيته، وجرينا إلى الكهف حيث أقمنا المعسكر. كان باو إنجلادا يحمل مسدس أبيه ماركة آسترا. كان يحمل في يده بالون دعاية لشركة نسيج أعطته أمه إياه، وكان يحمل أيضًا عبوة ملح إنجليزي وزجاجة سعة لتر ممتلئة بالماء. في منتصف الطريق، أعطاني باو إنجلادا الأشياء التي يحملها في يده وانطلق في الجري إلى بيته. كان قد جرى مئة متر عندما استدار، رفع يده وقال:

– شارة المدفعية. لقد تركتها.

- آه!

سرتُ ببطء لكي يمكنه اللحاق بي. عاد جاريًا ولاهثًا. قال بيده على صدره:

- لا يمكنني أكثر من هذا. لقد نسيتها.

وأشار بإصبعه إلى شارة المدفعية، المنطفئة، التي يغطيها الصدأ الأخضر، والتي كان يعلقها على صدره، في الجزء الأيسر من القميص.

كان الكهف كبيرًا، عميقًا. كان أكبر من بيت. كان هناك ثقب في السقف، ويشبه نافذة قمرة سفينة، ومنه يدخل النور. كان مدخل الكهف صغيرًا، ولم يكن عريضًا للغاية. كان الهبوط صعبًا. كنا نهبط بينما نتشبث بالصخور، التي كانت سوداء، ضخمة ورطبة. كانت شجرة تين شابة تنمو في أحد الأركان، كانت أوراقها كبيرة خضراء. وينساب الماء على الجدران في صمت، وعندما يسقط على الصخرة تصدر دقات متتابعة، وكان يبدو أن الجو رطب داخل الكهف.

جلسنا على الأرض، وضعنا الملح الإنجليزي في الزجاجة وأخذنا نرجها، أنا أولًا، ثم باو إنجلادا. حتى ذاب الملح تمامًا. ربطت البالون إلى حجرٍ مثقوبٍ في منتصفه. أصبح البالون مستقيمًا في الهواء، مثل زهرة كبيرة.

انتظرنا جوليان بايستير. كان يأتي كل مساء بعد مرافقة الأبقار إلى المشرب العمومي. كان الأولاد يضحكون منه لأنه كان يصيح: «من هنا يا بهقاء، سوووووووو، يا ملونة، إيييييييييه!»، ولأنه كان يرتدي بنطلونًا طويلًا لأخيه. وكان جوليان بايستير يحيي الناس الذين يمر عليهم بيده بينما يقود البهائم إلى المشرب.

عندما سمعنا خطوات جوليان بايستير، الذي كان يحني رأسه للدخول إلى الكهف، نظرنا إلى الضوء الداخل من الثقب، وأدركنا أن غروب الشمس سيحل بعد قليل.

- -كوكو!

هبط جوليان بايستير عبر العنق الذي تشكله الصخور. كان ظله الداكن منعكسًا أمام ضوء المدخل. كان يقبض بيديه على كتل الأحجار الكبيرة. كان يبحث عن مكاننا برأسه وصوته:

- مانويل.

- وييي!

- باو.

كان الماء ينساب على الجدران، ويسقط على الصخرة بدقات كالساعة.

- باو.

كانت شجرة التين الشابة الخضراء داخل الكهف توحي

بالطراوة.

- إن لم تكن تريد الرَّد يا باو، فلا ترد.

كان الضوء المتسرب من كوة الكهف يخلق حالة غير واقعية فوقنا، فوق الصخور، على الأعشاب الرطبة المتدلية من الصخور المبتلة.

وضع جوليان بايستير يدًا على كتف باو إنجلادا.

- ماذا بك؟

- ارفع يدك عني، يا خـــ...

في لمح البصر. أسرع من ضوء البرق. قبض جوليان بايستير على عنق باو إنجلادا. رفع باو إنجلادا قدمه وركل الجزء السفلي من بطن جوليان بايستير بكعب حذائه بحنق شديد. سقط جوليان بايستير على ظهره. وكقط متوتر، جثم باو إنجلادا فوقه ووضع ركبةً فوق معدته. كان يضغط على عنقه بيديه.

- أين ذهب أبوك ليلة أمس؟

- لا أعرف. فيم يهمك أين كان أبي؟ أبي ليس كأبيك، الذي قتلوه لأنه...

ضغط باو إنجلادا الركبة على المعدة بكل قوته. غرس أصابعه في العنق ولصق عينيه بوجه جوليان بايستير.

- سأقتلك هنا.

كان جوليان بايستير قصير القامة. كان شجاعًا. لم يكن يبكي. كان رأسه صغيرًا، وكان سريعًا مثل فأر. تحمَّل جوليان بايستير ضغط باو إنجلادا بينما يضغط على أسنانه. كان يقاوم بذراعيه، بقدميه، ويحرك رأسه من جانب لآخر بحدة. كان وجه جوليان بايستير محتقنًا. بدا أن عينيه ستخرجان من مقلتيه وستنفجران على الجدار المواجه. وفي لحظة تخفيف باو إنجلادا للضغط بركبته وأصابعه، تلوَّى جوليان بايستير بعنفٍ كقط، وغرس كل أسنانه في وجنته. امتلأ فم جوليان بايستير بالدم، بصق بحنقٍ إلى جانب. حينئذ أخرجَ باو إنجلادا المسدس من جيبه بسرعة، ووضعه على صدر جوليان بايستير.

- ككلب، سأقتلك ككلب.

كان وجه ويدا وقميص باو إنجلادا ممتلئين بالدم. كان صوته غريبًا، كأن هناك حجرًا في فمه بينما يتكلم

- ككلب.

- أنت تقتل بلسانك فقط. عضوك كحبة البلح. أنت كالدجاجة، التي تفر عندما تسمع أي صوت.

- ستشرب هذا.

كان باو إنجلادا يشير برأسه إلى زجاجة الملح الإنجليزي.

- ستنفجر بالسعار مثل الكلاب، لأن أباك قتل خمسة أشخاص بالأمس. أمام سور المقابر. أبي سيقتل أمك من موقعه في السماء. سيترك جسدها بلون أصفر. سينزع وجهها، كالجزارين الذين يسلخون الشياه بسكين. سيمتلئ بيتك بالقاذورات لأن أمك لن تكون موجودة. وسيموت أبوك وحيدًا، في ركن، مثل القطط التي تموت مهجورة في الحقول.

أمسك باو إنجلادا بالزجاجة. ترك المسدس آسترا على الأرض ببطء.

- اشرب هذا. كله. مرة واحدةً.

وضع الزجاجة في فمه. شرب القليل بينما يضغط بأسنانه. وحدث كلُّ شيءٍ في لحظة واحدة، بشكل غير متوقع. جوليان بايستير، الذي كانت الهزيمة على وجهه، ضرب بطن باو إنجلادا برأسه. وضع يده على ذقنه. ضغطها إلى أعلى، كأنه يريد كسر عظام فكه. وضع أسنانه فوق صدره، على الحلمة اليسرى. صدر صوت تمزق اللحم، كأن كماشة تنزعه. صرخ باو إنجلادا كالمجنون. وبينما كان يصرخ، كأنه يموت، رأيت أنه يبحث بيأس في جيب بنطلونه.

-باو! لاااااااااا!!

غرس باو إنجلادا السكين في الظهر حتى مقبضه.

كانت الطرواة تعم الكهف. والماء يسقط على الصخرة بدقات

كالساعة.

جريت هاربًا نحو مدخل الكهف. كانت الشمس قد غربت. قبل الخروج لهواء المساء البارد، أدرت رأسي إلى الخلف. كانت يدٌ لباو إنجلادا على شعر الميت، وقبَّل جبهته، بسرعة، كأنه يشعر بالخجل من هذا. كانت الحقول معتمة تقريبًا.

جريت دون توقف حتى القرية. في المدخل، عندما رأيت البيوت الأولى، بالمصابيح الكهربائية، بدأت في البكاء.

حملوا جوليان بايستير إلى بيته ملفوفًا في ملاءة، في عربة أبيه. كانت القرية كلها أمام باب البيت، تتحدث بصوت خفيض، في انتظار أن يأتي الرجال بالميت.

لم يعثر جنديا الحرس المدني على باو إنجلادا في الحقول في تلك الليلة. بحثت عنه فرق من الرجال خلال ثمانية أيام، ومشَّطت المنطقة شبرًا شبرًا. لم يتركوا شجيرة دون فحص. حتى أثناء الليل، كانت الحقول ممتلئة بالرجال والكلاب. بعد أسبوع، رأوا آثار أقدام باو إنجلادا بالقرب من بئر جيروني كروس. وبجوار آثار أقدامه الصغيرة كانت هناك أيضًا آثار لأرجل طيور السمان والحجل التي كانت تذهب لشرب الماء من الحوض الموجود تحت فوهة البئر.

وضعوا في البئر سلمًا من محطة الكهرباء. أخرجه أحد الرجال من سكان شارعه. كان يحمله تحت ذراعه.

وضعوا الجثة فوق جوال على الأرض، تحت الشمس النارية. انتظروا وصول السلطات القضائية، رجلا الحرس المدني، رجلا الشرطة المحلية، كل هؤلاء من أجله، من أجل طفل... كانت ذبابة كبيرة تحوم فوق عينيه، وتكسر الصمت الثقيل المخيم على الرجال الموجودين بجوار البئر، بينما يُديرون قبعاتهم في أيديهم. وصلت عربة الدفن، دون أبهة. كانت مغطاة بالغبار، كما كانت في جراج البلدية. وضعوا الجثة داخل جوال طويل، جوال نيترات من تشيلي. كان رأسه خارج الجزء العلوي. وضعوا جوالًا آخر، في الاتجاه المعاكس. ربطوا الحزمة بحبل ووضعوها داخل العربة. أخذ نسيج الجوال في التبلل شيئًا فشيئًا. كأن باو إنجلادا لم يمت قبل قليل. قطع الرجال بضعةَ فروع من شجرة مستكة بالفأس. وضعوها لتغطية الجوال في السيارة. كان الوقت ظهرًا. كانت الشمس حارقةً على الطريق. وعبرت السيارةُ القريةَ بأقصى سرعة، بينما كانت الملاعق تُصدر ضجيجًا جافًّا بينما ترتطم بالأطباق في الأجزاء الخلفية من البيوت، حيث كان أهل القرية يأكلون بينما يتبادلون النظرات...

هكذا بدأتُ أعيش يا سيدي. كانت هذه هي أول أرض، الجذور الأولى، الإدراك الأول. لا تتَذَكَّرْ يا سيدي حكمك الغضب. تَذَكَّرْ أنني كنت طفلًا في الحرب. ذات يوم...

5

جابرييل كالدينتي

من البديهي أنني لم أكن أسعى إلى راحتي عندما اخترت المصحة بدلًا من كنيسة. سأكون أكثر صراحة إن قلت إنني لم أعثر على راحتي. كنيسة مجهولة، كنيسة مثل كل الكنائس، بالرتابة اللزجة الثقيلة، مثل قطيع من الثيران. رعية الكنائس الريفية تعيد وتزيد في ذات الأمور، لزجة مثل الغربان والذباب. يبدو أنها لا تتحرك، وإنما تجرها دقات الأجراس؛ في بعض الأحيان، خلال العام الأول من التكليف، كنا ندق على هذا الجرس الوحيد ذي الصوت النشاز بحمية وإيمان يحملنا إلى البكاء.

يمكنني التحدث عن الضجر اللزج في الكنائس الريفية، لأنني أعرفه وليس لأنني أرى نفسي في شخصية القس في أحد كتب برنانوس[3]، هذا الضجر الذي لا يمكن لدم المسيح المنساب يوميًّا أن يذيبه.

أجلس أمام المدفأة في أول بيت تابع للكنيسة أقطنه، أتأمل الشتاء

3- جورج برنانوس (1888 – 1948) روائي فرنسي.

من خلف الزجاج، أفكر أن العقاب الجسدي ضروري للغاية، وأن هناك حاجة مُلحة لشق الجلد بسلسلة، لكي يكون أداء التكليف، في كل عمل، مصحوبًا بالنار اللازمة، ويتم الحصول على المباركة مباشرة. بعد ذلك، كنت أشعر بألم شديد في ذراعيّ جراء الاحتفاظ بهما مفتوحين أثناء صلوات القداس، وكان هذا الألم يجعلني أتذكر أمي وأرى أن هزيمة الضجر ممكنة فقط عن طريق الدم والصلاة.

في أول بيت تابع للكنيسة أدركتُ أن العمل ككس لم يكن سلكًا وظيفيًّا، على الرغم من أن هناك حاجة لشهادة ولدرجة وظيفية للاضطلاع بالتكليف. وأدركت أول خبراتي القسية بأن ضجر كنيسة يشبه ليلة في بستان جثسيماني، عندما يسقط أفضل الناس أمام النوم، وحيث يوجد الكثير من الدم على المنصة، وصمت إلهي كبير مرعب.

كان لا بدَّ أن تتشكل شخصياتنا بطريقة مختلفة في معهد اللاهوت، لنكتسب شخصية ذات طبيعة حادة ونظامية ونتلقى التكليف بعد الاصطدام مرارًا وتكرارًا بالواقع القاسي للمسيح، بعد أن نجد أنفسنا أمام المعضلة الدامية للاختيار جبرًا، باستمرار، بين النعمة والتراتبية. حيث كل شيء نعمة وكل شيء هو الكنيسة.

كان يمكننا أن نكتسب هذه الشخصية بطريقة إيجابية إن كانت دراسة العلوم المقدسة قد قامت على العيش والتحقق داخليًّا من حقيقة الكتب القاحلة. من العبث دراسة اللاهوت دون اختباره

كواقع حي. هذا العبث هو أصل الضجر في الكنائس الريفية وقسسها.

المصحة هي الوجه الآخر أو نقيض الضجر. هناك تقع الخطيئة بشياكة، يقع المرء في الخطيئة ويتم الحديث عنها، كما يحدث في الطبقات العليا من المجتمع. في هذه المصحة تُرتكب الخطيئة بجسارة وليس خلسةً كما يحدث في الكنائس الريفية. نزلاء هذه المصحة من عائلات متواضعة. الراحة والرفاهية في المبنى، والمعدات الحديثة، والخدم ذوو الزي الموحد، يعطونهم شعورًا غريبًا بالتفوق. يقعون في الخطيئة ببساطة، بتلقائية الرجال الذين عفا عليهم الزمن. أجلسُ فوق المقعد الخشبي في غرفة الاعتراف، أسمعُ رتابة خطاياهم المنطوقة بسرعة، ببرود، كأن إرادة وأوامر الرب هي المسؤولة عن ذنوبهم. لا أتوسل إليهم ألا يقعوا في الخطيئة. هذا كثير على جذور الشر الطويلة. أطلبُ منهم إدراكَ أنهم يخطئون. صمتهم، خلف شبكة غرفة الاعتراف، بينما أحدثهم وأسألهم بانفعال، هو التعبير المتكرر عن عدم اكتراثهم. لكن في أعماق غرفة الاعتراف، أشعر بالندم على خوفي، وأشعر بخطيئة حرصي، عندما أرى قطعة النسيج التي طلبت وضعها فوق اللوح المثقوب حيث يجلسون بينما يعترفون بخطاياهم. جُبني هذا من عدوى مُحتملة ليس جديرًا بمملكة الرب. أنا لستُ خادمًا جيدًا.

يأتون إليّ ممتلئين بالعجرفة، مُسلحين بروح نقدية، كفتيان مدرسة فرنسية يستخدمون مثبتات الشعر.

كنتُ اليوم محظوظًا عندما عقدت مقارنةً، مجرد مقارنة بائسة، لجاومه جاليندو. قلت له إن الأرض تشبه ملعب كرة القدم، والمسيح هو الكرة في هذا الملعب (أنا قسٌ بائس)، ويتبادل البشر هذه الكرة بأطراف أحذيتهم دونما أي اعتبار، وحارس المرمي فقط هو المسيحي الجيد، لأنه يُمسك الكرة بيديه.

ردَّ عليَّ جاومه جاليندو قائلًا إن حارس المرمى يُمسك بالكرة ليعيد رميها، بطرف حذائه، إلى منتصف الملعب.

بينما أتواجد بينهم، لا يوجد لديَّ خيار آخر سوى الموت بينما أُصلي، بينما تتزايد صلواتي بقدر أمراضهم الرئوية. أرى الليلة رائقة الآن، لها رائحة، تمتدُ كجناحي طائر مُحلِّق، وهذا يجعلني أبكي تقريبًا. هذه الليلة الجديدة، الحاضرة، الممتدة فوق أشجار الربيع.

يلمعُ شريطُ نهاية المسابقة على جير الحائط، بجوار النافذة، كليلةٍ في حدها الأدنى. عددنا أربعة عشر، بالأسقف في المنتصف، بيده على صدره. رامون دوك إلى جانبي، بجوار مقعد الأسقف، بيده على الحلية المكورة للمقعد. رامون دوك، صديقي في الفناء وفي الرحلات، يبدو وجهه كفتى نقي، مُعقم، شاحب، وجه ملاك مطرود. يبدو واضحًا في الصورة أن قَدَرَ رامون يوك هو ارتداء الحرير. كان رامون يوك بلا حس إنساني. لم يكن قادرًا على فهم الروح أو اللحم أو الدم. كان رامون يوك مُسلحًا بالقانون اللاهوتي وقرارات المجامع اللاهوتية أكثر منه حاملًا لصمتِ دمِ المسيح. لم يذكر جيوب

البنطلون مُطلقًا، وإنماء جيوب الزي الكهنوتي فقط، ذلك الجيب في الزي الناصع، والذي كان يُشكل مع يديه تلخيصًا لألفي عام من الحضارة. أتذكر تلك المناسبة الوحيدة عندما أمكنني رؤيته بينما يضحك دون تحفظات، ويتمرغ على الأرض في غرفتي. كان أول عام في دراسة اللاهوت، وأول مرة يحلق فيها شاربه. احتفلنا بالحدث في غرفتي، بينما نجلس على الأرض وفوق الصندوق وفوق الفراش. أهديناه ماكينة «جيليت» وفرشاة وقطعة صابون. بعد ذلك، بينما أُقلد الصوت الرفيع لرئيس البرنامج الدراسي، ألقيت محاضرة حول الأمر: «انحسار الزغب وسط زُهد القرن العشرين». أتذكر زي رامون دوك، الممتلئ بغبار البلاط المصنوع من الفخار المحروق، ولم يكن بالغ النظافة. الآن، أحنُّ لمرحلة الطفولة عندما كانت أمي تدخل غرفتي بصحن اللبن المغلي، كنت أركع، أضعُ مرفقيَّ على صدري وأبكي، بينما أشكر بالدموع الصامتة فوق جلدي، لأن حياتي ودم المسيح كانا في صحراء، لأنني لا أستطيع القيام بالأمور المخولة لي، لأنني لا أمتلك القدرة على كُرْه القوة التي لا مثيل لها للخطاة.

الآن يمكنني فقط أن أنظر لليل الممر ولهذا الجبل، وأن أشعر بالكوفية السوداء المدفئة حول عنقي، هذه الصورة في نهاية الدراسة، درج المائدة، به المناديل جيدة الكي، وفوقها توجد حقنة ودواء القلب، تحسبًا لوصول الأزمة، هذه الأزمة المُنتظرة.

6
أندريو رامايو

خرجتُ مع جوان ميركادير من قاعة مرضى الالتهاب الرئوي. عبرَ جوان ميركادير القاعة بينما يُصفر، بيديه في جيوبه، كان قميص المستشفى الطويل مفكوكَ الأزرار، ويدوس على الأرض بقوة بكعب حذائه. جوان ميركادير رجلٌ يخطو بثقة. يبدو كعريف يسير في مقدمة الفرقة. دائمًا ما بدا كجندي في إجازة. كان الحزام مفكوكًا عندما خرج من صالة مرضى الالتهاب الرئوي، سُرَّته مكشوفة في الممر، وتبدو طفوليةً تقريبًا، ولا يستدير إلى الحائط عندما يُنزل البنطلون لكي يضع القميص داخله. جوان ميركادير لا يرتدي فانلة داخلية، وعندما يكون معنا يتصرف كأنه بمفرده في الحقل، ويضع القميص في البنطلون بينما يميل بجذعه إلى الخلف، ويكشف لبرهة عن الجلد الأصفر فوق معدته. وبعد ذلك يربط الحزام، ويربت مرتين بتلقائية بين ساقيه، كأنه مصارع ثيران متباهٍ بعد مجموعات حركات مُبهرة.

قال لي لدى فتح باب المصعد:

– برقت عيناك، وأوشكتَ على البكاء عندما سألك المدير عن

صنعتك.

قلتُ له:

- إنني لم أعمل من قبل. في قريتي –أنتَ لا تعرف أهل القرى– كانوا سيشعرون بالشفقة عليَّ –أنتَ لا تعرف ما هي الشفقة الممزوجة بالبهجة في القرى– إن رأوني أعمل في ورشة نجارة، أو رأوني في محجر، إن رأوني أعبر القرية بعربة ممتلئة بالأسمنت، بعربة ممتلئة بالجير، إن رأوني أعمل كصبي في محطة القطار أو في دكان حلاقة جوان مارتي. لا يمكنني إلا العمل في البلدية أو في بنك. لكنهم لن يرغبوا بتوظيفي في البلدية أو في بنك لأنني لا أمتلك مالاً، والسيد أوجيني، التاجر، كان يعطيني المال ويحملني في عربته إلى مسرح المدينة، وبسببي كان الناس يُطلقون عليه «ماري الدموية[4]، قاتلة الأطفال».

قال جوان ميركادير:

- يجب أن تعمل عندما تخرج من المصحة. قال المدير إنك قادرٌ على العمل. إن لم تعمل ستعود لوضع يديك في جيوبك طوال اليوم. والأيادي يجب أن تُمسك بشيء ما، بالأخشاب أو الأحجار أو الجير أو الخبز. لكن إن كنت تدفئ يديك في

4- شبح أو مشعوذة برزت في الأساطير الإنجليزية. يقال إنها تخطف الأطفال.

جيوبك طوال اليوم، ستعود للاستيقاظ في الثانية عشرة. سترى أن البنطلونات أصبحت كبيرة عليك مرةً أخرى، وستشعر بالحزن. ذات يوم سينفجر الشريان، وسينطلق الدم بعنف شديد حتى يغطي المرآة، هذا إن كانت هناك مرآة في غرفتك. ستنتهي مثل خوستو، الذي ألقى بالملاءة على مرآة الحمام لكي لا يرى دمه. يجب أن تبحث عن حل يا رامايو. يجب أن تبحث عنه بنفسك.

- لقد عثرت على الحل. فكرت في الموضوع بالأمس، بينما كنت في الفراش.

وضع يدًا على كتفي، ونظر إلى عيني ببراءة:

- معذرة إن كنت قد قلت هذه الأشياء يا رامايو.

- لا تقل هذا يا رجل، إنك مُحق.

7

مانويل تُور

أفكرُ: الحمام مكانٌ رطب.

أشعرُ: رغبة ضعيفة في التبول، شعور متوتر، كأنه عذرٌ للنهوض من الفراش.

أجلس على الحشية، ضاغطًا بكلتا يديّ، على جانبي جسدي.

أنظرُ إلى الممر ذي الموزاييك الأحمر على الجدران، الأعمدة البيضاء، والحقل الأخضر، وأبحث بأصابع قدميّ عن الحذاء تحت الفراش.

أقفُ. أشعر بالدوار لكنني أحتفظ بتوازني، وأحرِّك عينيَّ بإفراط.

لا أعرف لماذا أذهب إلى المرآة. ربما لأنها نظيفة وأريد تحية نفسي منتهزًا نصوعها.

- أهلًا.

علبة معجون الأسنان «بروفيدن» الخضراء فوق الحوض الحجري الأبيض، تشعرني بالحيوية. شفتاي غليظتان، حمراوان.

أذناي كبيرتان ومتباعدتان للغاية. عنقي قصير. دائمًا ما كنتُ شاحبًا وعيناي لامعتان. دائمًا. إنها الساعة الثالثة. دائمًا. أشعر بالضجيج في القصبة الهوائية. المرآة لا تعكس ضجيج القصبة الهوائية. لأن المرآة مثل السعادة. والسعادة مثل المرايا: تعكس الصور فقط، لكنها لا تعكس الحقيقة مُطلقًا. مثل العلامات الرائعة للفنارات التي لا تكشف مُطلقًا عن الوقود أو الفتيل أو الأعين أو زوجات من يعلمون في الفنارات.

حافة الحوض تصل إلى خصري. أضع حزني على حافة الحوض المصنوع من الحجر الأبيض. إنه حزن شبيه بحزن أيام طفولتي في الصيف وأكون في البيت بمفردي، وأغلق الأبواب وآخذ ماكينة حلاقة أبي، وأحلق شاربي في المطبخ، بمفردي، مُبتهجًا باستنشاق عطر رغوة الحلاقة. بعد ذلك كنت أقف خلال وقت طويل أمام المرآة في غرفة نوم أبي، وكانت مرآة كبيرة، ذات حواف مشطوفة، وكنت أبتهج لرؤية أنني رجلٌ مثل بقية الرجال الذين يستديرون إلى الحائط عندما يخلعون ملابسهم.

أذهب إلى باب الممر. أشعر أن رأسي غاطسة حتى كتفيّ.

أشجار الصفصاف خضراء خلف شيش النافذة المغلق، وتتحرك مع هواء الصباح البارد. لا يمكن رؤية الجبل، لكن يمكن الشعور بُقربه كما يشعر مرضى الروماتيزم بتغيرات الطقس.

المباول بيضاء، وتفصل بينها قطع من الرخام الرمادي، الذي

يشبه وجه جثة القس رامون دوك، زميل الأب جابريل. مات في غرفة رقم 15. ذهبنا كُلنا لرؤيته، قبل أن يحمله أجوستي آلكانترا إلى المشرحة. كأن وجهه مُغطى بالرماد، وعيناه خضراوان، مفتوحتان عن آخرهما، ويوجد خيط أسود من الدم بدلًا من الدموع. نزيل غرفة 15 كان يحمل ابتسامة قوية وأحفورية في وجهه. كانت ابتسامة مدورة مثل الابتسامات التي تنطلق بعد نكتة. كأن نكتة الحياة قد أعجبته، كأن نزيل غرفة 15 قد فهم نكتة الحياة، كأن الضحكة ودموع الدم هما ذكاء وعار نزيل غرفة رقم 15.

أشعر في أذنيّ بطنين طويل. كصافرة القطار. أضع يدي اليسرى على قطعة الرخام، وتبتعد عيناي كأنهما لا يرغبان في النظر على الإطلاق. رأسي غارق في الغيوم، وجهي إلى الجدار، وأتبول نقطة فنقطة، كأنني أبكي.

إن رفعت يدي عن الرخام، سأقع. على الأرض. كالميت. كرجل يسقط لكي يموت. يمكنني الوصول إلى الممر إن تشبثت بكلتا يديَّ بالجدار، لكن لا يمكنني عبور المسافة الفارغة بين الحوض وباب غرفتي. أستند إلى الجدران الرخامية وأصل إلى الحوض، الموجود في الحائط المواجه، في الحائط المواجه النائي. سأضع رأسي تحت الماء البارد. سيستجيب جسدي. سيستجيب جسدي. سيستجيب جسدي. أُومن بالرب. أُومن بالرب. أُومن بالرب. وضعت إحدى يديّ فوق حجر الحوض، لأن أحد الأوردة قد انفجر بعد كل الجهد

الي بذلته. يخرج. بطريقة عنيفة. يرتطم بجير الجدار. يلمع. مثل طلاء الإعلانات اللامعة ليلًا، في الطرق. يخرج مرة أخرى. عنيفًا، ويسقط في الحوض. لا يمكنني الخروج من هذا المكان لأن الدم يقيدني. يخرجُ بقوة وحشية. إن كنتُ في البيت لملأت دلوًا. العرق يغمر وجهي وأشعرُ –نعم أشعرُ– أن جلدي مشدود على وجهي، أنني أتصلب، كل جسدي، مثل قالبٍ من الجص آخذ في التصلب. أبكي مثل طفل لا يعرف العودة إلى بيته. والآن أفتح عينيَّ. السدادة المطاطية كانت تغلق التصريف، ووصل الدم حتى منتصف الحوض. أجذب السلسلة. أغلقُ عينيَّ وأسمع صوت قرقرة الدم، كأنني أسمع صديقًا بينما يغرق، ولا أتركه يموت لأنني أَتَذَكره وأكرر هذا بكل قوة دمي.

أقوم بجهد للصراخ وفقط يمكنني فتح فمي، كالدجاجات الدائخة بسبب حر الصيف في الحظائر.

أتشبث بقوة، بيدي اليسرى، بحجر الحوض الأبيض، أدقُّ على الحائط بقبضتي، وبعقد أصابعي وبمرفقي وبذراعي. وفي لحظة تجلٍّ، أدرك أن الحائط هو حائط الحمام، وأن الحمام خاوٍ. لا يوجد أي شيء في الحمام سوى المرآة اللامعة، المُتفهمة، المُعلقة على الحائط، بينما أشعر بكل خجل البراءة.

أمي التي في القرية، عندما تعودين من المصنع في المساء،

بالقميص والمريول مليئين بالعرق، كنتِ تكتشفينني بعينيّ غائرتين وسوداوين، بوجهي شاحبًا. كنتِ تضعين يدك في شعري وتسألينني عم فعلت لكي أبدو كالميت. وكنتُ أنظر إلى أرض الحظيرة، برأسي في ظلك، دون التفكير أن بلوغي الدامي ينساب منك مثل ذلك العرق اللاذع الذي ينساب من إبطيك. أتوسل إليك بكل الملح الذي كنتِ تضعينه في خبزنا، وبجلد الخنزير المقرمش الذي كنت ترسمين عليه علامة الصليب قبل أن نأكله، وبالأمسية التي كنا نبحث فيها خارج القرية لأن الخبز لتناول وجبة العصر لم يعد موجودًا بعد الحرب، وبشرائح الخبز التي كنتِ تقطعينها لي عندما يكون هناك خبز، بالشريحتين بحجم حذاء أبي، أتوسل إليك ألا ينفجر شرياني مثل خوستو باستُور، لكي لا تضطري للمجيء لآخذ الملابس المكوية التي ستبقى بعد موتي.

8
أندريو رامايو

هذا الصباح، بعد إشارة انتهاء فترة الراحة –الإشارة هي مرور القطار– ذهبت إلى غرفة 38.

يُقيم ستة مرضى في غرفة 38: إستيبي بادرون، ماتيو سوريدا، جوردي روتجير، أندريو كوي، أنطوني روسيل، وجاومه جاليندو. الغرفة تفوح برائحة ثقيلة ولاذعة، والهواء له مذاق كبريت، كحول، وعرق وكولونيا. جاومه جاليندو بمفرده، رأسه مائل على كتفه اليمنى. زملاء الغرفة في الردهة، شبه عراة، قميص المصحة مفتوح فوق البيجاما. كانوا يصنعون علب تبغ مزخرفة بواسطة أمواس حلاقة، مثل السجناء. كان جاومه جاليندو بمفرده، وكانت المبصقة الخضراء إلى جوار الفراش، كانت نظيفة ومبللة بالماء.

– كيف حالك يا جاليندو؟

– كما ترى...

– هل مرَّ الطبيب؟

– نعم.

- ماذا قال؟

- عندما يكون ممكنًا، يجب أن يرمموا تسعة ضلوع. عندما يكون ممكنًا.

- هذا أمر سيئ.

- ويجب أن أخبر عائلتي عندما تأتي لزيارتي. لكن المرء لا يعرف مُطلقًا كيف يبدأ في الكلام عن هذه الأمور.

- عمليات الترميم لم تعد مشكلة. اُنظر إلى لابوردا، ومارتي وسيجو: إنهم أفضل الموجودين في العنبر صحةً. نتاج تحاليلهم سلبية. وكانت إيجابية بثلاث علامات من قبل. ظلت تحاليل كل منهم بثلاث علامات طوال أكثر من عام.

- أغلبنا...

- ماذا؟

- أغلبنا أصبح يمتلك القفص الصدري أكبر عما ذي قبل. ونحن نعرف أن هذا يقتلنا، لكن لا إرادة لنا. كأنها نشوة.

- هل تعرف ماذا لاحظتُ؟

- ماذا؟

- عندما يذهب المرء للتناول، ينسى هذه الأمور. تشعر أنك إنسان جديد، كأنما بعد نوم ليلة كاملة.

- ذات مرة قال لي قسٌ إن خطايا الجسد تُدفع في الحياة، على الأرض. شيءٌ لا يُصدق.

- هل قال لك هذا؟

- نعم. كنتُ متمددًا في الفراش. منذ ستة أشهر. كان عيد الفصح. كان يجب أن أعترف في الفراش.

- أوف!

- يكون موقفًا غير مريح للمرء. يدخل القس الغرفة، وأنت تُقبِّل يده. تجتهد لكي تكونَ لطيفًا، لكي تبدو أكثر هدوءًا. لكن لا يمكنك. تشعر أنك غير قادر على هذا.

- لا يمكنني الاعتراف متمددًا في الفراش.

- والخجل الذي تشعر به عائلتك. لا يمكنك أن تشرح هذا، لكن... تخرج عائلتك لكي تعترف. ترى أنهم يغلقون الباب. ينتظرون في الردهة، من المؤكد أن أذرعهم معقودة، في صمت، يتحدثون عبر الباب الزجاجي بالإشارة مع النساء المارات في الشارع، يقولون إنك تعترف. وعندما يذهب القس، يوجد توتر كبير بينك وبين عائلتك. يعيدون المقعد الملتصق بالفراش إلى مكانه، لكن ببطء أكثر من الأيام الأخرى... المرء يحب الاعتراف، لكن دون أن تراه العائلة.

- أنا أيضًا أشعر بهذا. خاصة مع أمي. كانت تدخل غرفتي

أحيانًا بينما أبدل ملابسي، دون أن تعرف أنني موجود. التفكير في أنها رأتني عاريًا، بساقيّ الطويلتين، كان يجعلني أتفادى النظر لها طوال اليوم. لأن المرء يفكر –رغم أنه لا يعرف لماذا يفكر في هذه الأمور– أن أمه رأته عاريًا للمرة الأخيرة عندما كان في الثامنة من عمره. والآن، عندما تراه وقد نما هكذا، فلا بدَّ أنها تفكر في كل الأشياء السيئة التي فعلها منذ آخر مرة ساعدته فيها في ارتداء البنطلون.

كان هناك كيس رمال فوق الترقوة اليسرى لجاومه جاليندو. كان نسيج الكيس قذرًا. كان يمكن أن يفيد لتجلط دم سبعمئة مريض. رفعه جاومه جاليندو خلال برهة وقال: «هذه الرمال ثقيلة للغاية». ثم تركه فوق الوسادة. لم يكن جاومه جاليندو يبدو بالغ المرض من دون الكيس فوق الترقوة، كان يبدو أكثر طبيعيةً، أكثر لُطفًا، مثل العسكريين عندما يرتدون ملابس مدنية.

– جاليندو.

– ماذا؟

– هل كانت لكَ خطيبة في قريتك؟

– لا. عمري واحد وعشرون عامًا الآن، وسقطت مريضًا في السابعة عشرة. جاءت فتيات كثيرات لزيارتي. كُن يأتين لي بروايات. وكنت أترك لهن كتبي. لم يكن لي خطيبة مُطلقًا. دائمًا ما ذهبت إلى السينما بمفردي. دائمًا ما كان هناك شيء

ناقص في حياتي.

- هذا أمر سيئ.

وضع جاومه جاليندو الكيسَ مرَّة أخرى على الترقوة. كانت وجنتاه مخضبتين، أذناه شفافتين، شفتاه بيضاوين، بالجلد المتقشر الذي ينزعه بأصابعه. حدث كل شيء في لحظة واحدة. أمسك حوض غسل اليد بيدٍ، ووضع اليد الأخرى على فمه.

جاءت الخادمة لتفريغ حوض غسل اليد ثلاث مرات. كان دمه أحمر، لامعًا، ساخنًا. كانت الخادمة كارمن أونايينديا تذهب لتفريغ حوض غسل اليد في حوض الحمام.

9

مانويل تُور

تمر كارمن أونايندبا في الممر بأكياس الماء الساخن في يدٍ وإبريق ماء ساخن في اليد الأخرى. كان كعب حذائها العالي يرنّ فوق البلاط. كانت ترتدي زيًّا موحدًا من قماش الدريل، كان مكويًّا ومنشيًا. كان شعرها ملمومًا إلى الخلف. كانت كارمن أونايندبا قد انتهت من الاستحمام قبل قليل. نظرتْ لي بعمق. كنظرة أندريو رامايو عندما يحكي لي الحكايات التي تجعله يضع يديه في جيوبه بينما يرتعش صوته.

- مانويل.

- ماذا؟

- جاليندو يموت. لقد حملوه إلى غرفة 13.

غرفة 13 صغيرة، توجد بين صالة الحقن والغيارات وحجرة الطبيب المناوب. يحملون المرضى الذين يموتون إلى غرفة رقم 13، لكي لا يشهد زملاؤهم احتضارهم. عندما يمر مرضى الطابق الأول

أمام غرفة رقم 13، يفكرون في أمهاتهم، وفي قراهم وفي الحقائب التي تحمل الحروف الأولى من أسمائهم.

عندما أغلقت غرفتي، كان الأب جابرييل والأخت فرانثيسكا لونا يخرجان من غرفة 13. ذهبت حتى الباب، ووقفت أمامه، بيدٍ على مقبضه، والأخرى في جيبي. فتحت الباب المطلي بالأبيض، وفي وسط النافذة الموجودة في المواجهة، يمكن رؤية حوض زهور الحوذان الموجودة أمام الكنيسة.

كان هناك صحن حجري فوق الكومودينو، وكان ممتلئًا بحقن ترومبيل الفارغة المفتوحة، ومناشير حديدية صغيرة لفتحها. كان هناك مناشير وحقن لعشرين مريضًا على الأقل، كلهم ماتوا في هذه الغرفة، وفي هذا الصحن تجمع بينهم حقن تجلط الدم التي استهلكوها في غرفة 13.

- أهلًا يا مانويل.

كان الحوض في مواجهة الفراش، وكانت عليه قطعة صابون وأنبوب معجون الأسنان ومرآة كبيرة، وكانت هذه الأشياء تبدو كرسم كاريكاتير للحياة، كحقيبة مرسوم عليها مشاهد جريمة ريفية، والتي يشير إليها كفيف بعصاه في ساحة قرية ما.

هل تعرف أن فريقك فاز بالكأس؟ زوجة أجوستي آلكانترا أتت بالمجلات الرياضية. هذا الصباح. سنأتي لك بها في المساء. أنا وجوردي ميركادير.

كان جاومه جاليندو ينظر في المرآة، وكان يضغط بأصابعه على كيس الرمال الموجود فوق الترقوة. في تلك اللحظة شعرت برغبة في تغيير اتجاه الفراش لكي لا يضطر لرؤية المرآة أثناء احتضاره. لكنني لم أفعل هذا لأنني فكرت أن رؤيته لنفسه ستشبه أن يكون برفقة شخص ما، وسيكون لديه احتمال ضعيف لوداع جاليندو في المرآة.

- يجب أن تكتب لبيتي. إن رغبت في هذا.

كانوا قد حلقوا شعر صدر جاومه جاليندو على الزيرو، ويبدو وجهه كوجه طفل مُجند يتذكر قريته عندما تحين نوبة الطعام. كانت الشمس تحرق الجدران، وكان الحر ثقيلًا داخل غرفة 13، مثل الحر في عربة درجة ثالثة في القطار، ممتلئة بالموظفين والحقائب والخادمات بذيئات اللسان، والمرضى ذوي الوجوه الصفراء الطفولية الودودة، العائدين من زيارة الطبيب التخصصي ذي العطر الفواح في العاصمة. كان جاومه جاليندو مغطى بملاءة فقط، وكانت ذراعاه خارجها، ممدودتين إلى جانبي جسده. كان جاومه جاليندو مستلقيًا، بظهره متكئٍ إلى الجدار. كانت ملاءته مهترئة، ورقيقة للغاية، وكانت ساقاه وركبتاه بارزة تحت النسيج. وتحت الوسادة تظهر خطوط بنطلون البيجاما، سيئ الطي، لأن جاومه جاليندو كان عاريًا تمامًا. لم يكن يرتدي سوى سترة البيجاما ذات الخطوط البيضاء والزرقاء، وقلادة من الفضة المسودة.

- هل تشعر أنك بحال أسوأ يا جاليندو؟

- كأنني متوتر للغاية. كأنني شربت زجاجة كونياك بمفردي.

- الجو حار للغاية. الجو حار للغاية في الخارج يا جاليندو. النساء في المغسلة الكهربائية لا يرتدين سوى معاطف العمل من الدريل. لا يرتدين أي شيء تحت معاطف الدريل. أجوستي آلكانترا قال هذا بينما كنا في الممر.

- هل يرتدي أجوستي آلكانترا ذلك الأوفرأول الأزرق؟

- نعم.

- لم ير أي شخصٍ أجوستي آلكانترا بينما يرتدي ملابس خلاف زي العمل.

- لا.

- النساء في المغسلة الكهربائية يرغبن في رؤية أجوستي آلكانترا بينما يرتدي رابطة عنق.

- نعم.

- يمكن لأجوستي آلكانترا أن يقتلهن.

كان جاليندو يقول هذه الكلمات بينما ينظر في المرآة، الناصعة، الهادئة، المنسية، التي تعكس الفراش والملاءة والجدار المطلي بالجير، وجسد جاومه جاليندو بالكامل.

نقلَ جاومه جاليندو نظرته من المرآة إلى النافذة بفضول بالغ مُتَّقد. كأنه لا يستطيع تصديق وجود تلك المرآة الأخرى في غرفته الأخيرة، كأن وجود نافذة في غرفة رقم 13 معجزةٌ ربيعية.

– مانويل، كم الساعة؟

وفي النافذة يمكن رؤية الواجهة المُربعة البيضاء لعنبر المرضات، والمصلى ذي المدخل ثلاثي الأقواس، والصهريج وأصيص زهور بخور مريم فوق فوهة البئر، وحوض زهور الحوذان والجبال الرمادية، الممتلئة بأشجار الزيتون إلى ما لا نهاية... كانت الآنسة أنجلينس تُطل من إحدى النوافذ. كانت من شقوبية، وكانت طويلة وسمراء، مُتقنة لعملها، غير مرنة، مثل عريفٍ أول في الجيش يرتدي قفازين أبيضين وياقة صلبة، لكي يضفي بُعدًا أخلاقيًّا على بساطة رتبته. عندما رأى جاليندو الآنسة أنجلينس في النافذة، أدار رأسه بسرعة إلى الباب، لكي يرى مباشرة تلك المرأة التي كانت مُنعكسةً في تلك المرآة الجديدة التي لا يُمكن تصديق وجودها، والتي كانت تمثلها النافذة. عندما رأى جاومه جاليندو أن الباب الأبيض مغلقٌ، انطفأت عيناه.

– إنها الخامسة يا جاليندو.

فكَّ جاومه جاليندو أزرار سترة البيجاما الثلاثة فظهر صدره الأبيض، النحيف، الذي يبدو كصدر رياضي، بالشعر الداكن في الوسط، والدائرتين البنيتين في ثدييه المتجعدين، كما يحدث عندما يشعر المرء بالبرد في صالة مرضى الالتهاب الرئوي.

- ساعة قريتي متأخرة عشر دقائق عن الساعة هنا.

دخلت دفقةٌ من الهواء عبر النافذة. الشيء الوحيد الذي تحرَّك هو بنطلون جاومه جاليندو الرمادي، الذي كان مُعلَّقًا على الحائط في شماعة حديدية. كان بنطلونًا قديمًا للغاية. كان هناك حزام جلدي يحيط بخصره. كان الضوء الممتد بين جاومه جاليندو والبنطلون الرمادي يشبه عنكبوت رتيلاء، كأنه أم أربعة وأربعين، كأنه فراشةٌ حمراء. لا أعرف لماذا كان الضوء الممتد بين جاومه جاليندو وبنطلونه الرمادي يشبه كل هذه الأشياء. لكنني كنتُ أنظرُ للبنطلون المفكوك القذر. والنظرُ هنا أي إنني كنت أرى ملابس شخصٍ يموت في غرفة رقم 13.

كان نسيج البنطلون مُنتفخًا على مستوى الركبتين، كشاهد على كل المرات التي ركع فيها، على كل المرات التي جلس فيها فوق مقعد، وفوق كراسي عربات الدرجة الثالثة في القطار، وعلى الدكة الخضراء في ممر أشجار الحور، لكي ينزع أوراق زهرة أقحوان -نعم، لا، نعم، لا، نعم، لا- لكي يقرر الذهاب لقتل الوقت في أي مكان في المساء بالمدينة.

بعد أن نظرت إلى البنطلون الخاوي -والرمادي منذ أصبح له وجود وللأبد- نظرت إليه، كانت عيناه لامعتين، وجنتاه مخضبتين بالحمرة، يده اليسرى فوق معدته: كان يغطيها، يحفظها، يحنو عليها ككلب أو على لوحة أشعرته بالرفقة. كنتُ أشعر أنه بحالٍ رائعة، كما يشعر المرء أحيانًا أن جسده يفوح بعطر الصابون

الذي يستخدمه، أو أنه يكره جسده، كما يحدث عندما يسمع المرء ضجيج أحشائه في قاعة حفلات.

- مانويل.

- ماذا؟

- دائمًا ما شعرت بالخوف من بعض الأشياء الصغيرة، مثل ماكينة الحلاقة، أو الاعتراف للقس في عيد الفصح بينما أكون مستلقيًا في الفراش.

- نعم يا ياجاليندو. أخبرني أندريو رامايو أنك حكيت له كل هذا.

- في هذا المساء أشعر بالخوف من «ذلك» الذي يأتي بعد السابعة. تحديدًا عندما تكون في فترة الراحة، في الردهة. ولديَّ هنا المرآة، أمامي، ويمكنني رؤية نفسي عندما يصل «ذلك». لكنني أُفضلُ رؤية موتي وتقدُّم احتضاري في وجهك، كما يرى المرء أحيانًا موتَ المسيح في وجه شخصٍ مسيحي.

- لا، لا يا جاليندو، لتهدأ.

- بعد ذلك ذهب يهوذا إلى الهيكل، يا مانويل. بينما يحمل الثلاثين قطعة من الفضة في جيبه. وما إن دخل، حتى قال لرؤساء الكهنة: «قد أخطأت إذ سلمت دمًا بريئًا» وردَّ عليه رؤساء الكهنة: «فقالوا ماذا علينا. أنت». أبصر فطرح الفضة في الهيكل وانصرف

ثم مضى وخنق نفسه. ولم يرغب رؤساء الكهنة في وضع قطع الفضة في خزانة الهيكل. فتشاوروا واشتروا بها حقل الفخاري مقبرةً للغرباء، لهذا سمي ذلك الحقل «حقل الدم».[5]

أزاح جاومه جاليندو الملاءة. رفع الملاءة عن جسده بحدة وقذفها على المرآة. سقطت الملاءة في الحوض، وظلت داخله، كأنها في انتظار الغسل. كان جاليندو العاري تمامًا يهذي، ويهز يديه بينما كان رأسه ثابتًا.

كانت أشجار الزيتون الوقورة تلمعُ في الخارج. كانت نساء المغسلة الكهربائية يغنين. كانت زهور الحوذان حمراء وبسيطة وسريعة الموت ومبتهجة، مثل السحب في المساء أو الكلمات الفظيعة التي يقولها المراهقون المجانين في قرية ما.

- شجر المُر، شجرٌ خشبه مرير للغاية يا مانويل، مذاق خشب شجر المُر مرير للغاية. شجر المُر ليس كالبلوط. خش شجر المُر ليس كخشب البلوط. في بعض المرات رأيت دلاءً من البلوط في الحظائر، دلاء متينة، مُصمتة، لا يصدر عنها ذلك الضجيج الذي تصدره دلاء الصفيح. وتوجد بها أطواق حديدية لتثبيت ألواح الخشب. لأن دلاء البلوط ليست كغلالة السيد المسيح دون خياطة. لا تظنن أن دلاء البلوط لا تشتمل على ما يثبت أجزاءها. عندما كنت أذهب لحظيرة توماس

5- إنجيل متى، إصحاح 27.

داك (لم أكن أذهب لحظيرة توماس داك من أجل العمل، في ذلك الوقت لم أكن قد ارتكبت خطايا أو أرتدي بنطلونًا طويلًا)، كان أبي هو جزار الحظيرة. كان أبي يقتل الجياد بضربة بالمطرقة في منتصف رؤوسها. عندما كنت أذهب إلى حظيرة توماس داك، كان هناك دلو من خشب البلوط في الفناء. ونزعت الأطواق الحديدية من الدلو بواسطة بلطة حطَّاب المزرعة. كنت أريد أطواق الدلو الحديدية لألعب بها في الطريق. وسقطت الألواح الخشبية فوق أرض الفناء المغطاة بأسمنت بورتلاند. قلت لتوني دالك: «هل تستبدل معي تلك القطعة من الخشب بمسدسك ريمنجتون؟ إن مسدسَ لعبة أقلُ قيمةً من لوح من خشب البلوط، خاصة إذا كان لوح البلوط قد خرج من تحت يد يوك أوليفر، أفضل نجار في المنطقة. فَكِّر في هذا جيدًا يا توني داك». واستبدل توني داك مسدسه ريمنجتون معي. وأعطاني ابن الرجل الذي يرعي الثيران كرياتٍ زجاجية، كان اسمه جيرارد جالي. واستبدلت بقطعة الخشب الدائرية الموجودة أسفل الدلو نحلة دوارة مع حفيد حارس الطريق. كانت نحلة دوارة من البلوط أيضًا. كانت قطعة من البلوط أكثر منها نحلة دوارة. وعندما حلَّ الليل ورأيت حبل المصباح المُعلَّق فوق فراشي، وحاجز الضوء والشماعة المُعلَّق بها القميص، وإناء ري الزهور المُعلَّق على الجدار، شعرتُ بحزن غريب ماصخ،

كأنني في مقبرة للحيوانات. فلم يكن مسدس ريمنجتون أو قطعة الكريستال أو النحلة قادرين على سكب الماء، لكي يمكن للجياد أن تشرب في مزرعة توماس داك.

كان الحارس يصنفر الألواح الخشبية في المخزن. وكلما مرَّ بالفرشاة على اللوح يصدر صفيرًا كالهواء في الغابة. استدار جاليندو بسرعة إلى الباب، وكان يعاني لأنه لا يستطيع أن يشرح الصوت الصادر عن تلك المرآة، كأنها تعكس النجار الذي يصقل الخشب فوق مائدة العمل بالمخزن. لمعت عينا جاومه جاليندو واتسعتا كعيني ثور.

رفع جاومه جاليندو جذعه بحثًا عن الهواء، وأدار رأسه أربع مرات، من اليمين إلى اليسار، بحثًا عن غرفته. ظل جالسًا على حافة الفراش، مُتقدًا، متوترًا، مُباعدًا بين ساقيه، إحداهما فوق الحشية والأخرى على الأرض. كان صوت جاومه جاليندو نضرًا، أجش، كثيفًا، مترددًا، كصوت الفتيان الذين يبدؤون في حلاقة ذقونهم.

– أنا كنت كأسًا من خشب المُر، لأن كل ما وضعوا داخلي تشرَّب بمذاقي المُر، بما في ذلك مملكة الرب، التي توجد دائمًا بين حقلين، مثل الطرق. أصبحت مملكة الرب حامضة في داخلي، كما يحمض اللبن أحيانًا في الصيف، أنت لا تعرف أنهم نادوني يومًا. في كل المرات التي أتيت فيها وجلست على حافة فراشي، لم تكن تعرف أنه تم ندائي. ألم تنتبه من قبل إلى أن وجهي قذر ورخو وغبي؟ كمن يحملون موت المسيح بشكل أبدي في وجوههم، لكنهم لا يحملون

قيامته. يوم نادوني (كان شهر أكتوبر، أتذكر أنه كان شهر أكتوبر)، عندما وصلت إلى صومعتي –رقم 27 في الطابق الثالث- قرأتُ في العهد الجديد: «يُوجَدُ خِصْيَانٌ وِلِدُوا هَكَذَا مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِهِمْ وَيُوجَدُ خِصْيَانٌ خَصَاهُمُ النَّاسُ وَيُوجَدُ خِصْيَانٌ خَصَوْا أَنْفُسَهُمْ لأَجْلِ مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ[6]». منذ ذلك المساء، عرفت أنني ولدِتُ خصيًّا، وبدت لي خيانةً أن استمر في تلك المجموعة من الرجال الذين خَصَوْا أَنْفُسَهُمْ لأَجْلِ مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ. ترسَّخت هذه الحيرة داخلي خلال وقت طويل، وكانت كمُعلم داخلي يُعلمني كيف أكون خجولاً أمام الرب، حتى فقدت عادة الصلاة. من المُحتمل أن يكون هناك الكثير من الحب في كل هذا. قد لا يكون هناك سوى الحب. لأنني دائمًا ما شعرتُ أمام الرب بالكثير من الحب والقليل من الثقة. ربما لأن كوني قد ولدتُ خصيًّا لم يجعلني أشعر بالحاجة مُطلقًا. شعرت بغواية التفكير أن لديّ الأساس لأكون (مسكينًا بالروح) دون أن أدري هذا: شخصٌ ذو حب عميق.

- استلقِ يا جاليندو. ستصاب بالبرد لجلوسك على الفراش يا جاليندو. الرياح باردة في المساء. سأغلق زجاج النافذة. لأن رياح المساء بادرة يا جاليندو.

- لا. لأنني في الصباح، عندما يضع القس التناول على لساني، أنتظرُ معجزة ألا أكون خصيًّا بعد. أفكرُ في شفاء الأناجيل. أتوسلُ بصدق، بحمية، لكن دون انتظار الحصول على هذه الهبة.

6- إنجيل متى، إصحاح 19.

في الأسفل، بين عنبر المصحة وعنبر الإدارة، كان أجوستي آلكانترا وزوجته كارمن أونايينديا ينظفان أحشاء سمكة ضخمة، داكنة اللون. كان كلب الدكتُور ألبرتي وكلب الحارس يلتهمان أحشاء السمكة بنهم، دون التوقف عن هزِّ ذيليهما. سقطت نقطة دم على ملابس أًجوستي آلكانترا. ونزع حفنة من الأعشاب الموجودةً بجوار الوعاء، وأخذ يفرك دم السمكة بالأوراق الرطبة.

– جاليندو، هل تشعر أن حالتك أسوأ.

هزَّ رأسه يمنةً ويسارًا. كان يحاول التنفس، ويحاول الوصول للفراش، ووضع رأسه فوق العارضة الحديدية الموجودة في ذيل الفراش. كانت ساقاه فوق الوسادة، والتي كانت مُطرزة بالصليب الذي يمثل شعار المصحة ورقم الغرفة.

– إنه لون الأعشاب المضوغة في فم ثور. كأنه الأعشاب المضوغة في فم ثور. والأعشاب بعيدة عن الثيران. الأعشاب أكثر خضرةً من الثيران. خُضرة الأعشاب تفوق الثيران. رجلٌ وحيدٌ يمكنه حكي الحكايات للفتيان في الثالثة عشرة، لكي يطلب هؤلاء الفتيان بنطلونًا طويلًا. يمكن للمرء أن يشعر بحجر طاحونة مُعلقٍ من عنقه المليء بالتجعدات. يمكنه أن يشعر أن عدم ميلاده من الأساس كان أفضل، لأن كل الفتيان الأموات، الشاحبين، داكني البشرة، كل الفتيان ذوي الأيادي المتسخة والصوت المُعبق بالخشب المبتل، كل هؤلاء الفتيان من لحم ودم. لكن إن أمكن للمرء أن يأتي بفضيحة وبعد ذلك يقوم بالتناول، سيصبح كلُّ شيء متوازنًا. أنا لم أتناول

مُطلقًا يا تُور. ولن أتناول مُطلقًا لأنني كلما شعرت بالبرد بحثت عن ذلك الدفء البائس في أعماق جيوبي. دائمًا ما أدفأت يديّ في جيوب البنطلون. تحين ساعة شرب الثيران للماء. وأقولُ: لقد حانت ساعة شرب الثيران للماء. إنها الساعة السادسة يا مانويل. ساعة قريتي متأخرة عشر دقائق عن الساعة هنا. وأقولُ: لقد حانت ساعة شرب الثيران للماء. ويقولُ: يجب أن تحمل الثيران إلى المشرب العمومي، لأنك إن أعطيت الماء للثيران في دلو، سيظل الثور هادئًا بينما لا يجد خطمه سوى الماء البارد في طريقه، وسيظل متواضعًا، مُطيعًا حتى الموت. لكنني أقول: عندما يكون الثور قد شرب كل الماء، ويرتطم خطمه بخشب الدلو، سيمد عنقه، ويُدخل رأسه الضخم، ويدفع ويبحث ويتوسل ويسحقها في المنتصف وفي الجانبين الأيمن والأيسر، كأن العطش قد وضع على خطمه لجامًا من خشب البلوط. خشب البلوط لا يصلح للأبواب والموائد وتوابيت موتى المنطقة. خشب البلوط يصلح لتقسيم عطش الثيران في دلاء (مرةً في اليوم، عندما تغرب الشمس)، كما ينقسم طريق قريتي إلى كيلومترات يا مانويل، إلى كيلومترات هذه الــ...

وتقيأ جاليندو الذي كان رأسه مائلًا إلى اليسار. استعنتُ بالفوطة المُعلقة بجوار الحوض لتنظيف صدره وبطنه وساقيه ووجهه. ما إن خلعت عنه سترة البيجاما، ظل عاريًا وأخذ يبكي.

في تلك اللحظة نظرت إلى ساعتي، وكانت الساعة السادسة وخمسًا وعشرين دقيقة. تأثرتُ لتذكر قوله إن ساعة قريته متأخرة

عشر دقائق.

- يا مانويل.

- ماذا؟

- هل غربت الشمس؟

-لا.

- كم الساعة؟

- السابعة.

- هل يستغرق هذا وقتًا طويلًا.

- لا تُفكر في هذا.

- القطار يمرُّ الآن.

- نعم.

- هذا لا يتوقف.

-لا.

- إنه يدخل النفق الآن.

-نعم.

- عندما يمر قطار البريد، سيكون كل شيء قد انتهى.

- لا تُفكر في هذا.

كانت الشمس قد هبطت عن الجدران، والجيرُ أصبح باردًا، مائلًا للزرقة، بلون الملابس البيضاء فوق مائدة الكي. كانت الشمس تسقط على الحوض، كانت فوق الملاءات التي ألقى بها جاليندو على المرآة. كان الحارس في الجراج جالسًا فوق صندوق يبدو كحقيبة لآلة الكونترباص كأنه يمتطي حصانًا، رغم أنه لم يكن مطليًّا باللون الأسود، وكانت شاحنة الإداري الصفراء في مواجهته.

- مانويل.

-ماذا؟

-أشعرُ الآن بالبرد بينما...

- ماذا يا جاليندو؟

- ساعة البيت.

-لا تُفكر في هذا.

- إنها في المطبخ. فوق الأطباق التي نستخدمها كل يوم.

-نعم.

-وعندما يقرأ أهلي أن هذا حدث في السابعة سيقولون: «لقد رحلَ عنا عندما كنا نمر على حقل ماتيو دافيس، عندما رفعنا عيوننا وقلنا: الآن تدق ساعة البلدية بالسابعة». وأنا سأكون قد مُتُّ هنا

قبل هناك. وعندما يمرون بجوار حقل ماتيو دافيس ويبدو لهم كذبةً أنني لن أكتب لهم ثانيةً في أيام السبت، لن يعرفوا أنني كنت أسبقهم بعشر دقائق دائمًا.

-انسَ هذا الأمر.

-إن كانت الساعة الموجودة هنا وساعة قريتي مضبوطتين على ذات الساعة...

- اترك هذا الأمر يا جاليندو. يجب أن تنساه.

-أن تكون الساعة هنا متقدمة بعشر دقائق دائمًا، كأنهم لن يعثروا عليَّ مُطلقًا.

كانت صعوبة تنفس جاليندو متزايدة، كانت تخنقه، كانت تثير يأسه. كان جاومه جاليندو جالسًا على حافة الفراش، ساقاه مُتدليتان ورأسه ساقط على كتفي بينما يموت. كان القفص الصدري لجاومه جاليندو يُصدر ضجيجًا يُجمد الدم.

- أغلق عينيك يا جاليندو. الضوء هنا قوي.

- «لا. كأن الضوء يحكُّ المرآة بسكين من النيكل الفضي. كأنه يحك المرآة بسكين من النيكل الفضي. السكين به حديد أكثر من زجاج المرآة. كأنني أمحو مرآة الحمام. كأن هناك من يمحوني من مرآة زهور الحوذان، من شجر أويكاليبتوس، من أشجار الزيتون

ومن الجراج، يمحوني بهذه الحركات المستمرة، كأنني في ورشة نجارة بها عِقاب أكثر من الأخشاب. أنا مُرهق لأنني سرت كثيرًا. نحوه ودونه. دائمًا. حتى في هذا الطريق الناعم لم يمكنني تخيُل أنني أبحث عنه، لأنني أحمل في نفسي العقابَ الجحيمي لمعرفة مكانه.

لقد عانيت من خجل البقاء على قيد الحياة وتقبيل خيانة حياتي، بطريقة غير مفهومة، ليس كخيانة، وإنما لأنها كانت الشيء الوحيد الذي يربطني به. وفي المترو وفي محطات الترام، مستلقيًا على فراش، كنت أكرر دائمًا بإصرار وبلا معنى: أَنَّ هذَا هُوَ دَمِي الَّذِي لِلْعَهْدِ الْجَدِيدِ الَّذِي يُسْفَكُ مِنْ أَجْلِ كَثِيرِينَ لِمَغْفِرَةِ الْخَطَايَا»[7]. وبينما ينطق بهذه الكلمة الأخيرة، كان يضغط على أسنانه ويفصل بين المقاطع الصوتية بحدة، كأنه يبارك دمي أنا.

لقد كنت دائمًا مرتبطًا بكنائس القرى، ألوان زينتها، والصلوات، مُبتعدًا عن الأسرار المقدسة لكي لا أفكر...

عندما خرجتُ من هناك بسبب نقص الثقة، لأنني كنت أعتقد أن الخصيّ لا يمكنهم العفو عن خطايا العامة، لُذت بكنيسة، وأصبحتُ مساعدًا للقس في تلك القرية. كأن هذا الميل مُلتصقٌ بي، كما تحمل السلحفاة درعها، واخترت حياة العزلة والعمل كمساعد قس لكي أحصل على راتب قدره ثلاثمئة وخمسة وعشرين بيزيتا.

7- إنجيل متى، 26-28.

لكنهم طردوني ذات يوم، طردوني ككلب. كان يوم 14 أغسطس.

بالإضافة إلى عملي كمساعد للقس، كان يستعين بي كخادم، وكنت أحب هذا. كان سيدي يجعلني أكنس بيته، ويأمرني بتحصيل مُقابل قداسات الموت. ودون أن يأمرني بهذا، كنت أحمل ملابسه المتسخة للغسل كل يوم إثنين.

وكلَّفني السيد هيجني أيضًا بزينة الأعياد؛ وفي عشية عيد القيامة ذلك (اُنظر كيف أتحدث، على الرغم من أنني أموت)، أكلتُ بسرعة شديدة، وبعد دق الأجراس أغلقت أبواب الكنيسة عليَّ، وكانت رطبة للغاية...

لم تكن الساعة قد بلغت الثالثة وكنت قد انتهيت من إعداد منصة العذراء، بزهور البرقوق الأربع الضخمة من بيت السيد إنداليثي، وثماني زهور حرشف بري من السيدة داميانا، وأربع زهور مريم من الصيدلي، وست عشرة زهرة بيجونيا من كوسمي إسبيرو، البستاني ومحصل الضرائب البلدية. وما إن انتهيت من العمل (وينتهي العمل بسرعة عندما ينحصر في وضع باقات الزهور إحداها بجوار الأخرى)، حتى ذهبت إلى صومعتي، لكن قبل ذلك كنت قد مررت على الدولاب وأخذت «علم اللاهوت الأخلاقي» لسان ألفونسو ماريا دي ليجوريو. لم آخذ كتاب «علم اللاهوت الأخلاقي» لكي أتوسع في العلم أو لكي أبدد شكوك وعيي، لأنني كنت أرى بوضوح شديد أنني أسير في طريق الضلال.

السكن المنعزل المُلحق بالكنيسة في قريتي كان صغيرًا، رومانسيًّا، ورطبًا ومعتمًا. كانت هناك نافورة في المنتصف، وشجرة غار وشجرة كافور وشجرة سرو وثلاثة أصص من الخشب، وداخل كل واحد منها توجد نبتة كاميليا. كان السكن المنعزل المُلحق بالكنيسة في قريتي يستحق شاعرًا، أو عضو مجلس كنسي أو عضو مجلس أسقفي.

كانت طيور الجريون تصيح فوق شجر الكافور، وطيور الحسون تغني فوق شجرة الغار، وعلى شجر السرو، حيث لم يكن هناك من يغني، تتسلق زهرة آلام بنفسجية، تفوح بالرائحة، ونضرة. كنت أقرأ في الكتاب: «إن نكح شيطانًا، سيصبح وحشًا». النافورة والخضرة والصمت جعلوني أخرج من السكن لكي أذهب للكنيسة لأداء سر التوبة أمام دولاب ملابس السيد هيجيني، وكانت به مرآة كبيرة.

خلعت ملابسي، وعندما رأيت نفسي في مرآة السيد هيجيني، جلَدت ظهري حتى تعبت. بعد ذلك ارتديت ملابسي مرة أخرى. ثم حملت مقعدًا هزازًا إلى فناء السكن، والذي كانت به أصص دائرية لثماني نبتات ريحان خضراء. وضعت نبتات الريحان حول المقعد الهزاز، وبعدما ارتديت معطف الكاهن الأبيض، وجلست على المقعد الكنسي، مُحاطًا بزهور الريحان، بدأت في صلوات عيد انتقال العذراء. بين شطر وآخر كنت أقوم بتسوية ثنيات المعطف الكهنوتي؛ وأمد ذراعي إلى زهور الريحان؛ وأمسكُ بفرع صغيرٍ؛

وأقربه من أنفي، وأضعه بين السبابة والبنصر كزمردة أسقفية؛ وأواصل الصلاة بوقار وهيبة مثل كاردينال من عصر النهضة: «عظة يوحنا الدمشقي...» وفي الصلاة الليلية الثانية خرجت من السكن. كنت أرتدي المعطف الكهنوتي وأحمل عود الريحان بين السبابة والبنصر، ثم صعدت إلى برج الجرس. كان السيد هيجيني في حديقة بيته الملحق بالكنيسة ورأى معطفي بين الأجراس. وبعدما كسر باب الكنيسة دخل إلى سكني برفقة السيد إنداليثي، مالك الحرشف البري، والسيد بالتاسار، الذي زرع زهور بخور مريم، وعثروا عليَّ بينما أحلق شعر ساقيَّ وأنشد «حَلْقُهُ حَلاَوَةٌ وَكُلُّهُ مُشْتَهَيَاتٌ. هذَا حَبِيبِي، وَهذَا خَلِيلِي، يَا بَنَاتِ أُورُشَلِيمَ»[8].

في ذلك اليوم لم أعزف في صلاة المساء. عزفها السيد إنداليثي. وانظر كيف تسير الأمور، لأن أهل القرية لاحظوا الفارق. اُنظر كيف أتكلم، بينما أموت.

وبما أن التوصية للالتحاق بالكنيسة كمساعد للقس جاءت من خالي، والذي كان اسمه السيد بالتاسار، وكان مُعلمًا في مدرسة الكاتدرائية، فقد أملى عليَّ السيد هيجيني رسالة لخالي وكان يقول فيها:

سيدي المُبجل:

كما يقول القديس توماس في شرح اللاهوت، عندما يكون هناك

8- سفر الإنشاد 16:5.

شيءٌ أكثر امتيازًا من شيء آخر بين الأشياء الجسدية، فإنه يكون أكبر في الكمية أيضًا. إن صداقتك يا سيد بالتاسار، وشخصك أيضًا رائعان. ومع هذه الروعة في شخصك، السخي الكريم أيضًا، فإنك بالتبعية لا بدّ أن تكون سكولاستيًّا أيضًا، لأن الروعة لا تتجزأ.

إن كانت الصداقة تزين وتتوج وتبهج وتجود «سيرتنا الذاتية المهنية»، فإن صداقة رجل الدين هي الشجرة ذات الأوراق الدائمة التي لا تذبل، وشجرةٌ مثل السيد بالتاسار لا مثيل لها في أوراقها وزهورها وبذورها.

بكل الثقة الناتجة عن هذه الصداقة، يجب أن أبلغكم –ولا تتخيل بأي قدر من الألم الداخلي– أنني قد عزلت ابن أختك بسبب تصرفٍ مُشينٍ من وظيفة المساعد. كان هذا هو واجبنا يا سيد بالتاسار. «إنّ معبد الرب، الذي تمثلونه، مُقدس».

لا أريد أن أقول إن قراري يعني حطًّا من شأن ابن أختك. يمكنه أن يكون بذيئًا بسبب عمره، لكنه أيضًا مُنظم، ومجتهد وحسن التصرف، لدرجة أن تلك الكلمات لفيرجيل تنطبق عليه:

«*لكن أفكارًا كثيرة كانت تدور في رأس إينياس الطيب ليلًا.*»

لا تنسَني في صلواتك في زياراتك اليومية إلى سيدنا المسيح، والذي كثيرًا ما قلنا بجواره كلمات القديس بطرس: «يا ربِّ، جيدٌ أن نكون هنا».

وستصلك بالبريد سلةٌ من بيض حظيرة الكنيسة. أعرفُ –

وأعرف هذا جيدًا- أن إلفيرا تعرف وصفة فريدة لطهيه. إنها رائعة في ترويض الأحناك».

كان جاليندو يضحك بشكل باهت طوال كل ذلك الوقت. بدا لي كالكابوس أنه يستطيع حكي كل هذه الأشياء بينما يموت. عندما سمعت كيف يضحك، كنت أفكر في الشعراء الشبان في السابعة عشرة من أعمارهم، الذين يكتبون قصائد عن الموت بجوار الكرة من الماركة الأصلية أو بجوار الدراجة أو بجوار رواية المغامرات التي اشتروها في أكثر الأكشاك إضاءة وبهجة في المدينة.

المرآة -كانت الملاءة تحتها، في الحوض- كانت تعكس كلينا، هو عارٍ جالسٌ على حافة الفراش، برأسه على كتفي.

- جاليندو.

-»من يأكل خبزًا دون أن يغسل يديه يشبه من يضاجع العاهرات. من لا يتذكر غسل يديه لا يضع جذورًا في الأرض».

- جاليندو.

- يمكنهم أن يضعوا كل العلف في المآكل، يمكنهم أن يضعوا كل الشعير في المآكل. يمكنهم أن يلقوا كل الدلاء في المشرب. فعندما يصل البغل إلى الحظيرة التي يجب أن يذهب إليها، فهو يحمل في داخله الطريق الذي قطعه. لا يمكن أن يسير بغل في طريق آخر

سوى الذي يحمله في روحه. لكن عندما يصل البغل ويبدأ في التهام أعشاب الحظيرة، تدخل الأعشاب في أحشائه وتغطي الطريق الذي يحمله البغل في داخله. الطريق، تحت هذه الأعشاب الخضراء الممضوغة، يشبه الثعبان، صامتٌ كالثعبان، يختفي كالثعبان. والضجيج الصادر عن أحشاء البغل ليس ضجيج الطريق، لأن الطريق في خطمه كما هو في قائمتيه الأماميتين، والبغل يُسلم طريقه إلى أحواض الشرب، إلى الأعشاب وإلى أرض الحظيرة.

- جاليندو، توقف عن هذا. لا يجب أن تُدير الأمر أكثر من هذا.

- الطريقُ شيء داخلي. الطريقُ شيء داخلي. الطريقُ شيء داخلي. جوهر الطريق هو العينان والتعب. جوهر الطريق هو العينان والتعب. جوهر الطريق هو العينان والتعب. كيلومترات الطريق هي رحمة وزارة الأشغال العمومية. وزارة الأشغال العمومية رحيمة، لكن الطريق قاتل وطويل. وعندما يصل المرء، دون أن يكون قد وصل، يحملونه إلى خلف جدار، وبينما يقوم شخص ما بهصر قلبه بطريقة وحشية، يغرسُ شخصٌ آخر السكين في كبده. ولا يفهم هذا الترتيب الجديد للطرق، لأنه، بعينيه الزجاجيتين، يعتقد أن الطريق يمتد خلف الجدار.

حدث كلُّ شيء في لحظة واحدة. مدَّ جاليندو ساقيه كما يمدُّ كلبٌ مضروب برصاص بندقية. وبعدما قبَّل كتفي، نفق.

- آلكانترا.

- ماذا؟

- لقد مات جاومه جاليندو.

- في غرفته؟

- لا. في 13.

- النقالة في غرفة العمليات الآن. عملية استئصال ورم لأنطوني لابوردا على طريقة مونالدي.

-آه!

- سننزله. فيما بعد.

- نعم.

- من السلامة يا تُور.

- مع السلامة يا آلكانترا.

10

أندريو رامايو

الرصيف المغطى بأسمنت بورتلاند، الرمادي دائمًا، المحيط بالعنبر، يئز تحت شمس الثالثة. مُلتهبٌ ومتكلسٌ تحت شمس الأشواك والسيقان الجافة، عندما تستسلم زهور شقائق النعمان واللبلاب والياسمين للشمس النبيلة العنيفة في الحقول، وتتركها تمتص ألوانها.

الأعشاب تنمو لصق الرصيف، كأنها تضفي سلامة ووداعة على الحجر، لتحيط به بانسياب اللون الأخضر في الأرض. الأعشاب تنمو أينما استطاعت، مثل الحب والمتشردين الذين يتعيشون من خطواتهم، كأنهم يتعيشون من مهنة حرة.

بجوار الرصيف، كانت أشجار الزيتون تهتز بخضرتها الداكنة وزهورها الصفراء، كريهة الرائحة، في هواء الثالثة عصرًا. أشجار الزيتون كالعجائز، مثل العازبات اللائي يفرضن حضورهن ورائحتهن السيئة. الأعشاب التي تنمو حول العنبر تضفي شيئًا من الواقع الحي للريف بجوار الطلاء الأصفر للتشيزلونج، في ذيل

الفراش، دائمًا بالقرب من المصباح، المضبب مثل إبريق ماء خرج لتوه من الثلاجة.

الفروع المتباعدة للشمر وزهوره النجمية تتحرك بحرية، تفوح بالرائحة، منسية، وسط الميدان المهجور.

من موضعي في النافذة، فإن رؤية دنو هذه الخضرة وهذه الأرض غير المزروعة تشبه بشكل غامض رؤية صافية للجبل القصير، وأولى تفرعات الجبل القصير من نافذة القطار ليلًا، مع أولى الأحراش وأولى أشجار الزيتون وأولى الشجيرات المضاءة بالضوء المغبر المضطرب الصادر من عربات القطار.

أنا هنا، عالقٌ لأنني لم أجد أي مكانٍ آخر، أمرُّ دائمًا كالقطار، كالحياة. أعودُ أحيانًا. لكنني لم أستنشق الهواء عميقًا مُطلقًا مثل الرجال الذين يصلون وهم مُدركون أنهم قد وصلوا. مثل الرجال الذين يطرقعون ألسنتهم ببطء بعد شرب كوب ماء بارد.

عالقٌ هنا، بلا حركةٍ، وأمرُّ مثل القطار، كما كان يحدث عندما أعود من المدينة. كانت المحطة مقهى للباعة. كان هناك رجال بوجوه حمراء، جالسون على الرصف فوق مقاعد من الخيزران.

كنا نسير في شوارع ضيقة معتمة، شوارع كريهة الرائحة. كنت أنظر للافتات المُعلقة فوق محال المأكولات، وفوق محال تنظيف وصباغة الملابس وفوق المقاهي. كانت هناك لافتات متفائلة: النملة الذهبية، عدن، الواحة، مستشفى الأحذية، الفجر، أطعمة الرجاء،

الشرق، اللؤلؤة، مستلزمات خياطة روساموندا، بنسيون لينكولن، الإمبراطوري، باتافيا، ماتيو لامبرات: تاجر لحوم وأحشاء للنقانق، العالم للحوم المجففة، تريانا، سفينة نوح.

كما كانت هناك لافتات وقورة، كلاسيكية، موضوعية، كما يعلن التقويم عن فصول السنة: محل ألبان، محل حبال، محل خيوط، قابلة.

بعد ذلك، وسط منحدر مُرصوف بالحجر، ضيق، حيث يوجد القمر في قمته وشيء من الكهرباء في جوانبه، توجد لافتة «تيرول»، فوق باب منخفض، ضيق، بضوء أخضر فوق رقم البيت.

- إنه هنا.

وأحنيت رأسي، وكأنني أمر دون الالتفات (أعني المرور دون تأثر)، دخلت «تيرول»، مكان غير منتظم، ضيق أكثر منه اتساعًا، منخفض السقف، الجدران مسودة، وعلى مبعدة متر، بضعة حيوانات خرافية صغيرة من الحجر، برؤوس مسوخ، وكانت بها مصابيح صفراء منخفضة الإضاءة، وتلقى الضوء على موائد شاربي البيرة الصامتين.

- هذه البوابة.

أشار ميكيل كولومباس بإصبعه إلى بوابة ضيقة، كوة تقريبًا. ضحك عندما رآني مندهشًا، بيديَّ في جيوبي، بخطوات رخوة، مترددة، كالثيران الشابة فوق أسفلت الشوارع.

بعد ثلاث درجات حجرية وصلنا إلى كهفٍ شبيه بالأول، لكنه أكثر عتمة، وفي مواجهته، خلف مصطبة من الحجر بظهر عالٍ مسنن، كان هناك تجويف شبيه بلحدٍ محفور في الصخر. جلسنا إلى مائدة طويلة. هناك في الداخل، لا أعرف لماذا، كان الجميع يتحدثون بصوت أخفض من الشارع، أخفض من بار آخر. هناك في الداخل كان الجميع يتحدثون كأنهم يشهدون حادثةً.

– كان يجب أن تسمعنا في ليالي الشتاء، في ذات تلك المائدة، بينما نتناقش عن الذكاء والشر.

– كأننا ثلاثة مجلدات من موسوعة إسباسا.

– هذا...

لمس ميكيل كولومباس ذراع ماجي إسكالاس بكتفه.

–... يضم قبضتيه فوق المائدة عندما يتناقش. كأنه يتسلق جبل أوبيسك في جبال البرانس، فيما يتعلق بالذكاء، أصبح هذا تنافسيًّا كمتسابق الدراجات ماريانو كانيارد.

هبط البارمان الدرجات الحجرية الثلاثة، وكان يحمل فوطة صفراء في يده، ثم قال:

– ماذا تريدون؟

– أنا، بيرة غامقة.

- بيرة غامقة.

- وأنا أيضًا بيرة غامقة.

نظر لي البارمان بأبوية وقال لي:

- وأنت؟

بدت لي البيرة الغامقة شرابًا خاصًّا برجل عنيف من الغرب الأمريكي. قلتُ:

-أريد بيرة فاتحة.

وشعرت بخجل ثقيل، كأنني طلبت عصير ليمون.

جاء البارمان بأكواب البيرة الأربعة، ممتلئة، برغوة بيضاء تفيض عن حوافها.

-واحد، اثنان، ثلاثة... وأربعة.

ميكيل كولومباس، ماجي إسكاليس والفتى، الذي لا أتذكر اسمه الآن، أمسكوا أكواب البيرة الكبيرة بكلتا اليدين. شربوا بأعينهم مُغلقة، وسُمعَ صوت مرور البيرة بحلوقهم.

-آهههههههه!

كان ميكيل كولومباس يلهث، بيدٍ على الكوب والأخرى على صدره. قال:

– ذات مرة، شرب أبي عشرين كوب بيرة في بيلباو. ليس عشرين كوبًا صغيرًا، وإنما عشرين إبريقًا. قال إنه بينما كان يشربها، كان متكئًا على الطاولة الرخامية، لم يكن يشعر بتأثيرها ولم ينتفخ بطنه مثل قميص البحار. الشيء الوحيد الذي شعرَ به هو رغبة قوية للغاية في التبول بعدما سار لبرهة في الشارع. تبول خلال ثماني دقائق في بار سنترال. بعد ذلك شعر بالهدوء –حسبما قال– كأنه سعيد لأنه تبول.

من مقعدي، كنت قادرًا على قراءة الكلمات التالية فوق طاولة البار: تخصصاتنا. بيرة من البرميل، سيدرا، مشروب حب العزيز الفالنسي اللذيذ.

–لنحتفل بوصول هذا...

أشار ميكيل كولومباس برأسه نحوي.

–... يمكننا أن نطلب بضعة مقبلات. ستكون ثلاث بيزيتات لكل رأس. لديَّ عشرون بيزيتا لليوم وللغد.

أخرج ميكيل كولومباس العشرين بيزيتا من جيبه.

ومع الأوراق المالية المهترئة، خرج منديل أبيض، مطوي، ويحمل الحروف الأولى من اسمه بلون أزرق في أحد الأركان.

– هذا هو رأس مالي. عشر بيزيتات لهذه الليلة. إن لم يكن علم الحساب قد تغير خلال الأربع والعشرين ساعة الأخيرة، سيتبقى

لدي عشر بيزيتات. خمس بيزيتات لمشروب الجين بالصودا في بار بروكسل. وبيزيتاتان لكي أذهب للبحر بالترام. وثلاث بيزيتات لغرفة تغيير الملابس. وهذا هو كل شيء! سأصبح أنظف من ساحة مصارعة ثيران يوم عيد تطهر العذراء.

- أوليييه! فتى المحاسبة!

- لحظة واحدة.

رفع ميكيل كولومباس يده. ورفع رأسه أيضًا بينما يرفع يده. كأنه يشير لتاكسي لكي يقف.

- لم أحسب حساب إمكانية أن يحملني شخص ما إلى البحر بدراجته النارية. ولم أحسب حساب إمكانية ترك الملابس على الرمال، خلف شجيرة، وهكذا نحفظ البيزيتات الثلاث، ومعنا اثنان من الموتوسيكل، هكذا يكون معي خمس. اسم جدير بفيلم إيطالي: ميكيل والبيزيتات الخمس ويوم الأحد. وإن كان فيلمًا أمريكيًّا: ***خمس بيزيتات في الرمال***. وإن كان فيلمًا من إنتاج فرنسي إيطالي مشترك: ***مساء الخير أيتها البيزيتات الخمس***. والآن اسم جدير بفيلم إسباني: ***الناجي الأخير في الجبل المقدس***. ويمكن لأورتيجا إي جازيت بتفكيره الحيوي أن يقول: «أنا هو ذاتي والبيزيتات الخمس».

كانت عينا ميكيل كولومباس تتحركان بسرعة بالغة، كما تتحرك عيون الشخوص المبتهجين في الرسوم المتحركة.

–هل لاحظتم كيف أقول «بيزيتاتي الخمس» ولا أقول «ظروفي»؟

كان هناك وريد منتفخ كبير وسط جبهة ميكيل كولومباس.

– هل تعرف ماذا لاحظت؟

كان ميكيل كولومباس يتحدث بصوت غليظ، كأنه يعاني من التهاب الحلق.

– ماذا؟

– أن أباك في بيلباو كان يسيطر على المواقف أكثر منك.

أصبح صوت ميكيل كولومباس شاحبًا وغامضًا كامرأة مهلكة.

– وماذا؟

– إنك تفقد ترتيبك في التصنيف العام.

كان ذارعا ميكيل كولومباس فوق المائدة ورأسه مائلًا. كأحد رهبان طائفة الماريست.

– أبي كان يذهب للتبول في بيلباو. بيلباو أبعد من التبول. بار تريول –إن نظرتم للأمور جيدًا– يوجد في نفس الشارع حيث التبول والشراب. هذا إن نظرتم للأمور جيدًا.

وضع البارمان على المائدة طبقًا به مورتاديلا مُغطاة بصلصة بيضاء لها مذاق الخل. وفوق الصلصة كان هناك أربع قطع كانيلوني طويلة. واحدة لكل واحد.

كنتُ شاردًا تمامًا، كأنني في عالم آخر. كأنني أعبر المكان فقط. التهمنا جميعًا طبق المقبلات بسرعة. لم تتبق سوى شريحة مورتاديلا، وكان ميكيل يثبتها بطرف الشوكة.

- هذه يجب أن تكون له. هو لا...

كان ميكيل كولومباس يلقي نقاطًا من الصلصة بالشوكة على المورتاديلا، وكان يكشف عن أسنانه البيضاء المنتظمة.

- هذه أيضًا يجب أن تكون له. واحدة لكل واحد.

وأعطاني قطعة كانيلوني كان يحميها بيده، بينما ينظر للآخرين برأس مرفوع، كفتى حزين، كفتى فقير يعمل في رعاية الثيران بينما ينظر للجلوس في حبلة المصارعة.

كانت هناك زهور هدرانج زرقاء في أصيص فوق طاولة البار، أمام الساعة، التي كانت تشير إلى التاسعة. كان صوت الساعة مخدوشًا، رطبًا، مبللًا. كان صوتًا لا تصدره الساعات مُطلقًا، لكنه كان يبدو دائمًا لمن يسمعونه مخدوشًا ورطبًا ومبللًا. توجد أشياء يمكن الشعور بها مثل الساعات: الحب، الشعر الأبيض، الانفصالات، النسيان كل الأشياء المصوغة من الصمت والنسيان، مثل الأرض والدم.

-إن كان علينا أن نذهب إلى بار بروكسل...

كان يتحدث بصوت خفيض إلى ماجي إسكاليس، برأسه مائل

قليلًا. بعد ذلك، توجَّه إليَّ برقةٍ لا نهائية في صوته، كأنه يعتذر، كأنه يعاني ويحكي شيئًا حميمًا حيًّا:

- اِسمع. لدينا هنا عادة أن يدفع كلُّ شخصٍ لنفسه.

كان هناك شعور بمرور هواء رطب فوق المائدة. بيننا.

- هذا أفضل. هذا أفضل دائمًا.

كان هنا زوجان من العشاق الألمان يتبادلون القُبل مثل الطيور في الغابة.

-إنها ثماني بيزيتات لكل شخص.

زوجا العشاق الألمان، بأيديهم على المائدة ورؤوسهم مائلة، كانوا يرشفون رغوة البيرة مثل الجياد في المشرب العمومي.

-نعم...

كان أسفلت الشارع لامعًا تحت الضوء الضعيف للمصابيح، وفي الهواء، فوق الأسقف، فوق الإعلانات المضيئة التي لا حصر لها، كان الضوء الحقيقي العاري للنجوم يسبح فوق المدينة، التي تنبضُ مثل أنثى ذئب ضخمة.

-جو بروكسل مختلف، سترى هذا بنفسك. لديهم بيانو في بار بروكسل، بيانو أبيض. في بروكسل سترى نساءً. إنهن أجنبيات. يجلسن على أريكة. أو إلى طاولة البار. أربع أو خمس أجنبيات.

كان ميكيل كولومباس يأتي بحركة تصويرية، كأنه يرسم شيئًا، عندما يقول «أجنبيات».

–في بار بروكسل، لن تشرب إبريق بيرة، حتى إن كان هدية، كما تفعل في بار تيرول.

–لماذا؟

–لا أعرف. هذا هو ما يحدث. إنها أشياء بلا تفسير. ستحاول فهم هذه الأمور طوال الحياة ولن تستطيع. لكنك لن تشرب بيرة في إبريق في بار بروكسل. قد يكون السبب في لوحات الحائط أو البيانو الأبيض أو الموسيقى.

– آه!

عبر مستطيل النوافذ المضيئة، تنفذ رائحة زيت محترق، وتتسلل رائحة حزينة لسمك مقلي بين المصابيح الكهربائية الملونة والنجوم الملونة، كواقع مُعتاد، خشن في أحد الأحياء.

حدنا في ناصيةٍ، وكان في حافتها عمود إنارة. وكان هناك طفلان تحت عمود الإنارة، كانا مشعثي الشعر، في العاشرة تقريبًا، وكانا يتبادلان بطاقات مصورة من تلك التي تحتويها عبوات المعجنات التي تُضاف للحساء. مرَّت مجموعة من الجنود الإيطاليين. كان الشارع طويلًا، مُستقيمًا وضيقًا. وفي النهاية كانت أشجار الممشى الخضراء تلمع في هواء الليل تحت إضاءة المتاجر، وفوق المقاهي بلون حجر الدم، وفوق المظلات الخضراء والمظلات الحمراء، وفوق

الموائد الخفيفة، وعلى كريستال الزجاجات التي تلمع في الضوء الأصفر والأزرق في الليل.

-هل ترى ذلك المصباح الأصفر؟

- نعم.

-إنه هناك.

كانت بوابة تشبه بوابة تيرول. وفي نهاية الشارع، بين أشجار الممشى، كانت هناك لافتة بإضاءة متقطعة. وكانت تُعلن عن: «الملاك الأزرق. مارلين ديتريش». كما كانت هناك لافتة أخرى، وبها فتى يستند بإحدى ركبتيه إلى الأرض، وتحت إبطه عصا، كأنه مسدس وينشستر، يُطلق الرصاص نحو ضفة النهر من فوق صخور وادٍ أخضر، ممتلئ بالأغنام.

-من هنا.

مرَّت مجموعة أخرى من الطيارين الإيطاليين.

كانت بوابة واطئة، بلافتة تتبع ثنية قوس البناية، لافتة حمراء، باهتة، بحروف مطولة، صفراء. اضطررنا للهبوط على ثلاث درجات حجرية متآكلة.

-رامونا...

في نهاية الصالة، كان هناك شاب دنماركي، أبهق، يدق بعنفٍ

على أصابع البيانو الأبيض، والذي كانت توجد باقة من الزهور الصفراء فوق غطائه. وبجوار البيانو كان هناك رجل بدين، وكان يرتدي سترة صيفية بنقاط سوداء، كان يغني بينما يحرك ذراعيه بحماس، مثل ممثلي المسرح التراجيدي.

-... إن شعرتِ في قلبك...

بالمداعبات الرقيقة لعشقٍ كبير...

جلسنا إلى مائدة صفراء. في المدخل تقريبًا. كان علينا أن ندير رؤوسنا إلى الخلف لكي نرى البيانو. وقف النادل أمام مائدتنا، ورفع ميكيل كولومباس رأسه، وقال:

-كأس جين.

-بالصودا؟

-نعم، بالصودا.

-وحضرتك؟

كنتُ أشعر بتأثر كبير كأن لساني ينمو داخل فمي، وأتيت بحركة حادة برأسي.

-ولكلينا، جين.

-بالصودا؟

- نعم. بالصودا.

ذهب النادل إلى الطاولة. قال:

-ثلاثة جين و...

أتى النادل بحركة حادة برأسه. وشعرت بسخونةٍ في أذنيّ، ورسمت بإصبعي بضعة خطوط ملتوية على رسم المائدة. كلٌّ شخص يتخلص من توتره كيفما استطاع.

-... أغلقي عينيك قليلًا...

كان عازف البيانو يدق على الأصابع بحدة؛ لم يكن يحرك سوى يديه وكتفيه. كان رأسه جامدًا، بلا تعبيرات ذاهلة. كان عازف البيانو يؤدي دوره جيدًا.

كانت مكعبات الثلج تلمع داخل الجين وسط الضوء البنفسجي في الصالة. وكان إيصال الحساب الأبيض فوق رسوم المائدة. وكان حبره البنفسجي يقول: «بار بروكسل. أربعة جين. 12 بيزيتا. 27 يوليو. 1938».

-رامونا...

كانت هناك ثلاث نساء جالسات على مقاعد طاولة البار، وكن يشربن أورانج كراش بعودٍ شَفاط، كُن يتحدثن بحزن، دون رغبة، بينما ينظرن في كل اتجاه، دون فضول، كأنما يبذلن جهدًا، دون رغبة.

-إنهن أجنبيات، كما ترى. إن رغبت، ليس عليك سوى أن تقول هذا. ذلك الباب.

أشار ميكيل كولومباس بإصبعه إلى بابٍ توجد أمامه ستارة خضراء، مفتوحة حتى منتصف الحائط. وفي النصف الآخر كان الحائط مضاءً بالنور الكهربائي.

-هل السعر مرتفع؟

-خمسون.

صفرتُ بقوة مفرطة، ورفعت النساء الجالسات إلى الطاولة رؤوسهن، بالإضافة لامرأة أخرى، شقراء، فستانها أخضر. كانت إيطالية وتجلس بمفردها على أريكة. وشعرت بسخونة خلف أذنيّ، وشربت الجين، وبدا لي أن المحل ممتلئ بشكل سحري بالجمهور وبالفراشات الضخمة.

-خمسون بيزيتا مبلغ كبير.

أمام البوابة، في الشارع، كان هناك جنديان إيطاليان، بزيهما الموحد الذي يبدو كبيرًا عليهما، ورأساهما منحنيان لأنهما كانا طويلين، مثل الجنود الذين يتقدمون الصفوف، وكانا ينظران إلى داخل المحل.

الرجل الذي يرتدي سترة صيفية بنقاط سوداء مدَّ ذراعيه بشكل مبالغ، وصفَّق الجالسون إلى الموائد ببرود، بشرود، كأنهم يطلبون مشروبًا.

كان الجنديان الإيطاليان يتبادلان النظرات ببلاهة لا حدود لها. اتجه الرجل الذي يرتدي سترة صيفية بنقاط سوداء إلى طاولة البار. أحاط بخصر إحدى النساء اللائي كان ميكيل كولومباس يُطلق عليهن أجنبيات. الفتاة السمراء، التي كانت ترتدي فستانًا أسود، ظلت بمفردها، خارج المعركة، بسبب الرجل ذي السترة الصيفية، وكانت تضحك بحزن وتتحرك كثيرًا، كأن كل ضحكاتها تتساقط منها، كأوراق تسقط من شجرة، كآمال ضائعة، وكل ما يحكي ذلك الشاعر ذو النص الخطابي.

الإيطالية الشقراء، ذات الفستان الأخضر، بساق فوق الأخرى، كانت تنفث الدخان من أنفها ببطءٍ وضجر. كانت الإيطالية بالغة الجمال.

–روثيو، آيي، روثيو...

بينما كان الرجل ذو النقاط السوداء يداعب المرأتين على الطاولة ويحرك ردفيه كراقصة رومبا، كان عازف البيانو يدق على الأصابع بقوة. رفع الجالسون إلى الموائد رؤوسهم لأن النغمة كانت تعجبهم. كان الجالسون إلى الموائد يرغبون في ألا يقوم الرجل ذو النقاط السوداء في السترة الصيفية بكسر متعة الاستماع للموسيقى. أحيانًا ما يصبح الناس جادين في المقاهي التي تقدم فقرات غنائية. كأنهم يستمعون لعاصفة رائقة، عاصفة نقية مُطهِّرة، عاصفة شفافة، كأنها تجعل الأعشاب النضرة تنمو وسط علب الصفيح الصدئة في الأحياء القذرة، وسط الكلاب والقطط الميتة، وسط النباتات الشوكية، ووسط الزغب الجاف.

-...عندما أُفكر في حبك، أفقد وعيي...

- أنت، إن كانت هذه تعجبك...

أشار ميكيل كولومباس برأسه إلى المرأة ذات الفستان الأسود، الجالسة إلى طاولة البار.

-... اذهب هناك.

أشار ميكيل كولومباس برأسه إلى الباب الموجود في النهاية، الذي كانت أمامه ستارة خضراء مفتوحة حتى المنتصف.

- سننتظرك في بار موك. أو على دكك الممشى. نحن نذهب للجلوس كل ليلة على دكك الممشى.

كان ميكيل كولومباس يُبدي اهتمامًا أبويًّا تقريبيًا. لا أعرف لماذا. هذه الدوافع دائمًا ما تكون غامضة، مثل الذئاب، مثل العمق الشفاف للبحر. لا أعرف لماذا. من يدري إن كان يفعل هذا لكي أحكي له كل شيء بعد ذلك، وهكذا يمكنه التفكير على انفراد في كل الأشياء التي حكيتها بصوت مرتعش إلى حد ما.

- هذه الأمور يجب أن تتم بتمهل. أنا لا أستطيع الإقدام على هذه الأمور هنا، وسط الناس. أنا غير قادر على هذا. أنتم تمتلكون خبرة أكبر.

أشار ماجي إسكاليس بيده إلى المرأة ذات الفستان الأسود، والتي كانت شابة، ووجهها طويل وبيضاوي، وطويلة القامة، ولكن تكن لديَّ رغبة في الضحك. كنت أشعر بخوف كما يحدث عندما أحلمُ أن خمس دقائق قد تبقت على إعدامي رميًا بالرصاص.

- ماذا؟

كانت جدران المحل حية، صفراء، مرسومًا عليها أحصنة بحر بيضاء والكثير من العلامات الطفولية الحمراء والخضراء، العدوانية والمبهجة في الوقت نفسه.

-إنه هذا.

كان عازف البيانو يدق بعنف بينما يعزف النغمات الأخيرة من...

-ما اسمك؟

-أندريو. وأنت؟

-ماري كارمن.

- *عازف باندونيون متجول..*

بدأ عازف البيانو الأغنيةَ الثالثة. الأغنية الثالثة منذ وصولنا.

وعلى طاولة البار كانت ماكينة القهوة تُلقي بدفقاتها المتتالية اليومية داخل فناجين زجاجية، وكانت تحمل كلمة «بروكسل» بحروف حمراء.

شربت الجين المتبقي في الكوب، وفتحت فمي كثيرًا لكي يمكنني التقاط مكعب الثلج. وسط ذلك الحزن المعزوف، شعرتُ للحظةٍ أنني طفل وحر ومبتهج: كانت لحظة الألم الممتع لبرودة الثلج على أسناني وحنكي. عندما كنتُ طفلًا -دائمًا عندما كنتُ طفلًا- وكنتُ أذهب إلى محل السمك، حيث كان يورنس كروس يكسر قوالب الثلج بمطرقة، وكنت آخذ القطع التي تنطلق متطايرة. وكنتُ أتحملّ البرودة في فمي.

كانت هناك أباجورة ذات ساق ذهبية فوق الشوفنيرة، كانت تضيء جدران الغرفة، وكانت في مواجهة سرير كبير. كانت هناك ستارة حمراء أمام النافذة -النافذة وهيئة الجبال في الخلفية- كانت حمراء مثل غطاء الفراش، وكانت تتحرك بفخامة، مثل جونلة ماري كارمن. وفوق زجاج الشوفنيرة، كانت هناك باقة من زهور البكورية داخل مزهرية صفراء، بلا بريق. وفي سفح الفراش، فوق سجادة، كانت زرافتان تمدان عنقيهما أمام شجرةٍ يقف ببغاء أخضر في منتصفها.

كانت كل ملابس ماري كارمن فوق ظهر أحد المقاعد. وكانت ملابسي على الشماعة، بساقي البنطلون متدليين وفارغين، وأبزيم الحزام لامع ومائلٌ إلى جانب.

-أنت طويلٌ للغاية.

كان شعر ماري كارمن كله إلى جانب، وكانت تمسكه بيدها. كانت ماري كارمن تحرك أصابع قدميها البيضاوين، وكان بياضًا مختلفًا تمامًا عن بياض الملاءات، ببياض الأشياء التي تُلبس وتُخلع.

-أنتِ أيضًا طويلة للغاية.

كانت ماري كارمن مُستلقيةً على ظهرها، بعينيها مُغمضتين، بيديها تحت عنقها، كما يستلقي أحيانًا الرجال الوحيدون ويشعرون بمتعة صغيرة لدى الشعور بالشمس على أجسادهم،

كعلامة على أنهم أحياء، مثل بقعة خضراء فوق صخرة.

-هل أنت في العشرين من عمرك؟

كانت إحدى ركبتيّ فوق الفراش، وكنت أضغط على كتفيها الرطبين بيديّ.

-في الخامسة عشرة. كنت أريد التطوع في الطيران. لكي أذهب لقصف برشلونة.

كان صوتي يرتعش، مثل الحيوانات في المساء.

-ماري كارمن، أحبك، أحبك كثيرًا. أحبك كثيرًا يا ماري كارمن.

كنت أضغط على كتفيها بيديّ بينما كانت إحدى ركبتيّ فوق الفراش، وماري كارمن -يا لك من طويلة في استلقائك- كانت تنظر لي بغموض وبعينين رطبتين بعينيها مفتوحتين، بذراعيها مفتوحتين، وكل شعورها بالذنب مُتركزًا كجمالها.

-اصمتْ!

وبعد ذلك، اكتسى وجهها بالحدة، حتى أصبحت عظام وجهها بارزة:

-يمكنك أن تظل صامتًا هنا. بعد ذلك ستخرج للشارع. وستنساني. ولن تتبقى معي سوى الكلمات، كأنما بقيت مع شيطان.

في اليوم التالي وصلت إلى قريتي بجلد وجهي مُتصلبًا، بينما أُفكر في نفسي، في آلام المسيح عندما كان طفلًا، في الستارة البنفسجية في غرفة الاعتراف.

وصلت إلى محطة قريتي، حيث كانت قضبان القطار متسخة بالزيت والسخام، وحيث كان رجال الميليشات في نوبة حراسة في مدخل القرية، كانوا يوقفون السيارات، بينما تتمايل أشجار الزيتون الصفراء إلى جانب السكة، بجوار السور المسود لعنابر العربات، مثل أشجار الزيتون الموجودة هنا، الآن، تحت هذه الشمس النارية...

11

جابريل كالدينتي

رجعتُ من المشرحة ووصلت إلى عنبري. صليت لبرهة أمام جثة جاومه جاليندو. لم يكونوا قد قاموا بتشريحها بعد. كان فوق الحجر، مُمددًا على ظهره، عاريًا، أبيض، بوميض عكر في إحدى عينيه شبه المغمضتين. كان الضوء حول الجثة حيًّا هادئًا. كان يكشف عن العطب الذي سببه المرض في كل عضو من ذلك الجسد. كان تصلب الأطراف، تحت ذلك الضوء، لا يبدو تصلب الموت، وإنما مجرد عظام مكشوفة. بينما كنت أخرج من المشرحة، فكرتُ أن الحياة تحت أشجار الأوكالبتوس، في الهواء الطلق، بقدميه فوق الأعشاب، كان سيكون أفضل لجاومه جاليندو من الاستلقاء في غرفة رقم 13. وبينما كنت أخرج أيضًا، رأيت أجوستي آلكانترا بينما يدفع عربة يدوية وبها الصندوق الطويل المصنوع من خشب الصنوبر، غير المطلي، باتجاه باب المشرحة الأسود.

كان ماء الحوض باردًا. كنت أفرك يديّ بالصابون مرة تلو الأخرى كالمهووس. لا أعرف لماذا كنت أبالغ في فرك اليد التي باركت بها جثة جاومه جاليندو. إن هياج أفكاري المبعثرة هو

ما يرتعش متشنجًا كجسدي، كانت فوضى ملابسي وأغراضي هي انعكاس لروحي، أنا قس متعفن. لكن روحي وهويتي لا يمكن أن يكونا مضطربين، لأنهما لا يحتويان على أجزاء يمكن أن تتفكك. إنهما كتلة من الثقة أمام الرَّب. لكن أغراضي متسخة، مبعثرة، كأنها تفيض عن حاجتي. كانت فرشاة الحلاقة في وضع عمودي فوق الحوض، منذ المرة الأخيرة، ممتلئة بالصابون، بجوار ماكينة الحلاقة، دون فك أجزائها، بموس جيليت الذي يصدأ. وفي ذيل الفراش، فوق السجادة، يوجد زوج جوارب مليء بالثقوب. والخف المغبر ذو النعل من الخيش، كان تحت الشمس التي تدخل من النافذة. بالطبع لم تكن هذه المائدة جديرة بقس. هذه المائدة المليئة بالحبر ودفتر الملاحظات -ملاحظات اتفاقي مع الرب- الذي توجد بقعة زيت على كرتون غلافه؛ والتفاحة التي لم آكلها بالأمس، والجوارب النظيفة المطوية، وزجاجة الجين، والكأس الفارعة، بالنقطة الجافة الملتصقة بقاعها. وهذا الجير المتسخ، المليء بالذباب الميت الملتصق بالحائط. وفكرت في الشريط المعدني الذي أربطه على فخذي بإحكام كعقاب جسدي. كان ممتلئًا بالعرق والدم، وفكرت إن كان الرب يراه كشيء قذر. لكن إن كان هذا السلام في القلب ليس نظامًا...

-أب جابرييل.

إنه صوت مانويل تُور.

-حالاً.

علّقت الفوطة المبتلة على الشماعة. خرجت إلى الصالة، هذه الصالة الصغيرة التي أمر بها فقط لكي أدخل غرفتي.

-أهلًا يا مانويل.

-هذا الصباح... لقد حدث هذا الصباح. المرة الثانية خلال شهر.

كانت يدا مانويل تُور مفرودتين، يداه الكبيرتان الشاحبتان.

– كنتُ في ممر غرفة العمليات، كنتُ بمفردي، جالسًا على دكة في الممر. كنت أشكر الرَّب، بسلام كبير في قلبي، على التناول الذي أعطيتني في الصباح. أدركتُ عُمق الألم الجسدي المتحد بالصلاة كأكثر الطرق وعيًا لدى البشر. شعرتُ بسكينة رؤية حقيقة الإنسان: الزاهد والمادي ليسا شخصين عاديين، كاملين. وإنما لا يعيش الحياة الطبيعية سوى العامل الذي يصلي فقط. ووسط هذه الثقة الراسخة شعرتُ برقة، ببهجة فريدة في جسدي، بسبب التناول. كنت أفكر (وكنت واعيًا بتفكيري)، أنني كنت آكل لحم العذراء أثناء التناول. بعد ذلك ركعت على ركبتيّ، بيديَّ على صليبٍ موجود فوق مائدة العمليات، دون التوقف عن الشعور بذلك السلام. بعد ذلك، بذات السكينة، شعرت بألم حاد بسبب الخُطاة. كأنني مدفون تحت كومة من جوالات الرمال. كنتُ مغموسًا في خجل عميق، في احتقار لا نهائي، في ضعف عاصف، في طاعة ملتصقة تمامًا كما يلتصق الطحلب بصخرة. في تلك اللحظة بدأت أصلي من أجل نفسي. لم يكن هذا فعلًا أنانيًّا. كنت أشعر

أنني مسحوق تحت ألم كل الخطايا، والخطاة يُشكلون جزءًا مني لأن الإنسان هو الإنسان. شعرت بتدافع وحمية داخلي، سرعة بالغة لقوى في روحي، وأن لحمي كان يتمزق تحت جلدي، دون أن يخرج من جسدي. لم تظهر على جلدي سوى كدمة بنفسجية داكنة. بينما كان ألم الخطاة يتزايد داخلي، كان جلدي ينفتح بألم رهيب. كنت أشعر في حنجرتي بحشرجات الاحتضار، احتضار أكيد، في عزلة، بلا أي نوع من السلوى. كنتُ أشعر أيضًا بالنُّبل. كنت أرى كيف تظهر القروح في جسدي. كنتُ أدرك أن ما يحدث ليس إعادة تجسيد للصليب في شخصي، أو هبةً يمنحني الرَّب إياها لأختبر آلامه. كان الاتحاد التام بالمسيح، كما قال ابن الرب إنه في الشعور بأبيه. لأن المسيح قام بقروح الآلام وصعد إلى السماء بندوب موته وظلت معه في مكانه على يمين الرَّب. الاتحاد الحميمي بالمسيح هو الاتحاد الحميمي بقروحه. ندوب جسدي تكشف إلى أيّ عمقٍ يتغلغل الرب في البشر وكيف أن قروحي مفتوحة الآن في اتحادهاً مع الأب.

بكى مانويل تُور. مثل البشر. كانت قروح مانويل تُور مفتوحة، لكن دون دماء، كأنها مغسولة، وتوجد هالة بنفسجية حول الأجزاء الغائصة. كان هناك نتوء منتفخ وأزرق ودائري في يده. مثل رأس مسمار. قال مانويل تُور.

–يا أب جابرييل، إن عمل المسيح في البشر هو ذلك السلام في الألم، هو قرحة الحياة هذه والتي تتحول إلى آلام المسيح بعد

قيامته. عذاب الإنسان هو ألا يخرج ابن الرَّب للقائه. المسيح يُعذِّب عندما يكون غائبًا.

نظر لي مانويل تُور بعمقٍ، كأن كل سلامه يصرخ أمامي، كأنه يصيح أمام باب مُغلق.

-لقد رأيت لوحات أصلية لرجال وصلوا لدرجة القداسة يا مانويل. وجوه قاسية، مليئة بالحزن مثل حجرٍ، رجالٌ كان عذابُهم عظامًا في الوجه. رأيت صورًا فوتوغرافية حقيقية لتيريزا دي ليزيوكس. لم يكن في وجهها هذه العذوبة وهذه الرقة. كانت شفتها السفلى بارزة للأمام، وعضلات الوجه مليئة بالتوتر، وجهٌ بعينين مغلقتين. رؤيا المسيح صعبة. انتزاعها من إنسانٍ يعني انتزاع حياته.

أخفض مانويل تُور عينيه. وضع يدًا فوق الأخرى. كانت وقفته بسيطة، متواضعة، صادقة، ومتحمسة. مانويل تُور رجلٌ تُعتبر الطاعة رداء له وأعمق طرق الخجل بالنسبة له.

-أب جابرييل.

-ماذا؟

-هل يمكنني الاعتراف؟

-الآن؟

- نعم.

وضعت يدًا فوق كتفه وابتسمت. قلتُ له:

–لا. ليس الآن.

12

أندريو رامايو

قلتُ لجوردي ميركادير: خطر لي حلٌّ بينما كنت في الفراش. جوردي ميركادير يجهل أن الحل هو هذا:

لم يعرف أبي مُطلقًا أنني رأيته في غابة أشجار السنديان الخاصة بجيروني استرادا، خلف البيوت.

لن يعرف مُطلقًا أنني كنت أتجسس عليه في ذلك المساء. كان في المطبخ في ذلك المساء، جالسًا على مقعدٍ، بينما يرسم خطوطًا بعصا فوق رماد النار، كأنه ينتظر غروب الشمس في غابة أشجار السنديان الخاصة بجيروني استرادا.

كان يبدو أن هناك عنكبوت رتيلاء أحمر فوق جبهة أبي. وكان يبدو أيضًا أن نور المطبخ بذات لون الجَرة الموجودة في الحوض. وكان يبدو أيضًا أن جنديّيّ الحرس المدني سيأتيان إلى شارعنا. وعندما يمران، سيتوقف الأطفال عن اللعب وسيصعدون فوق الأرصفة، وسيخبئون الكرة بين ظهر أحدهم وجدار أحد البيوت.

لم يكن بيتنا نظيفًا لأن أمي كانت تذهب إلى حانة جوليان إسكوبار، وكانت تسكر بعرق الينسون، وكان عرق الينسون يتغلغل حتى عظامها مثل البرد وحمض البوليك.

لم نكن نشغل بال أمي، لكم نكن في جبهتها أو فمها أو بين نهديها أو تحت نهدها الأيسر، بسبب عرق الينسون في حانة جوليان إسكوبار. كانت أمي قد ارتبطت بعرق الينسون في حانة جوليان إسكوبار كأنها في علاقة عاطفية لا يرضى عنها الرَّب. وكان أبي يصطبغ حُمرةً حتى جذور شعره، وكان يبكي في الإسطبل عندما يقدم الطعام لهيلادا، وكان يلقي الشعير في المآكل بإنسانيةٍ تشكره عليها هيلادا بطريقتها، حيث كانت تحرك أذنيها كثيرًا في دفء الإسطبل.

وكان الفرن الصغير على الأرض، تحت المدفأة. وحول الرماد يمكن رؤية قشور البطاطس المتراكمة طوال الأسبوع، وأوراق الكرنب السوداء، وقشر البيض، وزجاجة الوقود، والأواني المغطاة بالسخام والمتسخة باللبن، لأن أمي -على الرغم من أن قول هذه الأمور ليس مُستحبًّا، لأنها أمور لا تخص الرجال- لم تكن تغسل الأواني والأطباق حتى تتسخ كلها، وكل هذا بسبب عرق الينسون في حانة جوليان إسكوبار. وعبر نافذة المطبخ، التي كانت صغيرة ومعتمة إلى حدٍّ كبير، كنت أرى ضوء المساء الآخذ في الخفوت كما يخفت الأمل، أحيانًا، في قلوب البشر.

كنتُ أقول: «لا بدّ أن الشمس تغرب الآن في غابة سنديان جيروني

استرادا». كانت غابة سنديان جيروني استرادا هي الأكثر عتمة وكثافة في القرية. كانت هناك ثماني عشرة شجرة نغت الدبق في غابة سنديان جيروني استرادا، كانت في صف منتظم، وكانت تبدو كنهر أخضر في عتمة غابة أشجار السنديان.

كنتُ أقول: «لا بدَّ أن الشمس قد غربت الآن في غابة سنديان جيروني استرادا». الآن يمر جيروني استرادا بين أشجار السنديان، بالقبعة المدفوسة حتى أذنيه، ووجهه الممتلئ واللحية ذات ثمانية أيام، البندقية مُعلقة على كتفه، إلى أسفل، وكعبها من خشب البلوط يبرز بمقدار شبر فوق كتفه. وفي حظيرة الدجاج المصنوعة من خشب الصنوبر، بالبندقية بين ساقيه، كان جيروني استرادا -بأسنانه السوداء وغليونه الأسود وتبغه الأسود- يخفي سر التهريب، كهفٌ ضيقٌ تحت الأرض، ممتلئ بجوالات السكر والقهوة، بعلب التبغ الممتلئة بكلمات غامضة وقاتلة بالإنجليزية، المثيرة مثل الخطايا التي يحكيها عجوز لأحد هؤلاء الفتيان الذين يقرؤون قائمة أنهار إسبانيا في الشارع.

-أندريو.

-ماذا؟

-عندما تمر عربة اللبن، ستقوم أنت بإخراج الأباريق. العربة تمرُّ في الثامنة. رامون أجيري يدق الكلاكس ثلاث مرات. أنت أصبحت تعرف هذه الأمور. يجب أن تدون لترات اللبن. خلف

التقويم.

- نعم.

-اللبن طازج.

-طازج.

-لا يوجد قمر.

-لا.

-لا حاجة لنا به.

-أنا لا أحتاجه. كل واحد يعرف ما يناسبه.

وخيمَ شعورٌ كعنكبوت رتيلاء طويلٍ في هواء المطبخ.

-ماذا كنت تقول؟

-كنت أقول إن تدوين لترات اللبن لا بدَّ أنه قد ملأ التقويم.

-آه!

-يبدو أن الرياح ستهب.

- نعم.

-من السيئ إمضاء ليلة كهذه في غابة أشجار السنديان.

-هذا سيئ.

–لا يمكن للمرء أن يسمع وقع خطواته بسبب الرياح.

–لا.

–أو إن كان الشخص الموجود خلفه متوقفًا أم يسير.

–لا.

–وأمك؟

–لا بدَّ أنها في القرية، مخمورة.

–اصمتْ.

–في حانة جوليان إسكوبار، قذرة ومنسية.

–اصمتْ.

–وأنتَ لست رجلًا أو أي شيء، كأن عظامك أيضًا غارقة في عرق الينسون.

عندما حلَّ الليل فوق باب الحظيرة، خرج أبي إلى الحقول لقتل جيروني استرادا ولكي يسرق صناديق التهريب التي كان يخبئها في كهف غابة أشجار السنديان. كان هناك طريق خلف البيوت؛ كان طريقًا ضيقًا بين سورين عاليين، مغطيين بالعليق، وكان يقود إلى غابة أشجار السنديان الخاصة بجيروني استرادا. كنتُ قد أخذت ذلك الطريق المختصر مرات كثيرة، وكنت أعرف أن أبي

سيصل إلى غابة أشجار السنديان خلال ربع ساعة. صعدت إلى غرفتي. لأبدل ملابسي. كانت الملابس اليومية مُلقاة فوق الفراش. وكان الفراش غير مرتب كالعادة، وكان قذرًا بسبب عرق الينسون في حانة جوليان إسكوبار.

عندما خرجت إلى الحقول، كانت الرياح قد هدأت، والسماء صافية، وبها نجوم كبيرة مثل قبضة اليد.

-وأنتَ لست رجلًا أو أي شيء، كأن عظامك أيضًا غارقة في عرق الينسون.

كانت الضفادع في البِرك المحاطة بالبوص، وكانت تكرر نقيقها الوحيد، القصير اليومي الوحشي الليلي.

أبي، الذي كان يخفي سكين سلخ الشياه داخل بنطلونه، لا بدّ أن يمر بحقل كولومباس، وربما كان يحمل سكين سلخ الشياه في جيبه، ومن يدري إن كان يحملها في يده، بينما يشعر بملمس المقبض المصنوع من العظام في راحة يده، وتدفق الدم في صدغيه، كأنه ذاهب لرؤية مجدلية قريتنا. أنا أعرف عندما يذهب إلى مجدلية قريتنا لأنه في اليوم التالي، يسقط نائمًا على المائدة وفي حقل قطن بيرنات أوليفر. ذات يوم سيقول بيرنات أوليفر لأبي ألا يعود إلى حقل القطن.

وكانت الشياه تثغي في أرض كولومباس؛ الإناث البذيئة، والشياه التي لم تبلغ العامين، بصوتها الخشن، مثل صوت الفتيات اللائي

يبدأن في فقدان الشهية لدى وصول الربيع. وفي الليل تعبرُ الأسوارَ رائحةٌ ثقيلة حيوانية بمزيج من الصوف والفضلات، وتنطلق هذه الرائحة إلى الهواء المُحمل برائحة الزرع.

وبعد تجاوز أرض رعي كولومباس، توجد ثلاث أشجار بلوط. ومن أشجار البلوط يمكن رؤية حظيرة دجاج جيروني استرادا التي تبدو كبقعة سوداء. كانت أشجار البلوط الثلاث على مرمى حجر من حظيرة الدجاج، كالمسافة بين التلاميذ وسيدنا المسيح في كنيسة جت الزيوت. (أحيانًا أقوم بهذه المقارنات الغريبة، مثل مقارنات داميان فاورا، المجنون الرسمي لقريتي، الذي يضع لسان كلبه في فمه).

وصل صوت اختراق سكين سلخ الشياه لكبد جيروني استرادا إلى أشجار البلوط الثلاث. وصل صوت جيروني استرادا إلى أشجار البلوط الثلاث بينما يقول: «لكننا من ذات الدفعة يا رامايو، وكان من نصيبنا الذهاب إلى حرب إفريقيا معًا، وكان كلانا من نافخي البوق». وصل رعبُ ورِقَّةُ أبي حتى أشجار البلوط الثلاث، ولأن جيروني استرادا لم يمت، ولأن أبي كان يشعر بالرقة نحوه بينما يسمع كلماته، طعنه بسكين سلخ الشياه ثماني مرات. وصل صوت ضربات أبي في الأرض حتى أشجار البلوط الثلاث، لأن أبي كان يريد شقَّ حفرة في الأرض لجيروني استرادا. كانت أشجار البلوط تبدو خضراء ومبتهجة وداكنة عندما ألقى أبي بجيروني استرادا في الحفرة العميقة، عندما صدر عن جيروني استرادا ذلك

الضجيج الذي يصدر لدى تسوية الأرض بجوالات الأعشاب عندما يتم إلقاؤها من عربة على أحجار الطريق.

-أندريو.

-ماذا؟

-إن كان رافائيل سانتوس...

- نعم.

-إن كان رافائيل سانتوس في بيته، قل له إنه يمكنه المجيء. في الساعة التي يعرفها.

- نعم.

-بالشاحنتين. واحدة لن تكفي.

- نعم.

-ماذا بك؟

-أنا؟ لا شيء.

نظر لي. بعينيه الشبيهتين بالخشب الأحمر. بوجهه الشبيه بالخشب الأحمر. ولبرهة شعرت بالخوف من أن يقول لي إنني أيضًا أبدو وكأن عظامي مغموسة بعرق الينسون.

13

مانويل تُور

ألم دمي هو الذي سيضع يديَّ على عنقك. إنه ألمٌ تعلمته بجوار أبي، الذي كان رقيقًا وقاسيًا وتعيسًا وإسكافيًّا يا رامايو.

كان أبي مُتسلطًا، على الرغم من أنه كان -في أعماقه- رجلًا طيبًا، وكان مهووسًا بالاستمتاع بتأمل أثر سلطته. أعتقد أن أبي في الحقيقة كان خجولًا، وأنه كان يصرخ كثيرًا لكي يفزع المزاج العكر الذي يتسبب فيه الفقر. وأعتقد أنه كان خجولًا لأنه فيما يتعلق بالأمر والنهي في البيت، في إدارة شؤون البيت، كانت أمي هي من يرتدي بنطلونًا. لم يكن أبي يفعل سوى الصراخ وقول إنه سيشنق نفسه لأننا لا نعرف كيف نحافظ على المال، بينما تكون أمي عائدة من دفع الضرائب.

كثيرًا ما كنت أذهب أنا وأمي للنوم في وقت متأخر، وعندما يرى أننا في الفراش، يبدأ في إخراج قطع خشب ومطارق وكماشات. وفي منتصف الليل يصنع حاجزًا لا حاجة لنا به، أو قفصًا به مصيدة قاتلة للقطط وابن عرس، ولم تكن لنا حاجة به أيضًا، أو إطارًا

للوحة لا نمتلكها، وكان يقوم بكل هذه الأشياء بمفرده. بعد ذلك، بعد منتصف الليل، وسط صمت المطبخ، كنا نسمعه يكسر بيضةً ويشربها.

وبسبب المنغصات الدائمة، وبسبب الاختلافات بين أبويَّ، لم نكن نتبادل الكلام أثناء جلوسنا إلى المائدة. وكنا نأكل بسرعة شديدة. ومن حين لآخر، كنا نتبادل النظرات بحزن، وعندما يلتقي كلٌّ منا بنظرة الآخر، نواصل الأكل بطريقة ميكانيكية.

كان أبي سريع الغضب والانفعال، وكان حزينًا للغاية. وفي ساعة الغداء أو العشاء، كنت أنظرُ له خلسةً، وكنت أنتبه إلى أنه يضع يده اليسرى مفتوحةً فوق المائدة. دائمًا ما تكون يده مغلقة، وأحيانًا كان يضغط على أصابعه كثيرًا ليغلق قبضته أكثر، كأنه يريد غرس أصابعه في راحة يده. كانت مفاصل الأصابع وعظام اليد اليسرى بارزة إلى الخارج، وأكثر شحوبًا من بقية اليد. كانت يد أبي بلون اللحم المتحلل. كنت أشعر بالخوف عندما أنظر إلى وجهه، وأتابع توتره عندما يشد على أعصاب ذارعه، التي تصبح مشدودة للغاية مثل أوتار الجيتار. كانت العضلة تأخذ في الارتفاع، ويزداد حجمها، حجمٌ بارز تحت الجلد الرفيع، والذي كان مجعدًا في الجزء العلوي. عندما كان يغلق قبضته ويضغط عليها كثيرًا، كان يأكل بسرعة أكبر، ولم يكن يملأ سوى نصف الملعقة. في أحيان كثيرة كانت عضلة الذراع والأعصاب يتوقفون عن الحركة فجأة، يصبحون جامدين، بينما أقومُ خلسة، بطرف عيني، بمتابعة توتر

يده. كنت أرفع نظرتي حتى عنقه وأرى تفاحة آدم بينما ترتفع وتهبط بسرعة، ويبدو مرئيًّا تقريبًا كيف يبتلع لعابه. كان يضغط على فكه، ويصبح فكه نحيفًا، متيبسًا، منتصبًا، بتلك اللحية التي لم يحلقها منذ ثلاثة أيام. وتتحرك أوردة صدغيه.

كان يبدو واضحًا أنه يتحدث داخليًّا، بسرعة كبيرة، وأحيانًا يبدو أنه يبكي بغزارة داخليًّا.

بينما يستمر هذا التوتر وهذا الصمت، كان القط يدخل المطبخ ببطء، دون مواء. كان قطًّا أبيض، ببقعتين صفراوين على ظهره، وبجلد لامع للغاية. في أحد تلك الأغدية الصامتة المؤلمة، جاء القط ببطء ودخل تحت المائدة، بينما يمسح رأسه وظهره بحذاء أبي، الذي كان جالسًا بيني وبين أمي. رفع القط ساقه وكان يضرب ضربات خفيفة بخطمه الرطب ويدفع ساقي أبي بعذوبة. ساقا أبي النحيفتان البيضاوان، وكانت بهما شعيرات قليلة داكنة. بدأ أبي في التوتر في صمت بسبب دفعات القط وبسبب حضوره. مع كل حركة لطيفة من الحيوان المسكين، كانت يد أبي اليسرى تنقبض حتى تنغلق قبضته تمامًا، وتظهر مفاصل الأصابع متيبسةً. بينما كانت القبضة تنغلق، كان حاجباه يتقوسان، ويصبح بياض عينيه لامعًا، داميًا.

كانت عينا أبي تتحركان من جانب لآخر، بسرعة، وينظران فجأة بثبات، لكن دون أي تعبير على الإطلاق. استمر القط في التمسح بساقي أبي برأسه وظهره. بسرعة، ودون تأثر، ركل أبي بطن

القط بكعب حذائه عشر مرات على الأقل. ظل القط يموء خلال وقت طويل، تحت المائدة، بقوائمه متيبسة وعينيه جاحظتين. في ذلك اليوم لم نستمر في تناول الطعام.

رفعت أمي الأطباق عن المائدة، وبدأت في غسل الأكواب والملاعق والأطباق، ببطءٍ وبحزن كبير. أخذتُ القط، الذي كان حيًّا ويموء بصعوبة، لأنه كان يحتضر. حملته إلى العريشة الموجودة في الحظيرة. وكان المرحاض في العريشة. وبعدما تركت القط فوق جوال قديم، خرجت جاريًا إلى المطبخ، ورأيت أمي بينما تبكي.

ظل القط يحتضر طوال كل العصر. في ساعة الغروب، كان هناك هدوء شفاف وخانق في فناء البيت، الذي كانت توجد به أربعة أصص بها قرنفل وغرنوقي.

وانشغل أبي في صنع حواجز طوال العصر. وفي منتصف العصر رأيته ذاهبًا لقضاء حاجته. ودخل العريشة، وعندما رأى أن القط يحتضر فوق الجوال ويموء له، بينما يفتح فمه بالكاد، استدار أبي لكي لا يراه وعاد لعمله. ذهب مرات كثيرة، وعاد بوجه جهم، حتى مات القط في الغروب، عندما بدأت العتمة في الحلول على الفناء، حينئذ أمسك الجوال ووضعه فوق القط دون أن ينظر له، ثم دخل المرحاض.

كان أبي ينهض في الصباح قبل وقت كثير من استيقاظ أمي. كنتُ أنام في غرفة في مواجهة المطبخ، ولم يكن لها أبواب، وكان

بها ستارة من الشاش الرقيق، ويمكنني رؤية كل ما يفعل أبي. كان يدخل المطبخ بينما يعقد أزرار البنطلون، وكان يتجه مباشرة إلى السكرية، ويبدأ في التهام السكر خلسة متوخيًا عدم إصدار ضجيج. بعد ذلك كان يجلس، يمسك بمطحنة القهوة، يفتحها؛ يشمها، وبعدما يتشممها لبرهة طويلة، كان يضع ملعقة في فمه، بوجه عاشق. كان يلعقه لأنه لم يكن يمتلك أسنانًا، لأنه لم يكن يضع طاقم الأسنان حتى ساعة الغداء، والذي كان يحفظه أثناء الليل في علبة بلاستيكية مملوءة بالماء.

كانت هناك مرآة في المطبخ، هذا إن كان من الممكن إطلاق مسمى مرآة على لوح زجاج مكسور إلى أربعة أجزاء، ومليء بالخدوش من أعلى إلى أسفل، ومنذ وقت طويل كان يعكس لنا صورةً ليست بالصحيحة. كان أبي يقف أمامها على انفراد. دائمًا ما اعتقدت أنه لم يكن يقف أمام المرآة، طوال كل هذا الوقت، لمجرد تأمل نفسه، أو لأنه كان يجد مظهره لطيفًا.

بسبب سرعة هياج أعصاب أبي، كان يشبه جزيرة معزولة في بيتنا، ودائمًا ما كان بمفرده. كنت أنا وأمي نتحاشاه. بالكاد كنا نتوجه له بالكلام، وكنا نتحدث معه بغلظة. وهو -الرجل الحنون التعس الطيب- عندما كان ينظر لنفسه في المرآة، لم يكن يفعل سوى تحية نفسه. أنا متأكد من أن أبي كان يبحث في المرآة عن إيمان بالحياة، عن رفقة، عن زجاج يتشبث به، لأنه كان يفك أزرار قميصه ويضع يدًا على صدره ويضغط عليه.

لم تكن الشمس قد طلعت بعد، لكنني كنت أستيقظ بسبب وقع خطواته في المطبخ. كان يسمعني بينما أتحرك، ودون ضجيج، كان يدخل غرفتي ويجلس على الفراش. كان يمرر أصابعه في شعري. كان يداعب رأسي مرة تلو الأخرى، دون أن يجرؤ على قول أي شيء، كأنه يشعر بالخجل لأنني أكون في صف أمي دائمًا.

- هل نمت جيدًا؟

- نعم.

-إنها تُمطر.

- نعم.

-هل شعرت بالخوف ليلًا لدى الرعد؟

-لا.

-العواصف ليست رفقة جيدة.

-لا.

كان يمرر يده في شعري حتى يقوم في النهاية بخلع خفيه، ويستلقي بجواري دون أن يخلع ملابسه. كان يمسك إحدى يديَّ ويضعها على صدره، وكنت أغوص بأصابعي في شعره. كنت ألحظ كيف يبتلع لعابه بينما يُقبل جبهتي ووجهي ويشجعني. بعد ذلك مرَّر يداه على فخذيَّ ورأى أنني قوي وأنني أنمو سريعًا.

-إن لحمك صلد.

- نعم.

–لقد أصبحت رجلًا.

- نعم.

بدأ ضوء الشروق في الدخول عبر شقوق باب الحظيرة، وفي داخل البيت أصبح ممكنًا تمييز المائدة والمقاعد من الخوص. وفي الفراش، بدأت أميز ملامح وجه أبي، الذي كان يبتسم وسط لحية لم يحلقها منذ ثلاثة أيام.

–لقد أصبحت رجلًا.

- نعم.

- ماذا تريد أن تمتهن؟

–لا أعرف.

كان يمرر يده على ظهري، وفخديَّ، وكان وجهه الطويل يمتلئ بالثقة شيئًا فشيئًا، ولم تعد عيناه تلمعان كثيرًا، وبدا أن فمه أكبر، والسبب في هذا أنه لم يكن يضغط كثيرًا على شفتيه.

وكدليل على أننا سنكون صديقين ذلك اليوم، ربتَ بين ساقيَّ مرتين بيده، هكذا كانت مداعبته المعتادة عندما يكون سعيدًا.

بعد ذلك كان يذهب إلى الحظيرة، وكنت أسمع بشفقة كيف يتبول أبي بمفرده بينما يكون ظهره لباب الحظيرة.

14

أندريو رامايو

22 رقمٌ مثل أي رقم آخر. وعلى باب غرفتي يوجد رقم 22 بالخشب الأسود. رقم 22ً موجود فوقي كما يوجد الجير فوق الجدران، كأنه الفسيفساء الحمراء في الممر. رقم 22 موجود فوقي كما يوجد تعبير «ابن الرَّب» فوق رأس قاتل. لكن رقم 22 ليس عميقًا فوق رأسي مثل الرغبة الحيوانية التي تنتابني لصعود السلم الطويل المعتم في بيت أوجيني موريل، إن أعطاني المدير تصريحًا بالذهاب إلى قريتي بعد الفحص الشهري. رقم 22 لا يرتعش كثيرًا، ولا يصدر عنه ضجيج خشن مثل جرس شقة السيد أوجيني موريل، الأعزب، قليل النوم، والمفسد، مثل الماء الذي يُعفِّن الخشب.

السيد أوجيني موريل مريضٌ بالقلب، وعيناه لامعتان مثل عيون مرضى الربو في الربيع. يكفي أن أسند رأسه إلى الأريكة، وأضع وسادة فوق وجهه ثم أجلس فوق الوسادة. مرضى القلب يختنقون بسرعة. أعرف بدقة أين يحتفظ بالمال، كما يخفي القط فضلاته بعد قضاء حاجته في الحقول. (أقارن بين الأشياء كما كان يفعل داميان فاورا، الذي كان يحلق شعر جسده أمام مرآة

أمه عندما يكون بمفرده في الطاحونة. أقارن بين الأشياء كما كان يفعل داميان فاورا، الذي كان يكشف عن الشعر الطويل في ساقيه للفتيان في الشارع، وكان الصبية يعطونه بيزيتتين، كأنهم يعطونها لإله غريزي ومجنون).

-رامايو!

يدخل مانويل تُور غرفتي. كنت أسمع صوت مانويل تُور في الشرفة، عبر الباب المطل على الممر، كأن مانويل تُور يتحدث من خلف حاجز زجاجي.

- تعالَ إلى الشرفة يا مانويل. هل تعرف أن صوتك غريب؟

مرَّت كارمن أونايينديا بدلو أسود. الدلو الأسود الذي تحمله كارمن أونايينديا كان ممتلئًا بماء عكر، لزج، ولونه مخضر. كارمن أونايينديا امرأة ضخمة الجسد، لكن بينما تحمل الدلو الأسود في يدها، كانت تبدو روحًا صافيةً.

فكرتُ: مانويل تُور هادئ أمام البوابة. أقولُ:

-لماذا لا تدخل الشرفة يا مانويل؟

-سأكون شاكرًا إن أتيت أنت. إن استطعت يا رامايو.

حذائي وفسيفساء الشرفة بذات اللون، إن كنت قد لمعت حذائي بالورنيش وقامت كارمن أونايينديا بمسح الفسيفساء.

-ما الأمر يا مانويل؟ إنك شاحب.

-لا تشغل بالك. كنت أريد أن أطلب منك...

-لماذا تربط يديك بمنديل؟ يوجد دم كثير في قميصك.

-نعم يا رامايو. كنت أريد أن أطلب منك الضمادات التي تبقت لديك بعدما أجريت عملية إزالة اللجام.

- نعم. ماذا بك؟

كان مانويل تُور يتحدث باندفاع، مثل لوح خشبي ينزلق على منحدر. مثل كمية كبيرة الماء بينما تهبط عليّ في شارع منحدر.

-إن كان ممكنًا أن تفهم يا رامايو، أن هذا الدم هو التعبير عن أبدية الأب وعن ضغط ابنه على الأرض. ومهما بدا تناقضًا مرعبًا، فإن الخطايا هي التعبير عن عزلة الشيطان. وكما أن الدم في يدي وقميصي هو هبةٌ من الرب، فإن الخطيئة هبةٌ من الأمير المنبوذ لهذا العالم. كُره الشيطان، سخريته، برودته البالغة، يمنحون النشوة للإنسان. يصلُ الإنسان إلى درجة عالية من الكمال في التصوف الشيطاني، إلى هبةٍ كاملة لإرادته، تتيح له إمكانية معرفة غضب الرب بينما يُنجب خطاياه كأنما يُنجب أبناء بلهاء. لهذا السبب، فإن رؤيا القديسين ليست نعمة، وإنما النعمة في الألم الهائل لدى الحفر بمثابرة في الشر حتى العثور على المكان الذي توجد به الإمكانات الإلهية للبشر. إن القدسية عادةً هي أمرٌ بالحب العميق. لكن بعد الخطيئة الأولى، فإنها مقاومة الرائحة الوحشية

للشر، معانقة الشيطان حُبًّا في الرب، هذا إن لم يكن حُب الرَّب خدعة كئيبة مثل الجحيم، الذي ننظر له فوق رؤوسنا كأنه مرآة لا تعكس أي شيء سوى عناقنا الشرير لأمير هذا العالم. حينئذ يصبح جحيمنا هو حب الرب، ويصبح لكلمات المسيح على الصليب معنى رهيب: «أبي، لماذا هجرتني؟» لأن الصليب محاط بالدم والأحجار، وحيدٌ وخالٍ من هؤلاء الذين لشعورهم بحب الرب، ولاعتقادهم أن وقوفهم أمام الصليب يشبه الوقوف أمام مُعلم داخلي، فيعانون من ألم عميق للغاية بسبب اليأس المرير لمن يُسلم ابن الإنسان داخل المرآة.

رفع مانويل تُور رأسه، ووقعت عيناه، عبر النافذة، على المساء الشاحب في أشجار الزيتون والأراضي المرهقة الحمراء، وعلى بقع الخضرة، والقرى الحجرية ذات الأسقف الحمراء والسوداء. أنزل مانويل تُور عينيه مرة أخرى وكأن النور يصدم غموضه الجياش. كان وجه مانويل تُور شاحبًا ومتيبسًا. لم يكن وجهه يشبه الصور المسالمة للقديسين الذين يشيدون حياةً رائعة مثل قمم الأشجار. كان وجه مانويل تُور يشبه جذرًا. كوجه من ينزعون رؤيا المسيح عمدًا لكي يصبحوا شهودًا، ليس أمام العالم، وإنما أمام الرب. كان تعبير مانويل تُور يشبه من يعانون غواية الرب، بقدرٍ ليس أكثر من قواهم، لكن أكثر من حبهم. لأن الرؤيا، التي يخرجها هؤلاء البشر من شخوصهم، مصوغة من حبهم، من حبهم للرب والذي يوجد داخلهم، من حبهم للشر، من الحب الساحر للشيطان، بحيث إن الرب فقط يعرف إلى أي درجة مأساوية يصل مجده.

وفي مرآة الحمام ينعكس كل العصر، فسيحًا، دائريًّا، أخضر، وفضيًّا.

-هل هذا هو السر الذي...؟

-السر هو الحكاية السرية للإنسان على الصليب وللشيطان، واللذين يظهران دائمًا، أحدهما بسبب الآخر، في النفق المعتم لأحد البشر. أصواته، عندما ترتطم بسقف النفق المقوس، تتحول إلى ذلك الصدى الرهيب، إنه الخوف من الأرض. القول إن البشر يشعرون بالخوف لا يعني إلا أننا نمتلك الرب ووحدة الشيطان في حيواتنا. نحن البشر نعطي الربَ بعضنا بعضًا. نحن البشر نعطي الشيطان بعضنا بعضًا. نعطي الرب والشيطان، مغموسين في مادتنا لدرجة أن شخصًا خاطئًا واحدًا يحمل داخل كله مملكة الشيطان وسخريته، كما يحمل شخص خاطئ واحد موت المسيح، المُستطال عمدًا بواسطة أمير هذا العالم لكي يتجاوز جزئيًّا فشل دم المسيح. ونعطي بعضنا بعضًا الربَ مغموسًا في مادتنا حتى يصبح القديس سرًّا مقدسًا اجتماعيًّا للتناول، لأن المسيح موجود في القديس، ويذهب إلى الرب.

كان الدم على قميص مانويل تُور يميل إلى اللون الأسود. كلن وجه مانويل تُور أبيض مثل جير الحائط. قال:

- إن أمكنك تأمل وحدة كل الأشياء، والماضي والحاضر في هذا العالم وكل المناديل المبللة بالدماء! إنها ماضٍ وحاضر ضئيلان

مصغران مثل ميدان أخضر ومائل للسواد في عاصمة إقليمية، مثل زقاق، مثل طريق حجري، منحدر وقصير، مثل العذاب.

كان جلد مانويل تُور رماديًّا، احتضاريًّا.

- كأنما توقفت عن العيش، أتأملُ بيت جدي أجوستي تُور، بيتٌ كبير، بارد ونظيف. الزهور الوردية على المائدة. العنصر البشري الوحيد في تلك الصحراء. في ذلك البيت، ذات مساء، وقع أجوستي تُور في الخطيئة مع الخادمة السوداء، في القبو، بين أكوام الفحم. أرى أجوستي تُور بينما يضع ركبته على صدر ابنه، ويضغط على عنقه بكلتا يديه، بينما تميل الخادمة برأسها إلى جانب، وتضع إصبعًا في كل أذن لكي لا تسمع حشرجات العم جوان، الذي لم يكن قد وصل بعد إلى سن التجنيد بعد. والعمة إلفيرا، التي كانت تجرجر أمها في المطبخ لأن العنوسة كانت تقتلها، والعمة أوتيليا، التي كانت ترسم بإصبع روج على الجزء السفلي من شبكة غرفة الاعتراف لكي يشير أهل القرية بأصابعهم إلى قسس الكنيسة. أراهم جميعًا يرتطمون بوجوههم، بينما يرتسم دهليز جهنم على هذه الوجوه، في السور القديم المبلل بالذنوب في القرى، والذي يكون ممتلئًا أيضًا برقة رطبة لمن يرتكبون الخطيئة بحزن، خلسة، كأن الخطيئة تنقلهم خلال لحظة خارج حدود القرية.

ضغط مانويل تُور على أسنانه. مرَّر لسانه بشفتيه، كان مانويل تُور يتحدث كأنه ينزف. قال:

– في انحناء كتفيّ، في قامتي القصيرة، في بريق عينيَّ، أحمل التعبير الصلد لعمل الشيطان في عائلتي. أراهم جميعًا داخلي، مثل الوحل القذر المائل للخضرة بعد عاصفةٍ، هذا الوحل الذي يخرجه الأطفال بعصي ويرفعونه في الهواء كحيوان ميت...

«بين هذه القذارة الثابتة، والتي لم تكن الحياة وإنما السخرية منها، فوق هذا التقزز الشيطاني، مُنحتَ كل ما ترى بين يديَّ وعن جانبيَّ. هذا الاتحاد الكبير! هذا الاتحاد المتقد يا رامايو! الشيطان مع الدم فاتح اللون في يديَّ، كل رموز ويأس الشيطان تحت وصمات العار، كأن هناك بين أمير هذا العالم وبيني، يوجد تأثير لكلمات المسيح: «إن اجتمع شخصان أو ثلاثة باسمي، سأكون بينهم». لأن أمير هذا العالم، مع مرارة إدراك أن الكُره هو حب الشر، يقوم بتأمل تجسد المسيح بين البشر. وبطريقة مأساوية ويائسة، يرى أنه، كما ماريا دي بيتانيا، اختار الجزء الأفضل للأبد».

صمتَ مانويل تُور. في صمت غرفتي بدا وكأن مرآة الحمام والفراش والمقعدين المطليين باللون الأبيض، قد عادوا للخروج من الأعماق، عندما صمتَ مانويل تُور، تذكرتُ رقم حذائي.

15

أندريو رامايو

رامايو!!

ضوءُ حجرتي ورديُّ اللون. وأشجار الزيتون وردية اللون في مرآة الحمام. أشجار الصنوبر الخضراء المعتمة، التي لا يمكن رؤيتها من العنبر، والتي توجد بجوار المشرحة، يصل عطرُها حتى النافذة. السماء صافية، مشدودة، مثمرة. كان السهل المحيط بالمصحة أخضر تحت صفاء السماء، خُضرة مليئة بالصحة وبالزهور الصغيرة، صفراء وبنفسجية وزرقاء وسماوية وحمراء.

ومن السهلِ، يصعد الربيعُ إلى الجبل، الذي يبدو في هذه الساعة الصافية أن قمته مشحوذة، ببروز نظيف، قاس، كامل، يفوح بالرائحة، ومعدني.

أشجار السنديان، التي بزغت فيها فروعٌ بأوراق جديدة، نحاسية ووردية، كانت ساكنة وسط هواء الجبل الرطب، وأشجار الحور، واحدة هنا وأخرى هناك، تبدو شفافة وخضراء، وتحرك أوراقها الطفولية بنعومة. الساحة الموجودة أمام مدخل المصحة (بنافورتها من الحجر الرملي، والقرميد الأحمر، في الوسط)، كانت

رطبة، مُبتهجة، بتلك البهجة الجافة التي تمتلكها رسميًّا تلك الساحات الصغيرة في الخامسة صباحًا وفي الواحدة ظهرًا، عندما يتم اكتشاف أنها ككتلة باردة حجرية عمومية تذكارية لا نفع لها.

وأمام الشرفة –وبعد الرصيف الرمادي- في حوض الزهور الطويل –بأرضه السوداء- يرتعش الهواء الأول بزهور المخملية المنفتحة وزهور الزينيا وزهور البَطُونِيَّة وزهور البكورية الطبية، والبستاني –الكوبي الصامت المنسي- يرويها بذلك الخرطوم الذي بدأ يشيخ كثعبان أسود منزلي في الربيع.

- رامايوا!

- أنا قادم!

أقفُ أمام مرآة الحمام الآن، أمام ماء الحوض، وأضمُ يديَّ وألقي الماء على وجهي لأنني يجب أن أذهب لقتل أوجيني موريل.

أمرُّ كل يوم بهذا الماء، بهذه المرآة، أجلس على المقعد المطلي باللون الأبيض لكي أرتدي بنطلوني، أخرج للشرفة (صباح الخير يا ميركادير، أهلًا يا تُور. هل مات خوستو باستُور؟)، وأشجار الزيتون وأشجار السنديان، بقع الخضرة، أشجار الزيتون التي تنبت بمفردها بجوار العنبر، كل شيء كالمعتاد، كل يوم كالمعتاد، كطريق يحملنا إلى الموت.

لكنني أقوم الآن بتجفيف وجهي لأنني يجب أن أذهب لأقتل، لأن الفوطة في يدي وأزيحها من طريق موتي، وأضعها في طريق موت

أوجيني مويل. في الخامسة صباحًا، فوط حمامي مُحملة بالذنوب.

وسأرتكب الخطايا من الحمام حتى عُنق العجوز. ستكون الخطيئة بطول ثمانية وسبعين كيلومترًا، وفيما بينها سيوجد الكثير من الحقول والكثير من أشجار الزيتون. خطيئة طويلة. سائق الترام وسائق القطار والمفتش لا يمكن أن يعرفوا مُطلقًا أنهم يثقبون تذكرة الخطيئة، أنهم يحملون قبر المسيح حتى مدينة أرجيلوس في عربات قطار وترام خشبية، تسير بالفحم المعدني وبالبخار الناتج من غلاية حديدية.

(الحياة وكل الأشياء التي تتحد على الأرض تشبه كتلًا من الصمت، أو محاجر من الصمت. كل الأشياء العميقة تشعر بالتقزز من الكلمة، كما تشعر كل الأشياء المصوغة من لحم ودم بالتقزز من الكلمة. جوهر الابتعاد هو الكلمة. الكلمة تشبه الضوء الذي ينتقل من قرية لأخرى، مثل الضوء الذي ينتقل من إنسان لإنسان، ولا يربطه أي شيء بإنقاذ البشر أو أي شعب ما. عندما يتحدث شخصان، ينتقل الضوء بينهما؛ وينتقل الهواء والرطوبة، وينتقل لقاح أشجار الصنوبر بينهما، كما تتعلق الشمس من صخرة بين هاويتين. عندما يتحدث شخصان فإنهما منفصلان تمامًا، مثل شجرتي حور في طريق ما. كلمات الحب بين شخصين من بطنين مختلفين تشبه الشمس والقمر والنجوم، تشبه الحبر والإوز البري قبل خلق الإنسان) .

دائمًا ما كنتُ شخصًا بلا جذور، رجلًا حزينًا مُتحدًا بأهل القرية،

عن طريق الحوار العابر فقط، مثل فرع شجرة مر ينتقل من عصا لأخرى في حفلات الصيف. مثل العمة دورا، المسكينة، التي لم تكن تتحدث سوى عن إمساكها المزمن، والتي كانت تسير في الشارع بطيئة ومتخشبة، كأنها تحمل حقنة شرجية من الجبس.

لكن الآن، دون كلام، بينما أقف على قدميَّ وسط هذا النور الحزين الأخضر في المباول، فأنا أغمس نفسي باتحادي مع عجوز قريتي. من هذا الاتحاد، مثل كل الأشياء التي تربط على سطح الأرض، لن تخرج كلمة واحدة. سيكون اتحادًا ديناميكيًّا، صامتًا، وسيتحدث هذا الاتحاد مع سائق عربة اللبن، مع الأفراد البطيئين في القطار، مع أبي، وأيضًا مع أمي، إن لم يُبعدها عنا عرق الينسون في حانة جوليان إسكوبار. لكن كلمة كل هذه الحوارات ستكون مثل أشجار البلوط، مثل ذكور الماعز، مثل النساء اللائي ينعكسن في نهر، مثل المسافر الذي يشعر بالخريف والشتاء، ويرى الأهوال قبل تأمل وجه الرب.

-صباح الخير يا رامايو.

- أهلًا يا ميركادير.

-لم تنم كثيرًا اليوم.

-نعم، كما ترى.

-هل أنت ذاهب إلى قريتك؟

- نعم.

-في العربة؟

-نعم، في العربة؟

جوردي ميركادير، برأسه منخفض، ويده اليسرى مستندة إلى الحائط، يتبول بكل قواه. جوردي ميركادير صامت وسعيد، مثل كل الفتيان الذين يخرجون من المدرسة في العصر برغبة لا تُقاوم في تناول وجبة العصر والتبول.

16

مانويل تُور

النافذة الأخيرة، الأبدية، اللانهائية، لغرفة رقم 13.

مساء أمس، في السابعة، ذهبت في وقت الراحة النظامي، عندما كان الجميع في الشرفة، كلٌّ واحد على تشيزلونج. طلب الأب جابرييل أن ينقلوني لغرفة رقم 13 لكي لا يرى المرضى الآخرون ندوب يدي والدم على قميصي.

لحظةَ وضعني أجوستي آلكانترا على النقالة، نظرت إلى أشجار الزيتون، إلى الأضواء الأولى في المدينة، حيث لا بدَّ أن الأطفال ذوي الوجوه الصفراء والبنطلونات الممزقة يبيعون صحف المساء.

صلَّيت طوال الليل لأنني كنت أرغب في التبول. كأنني قد دخنت ماريجوانا حتى نمت، وحلمت أن ظهري من الخشب وأن فتى يمحو عينيَّ وفمي بممحاة.

إن حبست أنفاسي، أشعر برائحته، رائحة أندريو رامايو، الذي أمسك بيدي ليريني رعبًا أراه إياه ثيفيرينو أولميدو، الفتى من

ألباثيتيه، في قريته، رائحة تشبه رائحة السائل الذي يستخدمونه في البيت لوقاية الحبوب من التعفن. كما يشبه أيضًا الرائحة التي تصدر عن نساء القرية عندما يبلغن الخامسة والأربعين من أعمارهن ويجعلهن الحزن يتخلَّين عن الخجل وعن الصابون الغالي. أندريو رامايو يرتدي ذات الملابس الداخلية طوال شهر متواصل.

أشعر برائحة ضياعي، وضياعي يجعلني أبكي مثل فتى، كما يبكي أحيانًا الفتيان العاشقون في الرابعة عشرة، والذين يحملون بلوغهم كأكليل من الشوك، كما يحمل بعض البشر ذكاءهم.

أنا أحترق. رأسي ينفتح كأنني أتلقى الذخيرة الكاملة لمدفع ماوسر. هذه المرآة، هذه المرآة، هذه المرآة.

–يا مانويل تُور، لقد وصلت إليك. كان الطريق طويلًا.

كان وجهه كالشباب الفلاحين بعد أربعين يومًا في معسكر الجيش، وجهٌ مثل النحاس اللامع، مثل النحاس المصقول بالرماد والليمون بأيادي الخادمات الريفيات الشاحبات الهزيلات.

–كان وقتًا طويلًا، لتنزع عن نفسك السلام. كما يسلخ الجزارون الثيران قبل شقها من المنتصف. لقد أحببتك حتى أمكنني الشعور بيد أندريو رامايو فوق يديك. دائمًا ما رغبت بالموت باندفاع وحمية. لكن لكي تحصل على هبة الموت باحتضار وحماس، من الضروري للغاية أن...

شعره يسقط على جبهته. وعيناه الرماديتان وسط وجهه الطويل. إنه يمتلك جسدًا طويلًا وساقين طويلتين. جسده ووجهه النحيفان كمراهقين واثقين مُكرسين للحب والموت. إنه يرتدي قميصًا أبيض، مفكوك الأزرار، خارج البنطلون، مثل الفلاحين. ومن القميص المفتوح تظهر الشعيرات الأولى الداكنة في منتصف صدره. بنطلونه، من الدريل الأزرق الشبيه بما يرتديه الميكانيكيون، يسقط حتى مبتدأ الخصر.

يجلس في الفراش، وبيديه القويتين الحديديتين، يعصر إحدى قدميَّ، وأشعر بالضغط وأرى بياض أسنانه.

-عندما كنتَ طفلًا...

-ماذا أحتاج لكي يمكنني أن أموت باحتضار يشبه الحماس؟

أمسك بطرف الملاءة وكشف عن جسدي حتى ركبتيَّ أشعرُ بخجل غريب لأن يديَّ مكشوفتان، وأيضًا بخجل غريب لشعوري بالحياء كأنني ماصخ.

-عندما كنتَ طفلًا، جعلتكَ صلبًا كما تتصلب قطعة جلد تحت الشمس. بدأتُ عندما دخلت كورس كنيسة سان خوستو. كنيسة فقيرة، مثل كل الكنائس الفقيرة، مليئة بالرتابة، مليئة بالطقوس، وبجوارها المقابر، المليئة بالأعشاب. لم تكن تُركز في كل الأشياء باستمرار. كنت تجري دائمًا في شوارع القرية، مثل كل الأطفال الذين لا يشعرون بالحرية حتى يروا الصليب الموجود في مدخل

القرية. كنت تشعر بالتأثر عندما ترى كيف ترتعش يدا القس الريفي لكنيسة سان خوستو بينما يرفع البرشان. كنتُ أشارك في هذا الارتعاش. كان القس الريفي يهزّ يديه لكي يكسر عدم الاكتراث الذي كان يشعر به بعد التناول. يا مانويل تُور، يدا القس الريفي لم تكونا ترتعشان. كان القس الريفي يجبر نفسه على هز يديه كأنه يتشبث بالإيمان من ياقته.

-ماذا أحتاج لكي يمكنني أن أموت باحتضار يشبه الحماس؟

-بعد وقت ليس بالطويل، بدأت تنتبه للدقائق التي كانت تمر بينما ذلك الرجل الشاب، الشاحب، ذو الوجه المُعذب، يركع في غرفة الاعتراف، بالستارة الأرجوانية فوق ظهره. بينما كنت تجلس على الدكة الخشبية، كنت تنظر كيف يتحرك رأسه بعنف خلف الستارة. كنتَ تعتقد أن هذا بسبب إرهاقه، لكن كان يقول لا، في قلب مملكة الرب. بعد ذلك، ذات يوم في شهر أكتوبر، في منتصف النهار، رأيته يدخل القرية، بالبندقية في يده، وظهره مغطى بالدم، بينما يجرجر قدميه إلى الكنيسة، بينما يموت. أمسك به قس كنيسة سان خوستو، وقاده إلى ركن في الميدان الصغير، تحت نظرة الجميع. كان يسمعه في الركن، دون أن يرفع يده عن جبهته. ذلك المساء. كان في ذلك المساء. على إحدى ضفاف ذلك المساء، قمتَ أنت...

لا تنبش في الماضي، لا تقل إنك دخلت حياتي كذَكَرٍ. في الحقيقة لقد سلبتني كل التواضع وكل الحاجة لكي أكون حقيقيًّا. لماذا

أعطيتني هذه القدرة على الإهانة كأنك تعطيني دمًا؟ هذه القدرة على قبول كل شيء بتلقائية غريبة وساحرة ولا جذور لها؟ لماذا جعلتني فظًّا وسطحيًّا وفقيرًا للغاية لدرجة أن غيابي عن الحياة المليئة بالزخم أصبح بلا نهاية؟

كان يضغط على إبهام قدمي وينظر لي بشفافية، بنظرة مباشرة ومستسلمة. مرَّر يده على شعر الصدر وضغط على شفتيه الرفيعتين حتى أصبح الخطان الأحمران مرئيين. كان إبطاه يعرقان ويبللان القميص الأبيض. هذه المرآة، هذه المرآة، هذه المرآة.

- لأن الذكاء يؤذيك. لا تفهم إلى أي درجة يكون الإنسان هو الإنسان، وتعتقد أن المشاعر تفرق البشر وتضع بينهم مميزات جوهرية. لا.

يهز رأسه ببطء وتكرار. دون أن يحركَ عينيه. هو.

-لا. إن عرفتَ كل الارتباط يا مانويل تُور. لقد تأثرتَ بينما تقرأ تحول كلوديل، هائل، رائع ومهرج، بينما يستند إلى عمود في نوتردام، ليلة عيد الميلاد، بين الحشود المتأثرة بالموسيقى وضوء تلك الليلة. لا. إن كنت تعرف المغامرة، الحبكة، ما وراء الحكاية، حيث إن الحقيقة ليست سوى أن الذنب قادر على جعل الرب يكشف عن نفسه.

كان يتحدث بينما يبدو عليه الإرهاق، مثل فلاح بعدما اغتسل في المساء. كان يجتهد لكي لا يكون لطيفًا. مثل الفلاحين، مثل الخدم

الريفيين متيني البينان والجميلين، والذين يخدمون المائدة بينما يرتدون ملابس سائق ويشعرون بسخرية لا نهائية من سادتهم العجائز، الشهوانيين، النبلاء والمتجبرين.

-هذه هي الأشياء التي كنت أريد قولها في الحديقة، عندما تحدثت مع هذين المراهقين وقلت لهما: إن أكلتما من هذه الثمرة، ستعرفان ما يعرف. كنتُ أريد أن أقول إن ارتكاب الخطيئة هو الطريقة الوحيدة فقط لجعل الرب يكشف عن نفسه، ليكشف عن أنه كان رحمةً، أنه كان يحب البشر حتى موت شخصه الثاني، الكشف عن أنه كان يحب البشر حتى الامتزاج بالروح القدس، حتى إدخال الأرض في حشايا الأب. لم أغوِ هذين المراهقين، جعلتُ الرب يكشف عن حبه. الفتيان، اللذان بدآ يمتلكان بطنًا مزهرًا، وقعا في الخطيئة وأمكنهما التأمل، هما كانا يعرفان فقط الرب الذي يأمر، وطاعة الرب حتى الموت والموت على الصليب.

إنه صامت الآن، يبدو أنهم قد فتحوا النافذة وأن المرء يدرك الشهر الجاري عن طريق الهواء الذي يلمس وجهه.

- ماذا أحتاج لكي أموت باحتضار يشبه الحماس؟ أنا لم أخرج مُطلقًا من الأبواب الطبيعية. عندما كنتُ طفلًا، لم أكن أخرجُ من بيتي من الباب المطل على الشارع، باب الذهاب إلى المدرسة، الذهاب إلى البحر، باب الخروج للتشاجر مع أطفال القرية، وإنما كنت أخرج من باب الحظيرة، الذي كان يُفضي إلى حقل صغير مليء بالزجاج المكسور، الأشواك المليئة بالنمل، الكلاب المنتفخة

تحت عيون الذباب الأخضر. بأي احتضار يجب أن أخرج لكي أموت كحماس؟

نهضَ. رفع بنطلونه إلى خصره. بعد ذلك، ربتَ بأصابعه بسرعة بين ساقيه. كان واقفًا أمامي، بساقيه مفتوحتين وقال:

-كارمن أوناندیا في غرفتها، فوق الجراج. تغسل الصحون، صحونها وصحون أجوستي آلكانترا. المريلة فوق حوض المطبخ، مبتلة. بينما تمر بالسلك الألومنيوم على الأطباق الحمراء، تغمغم بتقززها من زوجها الفظ اللزج، كأنها تعلك قطعة من اللبان. لا توجد حياة زوجية بين أجوستي آلكانترا وبينها. بدأت كارمن تشعر بالنفور. بعد ذلك أصبحت الالتهابات الجلدية تغطيها. الدهان الدائم بالمرهم يزيد من سرعة غضبها ومن تقززها. بينما يكون وجه أجوستي آلكانترا غائصًا في شعر كارمن أوناندیا، كثيرًا ما شعرت كارمن بالرغبة في غرس المقص في ظهره. أجوستي آلكانترا وكارمن أوناندیا لم ينجبا أبناء. يأكلان في صمت، متواجهين، بفرع صنوبر في وسط المائدة، لكي لا تلتقي أعينهما. كارمن أوناندیا تمتلك إنجيلًا في مسكنها الخاص الحالي. بإشارات في مقاطع محددة. في هذا المساء كان سكين تقشير الفواكه في مقطع نيقوديموس. وفي الليل تقرأ حتى وقت متأخر بعد سماعها لدخول أجوستي آلكانترا، برأسها والكتاب تحت المصباح ذي العمود المرن، أمام النظرة الشفافة لدينيس، كلبها، الذي ينظر لها بصبر، بالنظرة المتفهمة بين أخين كبيرين. ستأتي كارمن أوناندیا.

هنا. هذا المساء، بعد الغداء، ستدخل غرفة رقم 13.

سيدير وجهه إلى الحائط، سيفتح الحزام، ويفك أزرار البنطلون، ويمد ظهره إلى الخلف، ويرتدي القميص. لكي يعود لربط أزراره بيدٍ واحدة، اليد أخرى على خصره. يدير وجهه نحوي، بينما يربط الحزام، ويشده نحو اليسار بمقدار ثقبين.

يمدُّ رأسه إلى الأمام ويمرر يده بسرعة على تفاحة آدم. يقول:

- بعد ذلك، بعد قليل، سأرسل لك أندريو رامايو مرة أخرى لكي يملأك تمامًا باليأس، وهكذا عندما ينتهي ما حدث، يمكنه أن يتركك في حالة تخمر حماسي، هذه الكلمة البذيئة، ذات الجذر القذر مثل البق الذي لا يدع جنود البحرية ينامون ليلًا. في أحيان كثيرة أشعر بالشفقة على هزالكم، بؤساء وأعصابكم في حالة خمول كالخضروات، في حالة رخوة كخيار البحر. يشعر المرء بالألم بسبب عجزكم وانهياركم ويأسكم السائل مثل بطون من بدلوا أسماءهم. تسيرون بظهور محنية، تجرجرون أقدامكم بأفواهكم مليئة بالرغوة، بسبب الجفاف، بأصابع أيديكم طويلة بشكل مفرط، تغتسلون ألف مرة لكنكم تتسخون ألف مرة مثل أقدام الدجاج. دائمًا ما أراكم مثل السكارى في الرابعة صباحًا، الذين قد يتنازلون عن نصف ثرواتهم لمن يزيح امرأة من طريقهم كمن يخلع جلد أرنبٍ في حظيرة. إنها نظافتكم، إنها نظافة العالم، هي ما يمنح الحياة هذا الحزن العبثي المؤلم. لأنكم هذا الحنق، هذا الجنون في الروح. إنه عرقي الملتصق بوقتكم وبأبديتكم. إنكم لا

تسمعونني عندما يلتهمكم الضجر. تشعرون بنظافتكم. تختبرون القلب النقي لبراءتكم المغموسة في سلام يشبه الزيت القذر. أحيانًا، بالقضاء عليَّ تقبضون على الخلاص، لأنَّ جوهركم يصل لأن يكون رغبة في العواصف العاتية، في الجوع المُطهر للوسم بالنار مثلما تتلقى أعماق البحر وسم النظافة. لكن ها هنا سلامي. فوقكم. مثل الملاءة التي يلقونها فوق المرضى في المستشفيات قبل خمس دقائق من موتهم. لا يمكن لأي شخص أن يسلبكم إياه إن لم يكن عبر طريق الألم الكامل: هذا الفقر.

يُمسك بطرف الملاءة ويلقيها عليَّ. يغطيني حتى العنق. والآن، بيديَّ تحت الملاءة، أشعر بالخجل: هذا الوخز الذي يسببه العجز. يُخرج من جيبه قبعةً بحاجز للشمس. يخرجُ، يحييني بيده بينما يقوس حاجبيه. بعد ذلك، يترك الباب مُغلقًا، والمقبض المغطى بالنيكل يلمع مثل مقود دراجة أجوستي آلكانترا، الذي يصل الآن، وسط نافذتي، ويُنزل صندوقًا خشبيًّا، ومن طرف غطائه تُطلُّ بضع أوراق خضراء.

17

أندريو رايمايو

الحقيبة الخشبية، مثل حقائب الجنود. ما زال هناك عام على أدائي الخدمة العسكرية. سأحمل هذه الحقيبة ذاتها في مكتب التجنيد والمعسكر وعربة الدرجة الثالثة في القطار، عندما أحصل على تصريح لزيارة قريتي. الحقيبة من الخشب، وأفكر الآن: ماجدالينا رامايو.

كانت في وسط النافذة، بقميص النوم متجعدًا، والوجه شاحب، كأنها تريد أن تقول الكثير من الأشياء بتحريك يدها.

ماجدالينا رامايو هي أختي، وهي في غرفة رقم 12 بعنبر النساء. أجروا لها عملية ترميم لتسعة ضلوع في الجانب الأيسر. رئتها اليمني تعاني من رشح. ورقة بياناتها تحتوي على علامتين حمراوين أيضًا. ماجدالينا رامايو لا تُرسل صورًا للبيت مُطلقًا لأن وزنها 39 كيلوجرامًا. ترسل أطقمًا للمائدة، أطقم شاي، تنظر لها أمي بشرود عندما لا تكون مترعة بعرق الينسيون من حانة جوليان إسكوبار، كما تنظر العائلة للساعة أحيانًا، وأيضًا لقلادة

الصدر وحافظة الابن الذي كان نافخ بوق أو في الكانتين ومات في الجبهة، لا أحد يعرف إن كان قد مات في الصباح أو في المساء.

لم تكن هناك ضرورة لكي تقف في وسط النافذة. قلتُ: لم تكن هناك ضرورة لكي تقف في وسط النافذة. الخصاص الأخضر المغبر والنافذة وهي ذاتها وفراشها، دخلوا في طريق موت عجوز القرية. كما دخلت فترة تقاسمي الفراش مع أختي في طريق موت العجوز. في تلك الغرفة التي لا تمتلك بابًا أو نافذة، لأننا لم نكن نمتلك سوى فراش واحد، ولأننا لم نكن نمتلك بطانيات سوى لفراش واحد. كنا نتغطى بالبنطلونات القديمة وبمعطف أبي. بعد ذلك، عندما تغير صوتي، جعلوني أنام فوق بضعة جوالات من القش، في أحد أركان المطبخ، وكنت أشعر بالحزن عندما أفكر أنهم جعلوني أنام بمفردي لأن ساقيَّ قد أصبحتا طويلتين للغاية، كأنني أصبحت فتى سيئًا للأبد.

عربة اللبن تمرُّ في السادسة. سأركب في صندوق العربة. تبقت ثلاث دقائق وها أنا أسمع المحرك، وراء أشجار السنديان الحمراء. أنتظر على حافة الطريق، الحقيبة على الأرض، رائحة كريم الحلاقة في وجهي، والخوف في القلب كنذير شؤم، مثل ميت مُغطى ببطانية.

طريق موت السيد أوجيني موريل به خُضرة صلبة للغاية. طريق موت السيد أوجيني موريل به أشجار سنديان على الجانبين. الأرض الموجودة تحت قمم أشجار السنديان بلون بنفسجي

ووردي لأن هناك زهور خنج اسكتلندي بنفسجية ووردية. بين الفروع الداكنة لأشجار السنديان، تمر أعمدة التلغراف، أسلاك التليفون، كابلات محطة الكهرباء. الأعمدة من خشب الصنوبر بعوازل بيضاء، واحد، اثنان، ثلاثة، أربعة. حتى قرية أرجيلوس، توجد حقول وحيوانات وظلال وبشرٌ يتغيرون بعذوبة، دون أن ينتبه أحد، لكن أعمدة الكهرباء بالعوازل البيضاء ستكون كالعادة دائمًا في مدخل قريتي. الأعمدة السوداء. العوازل البيضاء. الأسلاك الرمادية. الأعمدة السوداء. العوازل البيضاء. الأسلاك الرمادية.

تظهر العربة على المنحدر. الكابينة حمراء. أرفع ذراعي اليسرى وأشير لكي يتوقف. تقلل العربة سرعتها، وتصبح الكابينة أكثر حمرةً. بدا أن الزجاج الأمامي يضيء مع اقتراب العربة. ظهر جوان خلف الزجاج، بلحيته التي لم يحلقها منذ ثلاثة أيام، ويداه الضخمتان على المقود. وبجواره كان الصبي ذو الشعر جيد التصفيف والوجه الشاحب، غير المغسول. كان صبي جوان سامون مراهقًا، نحيفًا وطويل القامة وحزينًا مثل أبناء الباعة المتجولين.

كبحت العربة ثم توقفت. استمر صبي جوان سامون بنظرته ثابته على الزجاج، كأنه يفكر في أمور حياته. أطل السائق عبر نافذة العربة المفتوحة.

– حتى المحطة؟

- نعم. حتى المحطة؟

الحقيبة من الخشب. مثل حقائب الجنود. أضع الحقيبة في صندوق العربة. وبيدي اليُمنى أُمسك سلسلة الباب القلَّاب. أضع قدمي اليُمنى على مصد الصدمات المليء بالوحل، وأدفع بالقدم الأخرى لأصعد إلى الصندوق. أُبعد الحقيبة إلى جانب بقدمي. أصيحُ:

-هيا بنا.

تنطلق العربة، وأنا أسافر بمفردي في الصندوق، جالسًا فوق الحقيبة الخشبية، كحقائب الجنود.

لم تكن شفتي السفلى بارزة مثل الرجال الصلدين، المتمردين، من ذوي العزم. لكنني، الآن، وبمفردي، أضغط على فكي لكي يبدو على شفتي السفلى تعبير بالتركيز والصلابة، كأنما ينظر لي عامل نقابي في مصنع، وأنا -في مواجهته- أشعر بالخجل من هيئتي كفتى مُدلل من زمن الرومانسية.

كانت أرضية الصندوق متسخة بالسماد العضوي والأسمنت الملتصق بالخشب. أعدُّ قسوط اللبن. تسعة قسوط. إنها من الزنك المسود. كل القسوط تحمل حروفًا باللون الأحمر. كلها حروف كبيرة. أحد القسوط يحمل الحروف باللون الأبيض: M-O-M، وكانت مرسومة بإتقان. كأنها حروف وزارة الأشغال العمومية.

كانت حُفر الطريق تجعل العربة تتقافز، وكان اللبن يسيل من

أحد القسوط لأنه لم يكن مُحكم الغلق. كان اللبن يسيل على الزنك المسود، على الحروف الكبيرة. كان هواء الصباح وسرعة العربة يُحيلان وجهي أحمر. مررنا أمام حقل به زهور صفراء. كان هناك فتى بشعر جيد التمشيط بجوار أحد الأسوار، وأشار مودعًا بيده. كان يحمل حقيبة الكتب في يده الأخرى. مررنا أمام مزرعة لأشجار الحور، أشجار حور شابة، رفيعة، أنيقة، مُنتظمة في ترتيب مدرسي تقريبًا. يشعر المرء برقة لانهائية أمام هذه الأشجار التي لا تنتمي للريف ولا تنتمي للسماء، وإنما لتجارة أشجار الحور. بين حقلين مبذورين، بلون أخضر ناصع، دون زهور شقائق النعمان، كان هناك حقل صغير، مهجور، به أشواك بنفسجية وصفراء، للفجل البري الذي تهتز زهوره في هواء الصباح الرطب. قطعة من الأرض الحمراء المحروثة. أنظرُ لحقل برسيم، بالزهور الزرقاء، المرئية من العربة، وتوقف رجلٌ عن العمل عندما مررنا، بيده إلى جانبه ونظرته في الهواء، وكلب مُبقع يحرك ذيله باستمرار، يمر مرة تلو الأخرى بين ساقيه. كان هناك راكب دراجة عجوز، ذقنه غير محلوقة، بقميص أزرق، والبنطلون الأسود المملوء بالجير، يستنشق الهواء برأسه مرفوع. راكب دراجة آخر، مراهق، بفرق لامع في الشعر، وجهه شاحب، غريب، مثل وجوه المراهقين الذين يرتكبون الخطيئة. تهدئ العربة من سرعتها. تكبح. تتوقف. يوجد قسط لبن على حافة الطريق، وكان به حرف L أصفر. يهبط الصبي. يضعه في الصندوق، ويدفعه بيديه حتى آخر العربة، حيث توجد القسوط الأخرى. لم أقل له أي شيء. لم يقل لي أي شيء، وفي سلام.

تنطلق العربة وتتجه في خط مستقيم، حيث يوجد على يسار الطريق حقل ذرة، وكان زاهي الخضرة. وعلى اليمين مرجٌ بأعشاب عالية، ممتلئ بزهور صفراء: نصف المرج محصود، وفي أماكن متفرقة توجد زهور بنفسجية، بضع شقائق نعمان حية، حمراء، ببذرة سوداء، يمكن رؤيتها من العربة. يوجد بيت كبير وقديم على حافة الطريق، وفي طابقه الأول توجد بضعة أقواس مستديرة من القرميد الأحمر. وأمام واجهة البيت، تنهض شجرة ليلك نضرة، عالية، مزهرة، واثقة مثل شخص، وكانت محاطة بسياج حجري. توجد ساعة رملية على الواجهة. كانت الأرقام والخطوط باللون الأخضر. وكانت هناك قطعة خزفية مدورة فوق أحجار البوابة، كانت بها حروف، لكنني لا أعرف ماذا كانت تعني، وكانت بها زهور زرقاء وصفراء كبيرة، مثل تلك الموجودة في الأواني والصحون المصنوعة من الفخار المحروق، بل إن بعض المباول تُزخرف بزهرة واحدة كبيرة.

توقفت العربة أمام مدخل به عمودان وحاجز أخضر. وفي النهاية يوجد طريق مُبلط، وعلى كل جانب توجد شجرة سرو، شجرة عرعار فواح، شجرة صفصاف بابلي، ثم شجرة سرو، شجرة عرعار فواح، شجرة صفصاف بابلي كما كانت هناك شجيرة من زهور الغرنوقي الحمراء. كان هناك رجلٌ يبدو في الثالثة والعشرين من عمره أمام الحاجز. وضع ثلاثة قسوط لبن في الصندوق. وبعد ذلك صعد. بقفزة سريعة، خاطفة. مثل الجراد.

-هيا بنا.

تنطلق السيارة، والآن، بين رائحة الحقول، يمكن شم رائحة وقود المحرك. ولا أعرف لماذا كانت هذه الرائحة تجعلني أفرد صدري بتفوق رجل يعيش حياة المغامرة. بعد ذلك أفكر أنني جالس فوق حقيبة خشبية، وأنني أسافر في صندوق شاحنة، وأعود للانكماش، يداي بين ساقي، بقلبي منقبض، بحزن يشبه نقطة الخل. حقلٌ من الفجل البري، كلها مزهرة، تغطيه الشمس.

-صباح الخير.

-صباح الخير.

-هل أنت ذاهب للمحطة؟

-نعم. إلى المحطة.

- أنا أيضًا.

كانت هناك امرأة شابة، شعرها منكوش، في حقل من الكرنب المدور، الأزرق الداكن. وكان يبدو أن المرأة في الشهر السادس أو السابع من الحمل، مدت صدرها لترى العربة أثناء مرورها ولكي تستريح... أُفكر: امرأة حامل، في حقل، تبدو ثمرة الأرض، مثل القرع، مثل البطيخ، كثمرة غريبة. كان هناك صف من أشجار الحور، خضراء، أنيقة، تملؤها الرعشة.

-سنسافر معًا.

- نعم.

-أنا أسافر في الدرجة الثالثة دائمًا. ربما كنت ممن لا يسافرون في الدرجة الثالثة.

-نعم، أنا أيضًا.

-هل أنت ذاهب للخدمة العسكرية؟

-لا.

-كنت أقول هذا بسبب الحقيبة الخشبية. كل الجنود يمتلكون حقيبة خشبية.

- لم تحن دفعتي بعد.

-آه!

كان هناك أربعة رجال، يرتدون بنطلونات من القطيفة السوداء، وكانوا يسيرون في الاتجاه المعاكس للعربة. كانوا يسيرون دون كلام. كانوا يحملون قُففًا مُعلقة من أعناقهم. وكانوا يحملون أيضًا مطارق وأزاميل في أيديهم. إنهم الرجال الذين يقطعون أحجار الطريق. يعملون في المحجر المجاور للمصحة. اثنان من مدينة آبيلا.

-ما اسمك؟

-أنا، أندريو رامايو.

–أنا مارتي روفيرا. الكولونيل يُطلق عليَّ روفيرا. كنتُ مساعدًا للكولونيل.

تظهر المحطة المبنية من الطوب الأحمر بين الأشجار الخضراء وأعمدة التلغراف. قللت العربة من سرعتها، ووقفت لأنزل. قفزت إلى الأرض. أخذت الحقيبة. ودخلت.

صالة الانتظار خاوية ومليئة بحزن لا نهائي. مثل كل الصالات التي تعمل بتوقيت ونظام: هذه الأقمصة المدنية المقيدة للحركة، مثل أقمصة المجانين، لكي لا ينفجروا حزنًا. (الحياة مفزعة مثل الدم. الناس تقول: الدم مفزع.

لأنهم يعيشون بينما يهرقون الكلمات، بعيدًا عن الحياة، ويفزعون من الدم كأنه قادم من عالم آخر. الكلمات الأرجوانية ليست من لحمنا أو دمنا. إنها لا تفيد البشر إلا لإيقاف الرعب الذي لا إصلاح له في الأرض، كما يفعل أهل الريف عندما يضعون حفنة من التراب فوق الثقب الذي أصابتهم به رصاصة من بندقية مجهولة، ويدفعون التراب بأيديهم، بينما ينتظرون أن يذهب لإنهاضهم شخص ما يجب أن يموت بجرح شبيه أو مختلف).

أرض صالة الانتظار من أسمنت بورتلاند، مترعة بالغبار، مترعة بأعقاب السجائر المُدخنة حتى نهايتها، والمُلقاة تحت المقاعد. الجدران مطلية برسم باهت وقذر، يُجسد فروعًا بها ثلاث ثمرات برتقال وخطوط خضراء وسوداء وبنية، تغطيها الرطوبة التي

يبدو أنها تصدر عن الناس أكثر مما تصدر عن الجدران.

أُنظفُ بقعة لبن على الحقيبة بورقة صحيفة. الحقيبة من خشب الصنوبر، ومصبوغة باللون البندقي. وفقدت صبغتها في المكان الذي فركته بقوة بورقة الصحيفة. تبقت بقعة شاحبة. أخرج لألقي الورقة المبتلة الممزقة.

تهيمن العزلة على السكة السوداء والفلنكات المغموسة في الفحم والزيت. يمكن الشعور بتلك الرائحة الشبيهة في كل محطات القطار: هذه الرائحة النفاذة للزيت والصنوبر والدخان والفحم المعدني والماشية المحبوسة.

مخزن الخشب في مواجهتي، بالأبواب الدوارة المفتوحة. تملؤه الشمس. وفي نهايته يمكن رؤية أكوام الجذوع الحزينة ذات الروائح الفواحة. جذوع صنوبر، جذوع سنديان، جذوع شجر مُران. جذعٌ فوق الآخر مثل أكوام من البشر العراة.

عدتُ للدخول إلى قاعة الانتظار. عندما وضعت قدمي فوق البوابة الجرانيتية، رأيت أنني ما زلت أحمل في يدي قطعة الصحيفة التي نظفت بها بقعة اللبن على الحقيبة. ألقيها على السكة وأدخل.

هناك راهبتان وطفلان يحملان حقيبة المدرسة، فرق الشعر لامع، والحذاء مليء بالوحل، كانوا أمام شبك التذاكر. الرجل الذي يبيع التذاكر قصير القامة، بدين، لحيته حمراء، معدنية، وكان يرتدي واقيًا من الغبار من قماش الدريل وقبعة عارقة الحواف،

رمادية، حزينة، بحروف معدنية مذهبة.

- تذكرة درجة ثالثة. حتى أرجيلوس.

- أربعة عشر وربع.

أخرجت كيس النقود من البنطلون. أحمل النقود دون عدها. أضع النقود فوق خشب شباك التذاكر. بدا لي أن طفلاً يصرخ بالقرب من بوابة المحطة، وكانت هذه هي حشرجة التهابي الرئوي، الذي كان يصيبني بضيق في التنفس في الربيع من كل عام.

18

مانويل تُور

يسقط النور عموديًّا، مثل سكين، على سطح عنبر المرضات. حافة السور المحيط بالمصحة تلمع تحت البريق اللاذع، المتكلس. لا بدَّ أن السور الأسمنتي يحرق مثل قطعة من الحديد. الأحجار بين الأعشاب الجافة بيضاء مثل الأحجار الجيرية. وعلى الجانب الآخر من السور، يوجد التل العاري حيث يوجد كشك الحرس المدني. تحترق أحجاره الجيرية تحت شمس الساعة الثانية ظهرًا. الشجيرات الرمادية تبدو مائلة للصفرة تحت الصخور التي تشبه رمادًا ساخنًا. وخلف كشك الحرس المدني، يوجد حوض لنبات الكنباث السبخي فوق زهور قريضة جافة. وفي الخلفية ينهض تل أسود مثل مطاط عجلة سيارة. وشجرة نخيل عريضة، متوسطة الارتفاع، فروعها ساكنة وسط الهواء الخانق والميت في منتصف النهار. وعلى مستوى الفروع الأكثر خضرة، توجد بضع أشجار لوز شاحبة، قصيرة ومغبرة، وتزيد من وطأة رتابة الحقل الممتد، ذي الأرض الحمراء، المحاط بأسوار من الأحجار الجافة، المغطاة بعليقٍ ذي جذوع أرجوانية وممتلئة بالزهور.

أُدير رأسي إلى الجانب الآخر. كانت الوسادة رطبة وملابسي الداخلية مبتلة وملتصقة بالجلد. وعلى الكومودينو، يوجد صحن حجري، مليءٌ بأمبولات ترومبيل الفارغة، اللامعة كما يجب أن يلمع السلك الشائك لمعسكر اعتقال في منتصف النهار.

الجدار مطلي بجير أبيض، يغشي البصر، رتيب. نتوءات كتل الجير غير المستوية تكسر استواء السطح بحدة. وفي الجزء السفلي من كل كتلة صغيرة، يوجد نور رمادي خفيف للغاية، ويخلق إضاءة جافة مثل الطحالب. وفي الأعلى، في زاوية، يكشف ثقب أسود عن أنبوبين في التركيبات. وفوقه، في السقف، كان الجير أخضر وبنفسجيًّا ورماديًا، مثل غبار الطريق. كان السقف مُتحدًا بإطار الباب عن طريق بقعة من الرطوبة، والتي كانت طويلة مثل سحابة على هيئة صليب. فقد الباب بريقه لأن الضوء يأتي من الجانب. وتدخل كارمن أونايندِيا.

أرفعُ يدي قليلًا لأحييها.

- كيف حالك يا فتى؟

- السُّل يتقدم كما ترين.

- لماذا تحيط يديك بضمادات يا مانويل؟

أبتسمُ. الحرُّ يسقط في دوائر، ويتدحرج مثل حجر لا يتوقف عن السقوط، أطلقه فتى مُبتهج بنبلته. تيار هواء بارد يخترقُ فُمَّ معدتي. كأنني تلقيت لكمة يُمنى هائلة من قفاز ملاكم.

– لماذا أتيت يا كارمن؟

كانت واقفة على قدميها وتحرك يديها، يديها الطويلتين النحيفتين، بأصابعها المُغطاة بالنيكوتين.

– أتيت لكي لا تكون بمفردك. الساعات الوحيدة التي يمكنني فيها...

يبدو أنها على وشك البكاء، وكأن البكاء كالمد والجزر، يصعد ويهبط بتفاحة آدم.

– شكرًا جزيلًا... أنت لا تعرفين كيف...

أرفع يدي. فعلتُ هذا لأمسك بيدها. أسحبها. أنا أومن بالرب. براءتي ستجعلني أبكي. أنا أثق بالرب. أشعر باندفاع. أنا أحب الرب. وأحب نفسي أيضًا، لأول مرة.

– كنتُ في مسكني. في مطبخ مسكني. كنتُ بمفردي يا مانويل. كنتُ أفكر في مدية حلاقة أجوستي آلكانترا. وكنتُ أفكر أيضًا في كل المرات التي نظرت إليك بينما أحمل أكياس الماء الساخن في الممر، في كل المرات التي رغبت فيها بامتلاكك، أنت لديك عزاء عميق وهو أنك مثير للإعجاب يا مانويل. عرفت أنك في غرفة رقم 13، ومنذ عامٍ أنظر لك. ولهذا أتيت.

كانت كارمن أونايينديا تفك أزرار فستانها. كان فستانًا بلون الكوبالت. كانت أوردة عنقها منتفخة ومشدودة مثل أوتار

الجيتار. قالت:

-عندما أكون في مسكني لا أفكر إلا بك، بقامتك القصيرة مثل قامة صبي يبدأ في التدخين. عندما أكون في الفراش، لا أنام بسبب وجهك الأصفر وعينيك الكبيرتين.

جلست كارمن أونايينديا على حافة الفراش، ونصف جسدها مائل عليَّ. كانت عيناها لامعتين ومفتوحتين مثل عيني ثور. كان وجهها أحمر. تبتلع كارمن أونايينديا أنفاسها كأنها تُقبلها. تُثبت نظرتها، كأنها توقف قبولها للحياة لبرهة. تُمسك بكتفيَّ، واحدٌ بكل يد، كما قال أندريو رامايو كيف أمسك بتلك المرأة، في بار بروكسل، لأول مرة. بدا كأنني أدخن ماريجوانا وأنني أنهار. أنا أومن بالرب.

قالت كارمن أونايينديا:

-إنك صبي صغير يا مانويل. إنك حتى لا تعرف جسدك.

-اصمتي.

كانت شفتا كارمن أوناينديا مغلقتين، كأنها تضغط على إبرة بين أسنانها. قالت:

-عندما أكون في مسكني، أفكر أحيانًا: هؤلاء الفتيان مثل مانويل تُور لا يرون أجسادهم إلا عندما يرتدون ويخلعون البيجاما، عندما يغيرون ملابسهم الداخلية، صباح يوم الأحد.

تتنهد كارمن أونايينديا بعمقٍ وتقول:

-لماذا لا تريد أن تصبح رجلًا؟ معي. ألم ترغب مُطلقًا في أن تصبح رجلًا؟

تتنفس كارمن أونايينديا فوقي. تُخفض رأسها وتنظر للملاءة -لم أكن مغطى سوى بالملاءة- وتبتسم.

-مانويل، أنت رجل.

لا يمكنني القيام بجهد لإبعاد كارمن أونايينديا. أنا ضعيف. يا سيدي المسيح. تقول كارمن:

- متى أردت أن تكون رجلًا لأول مرة؟

تبتلع كارمن أوناندیا لعابها كأنها تشعر بالضيق. أقولُ:

-أول مرة رغبت فيها أن أكون رجلًا كانت لكي أرتدي المزيد من الملابس.

تبتسم كارمن. تنظر للملاءة. أقول:

-ذهبت إلى دير كارثوسيانس في مونت أليجري. كانت نيتي هي البقاء، دون أن أقول أي شيء لعائلتي. لن يمكنني نسيان البيت أو الناس هناك. كنت مُستعدًّا للفزع الأبدي، وببساطة وجدت أنني أتصرف برزانة. كانت هناك بوابة رمادية كبيرة في المدخل، كانت البوابة تحتل كل السور تقريبًا. وأمام البوابة، كانت هناك صورة

بيضاء، من مواد رخيصة، وكانت تتوج الواجهة البيضاء القصيرة. كانت هناك زهور بنفسجية على جانبي الطريق، كانت مزروعة في أحواض وتتحرك أمام البريق المنعكس على الجير. فتح لي أحدُ الأخوة الباب. كانت لحيته تجمع بين الأسود والرمادي، وتحيط بوجهه كالإطار، والجلد الذي يغطي العظام كان يبدو بملمس العاج. كانت ابتسامة وجهه كالألق. قال لي: «أهلًا. كيف حالك يا صديقي؟» كانت صالة الانتظار عبارة عن غرفة مربعة، بلا أثاث، بها بضعة مقاعد حقيرة، خشبها مصبوغ. وكانت هناك لوحة تمثل موت القديس برونو على الجدار. كان ممددًا فوق فراش بسيط، وجهه يجمع بين اللونين الأبيض والأخضر، مثل الأخ الذي فتح لي الباب مُبتسمًا. كان الصمت ينساب بنعومة، مثل الزمن والربيع.

لمست كارمن أوناينديا الشعر الداكن في منتصف صدري. أقولُ:

-برودة الصالة كانت تسحقني. لم تكن لها شخصية محددة، ببساطة كانت للانتظار. وهكذا خرجت للفناء. كان فناءً مستطيل الشكل، ممتلئًا بنوافذ جديرة بتكية. وفي المنتصف، كانت هناك ست أشجار آكاسيا ذات قمم مدورة، شديدة الخضرة، وكانت تخلق حركة للظلال فوق برودة الجدران. وكان هناك باب كبير عالٍ على اليمين. كان يبدو مهيبًا. وأمام هذا الباب كان هناك صف من الأصص بسيقان سوسن أحمر. خرج من هذا الباب راهبٌ طويل، بدين، مبتسم، بلحية لم تُحلق منذ يومين. وفكرتُ: إنه

راهب للدعاية.

لمست كارمن أونايينديا شفتيَّ بأصابعها. قالت فقط:

-مانويل....

كانت ركبتاي ترتعشان. أنا أومن بالرب.

أقول كأنني أفزع ذبابة كبيرة بيدي:

-كان ذلك هو السلام. إنه للرجال الأقوياء. تأثرتُ عميقًا بالصومعة، الكبيرة مثل بيت، لكنها عارية، خاوية تقريبًا. كما أعجبتني الغرفة التي توجد بها مخرطة، ومائدة نجار، والأدوات المُعلقة على الحائط. أوضح لي الراهب: «لا أكاد أعمل بهذه المخرطة. وظيفتها الأساسية هي تدفئتي، في ليالي الشتاء، عندما أعود من صلاة الصبح، في الثانية صباحًا. أعمل خلال نصف ساعة ويدخل جسدي في الدفء على نحو أفضل من الجلوس أمام مدفأة ساخنة. حدثني الراهب عن الصمت. قال: «إن توقفت الآن عن الكلام...» ورفع الراهب عينيه ووضع ذراعيه كما يضعها القسس أثناء صلوات القداسات. لم نكن نسمع أي شيء، ولا حتى طائرًا واحدًا، وكان يبدو أن ما يسري هناك شيء نقي. وهذا الشيء كان السلام. تأثرت بشكل عميق عندما رأيت الرهبان في الكورس، واقفين، ساكنين، برؤوسهم مغطاة، جامدين، ينتظرون أن يدق الرئيس خفيفًا بعظام إصبع على خشب مقعد الركوع، كإشارة على بدء الإنشاد. لكن طريقتهم في الإنشاد تركتني متجمدًا. كانت طريقة

خشنة، كصليب مقدود بضربات فأس.

أفك أزرار سترة البيجاما، وآتي بحركة بفمي كتعبير عن الحر. عرتني كارمن أونايندیا وسحبت غطاء الفراش حتى قدميَّ. أفكرُ:

– أنا أومن بالرب.

أقولُ:

– ما عمرك يا كارمن؟

أسمعُ:

–لا تؤلمني يداي أو خصري أو قدميَّ. لستُ مصلوبًا. لستُ مصلوبًا. لم أعد مصلوبًا. المسيح أعفاني من المخرطة. المسيح أعفاني من المخرطة. كلمات كارمن أونايندیا وحضور كارمن أونايندیا نزعا المسامير التي تثبتني. نزعت الضمادات من يديَّ بحنق. كانت نظيفة. دون أي قروح. براءتي ستجعلني أبكي لأن أندريو رامايو جهَّز لنشوب هذه الحرب داخلي. وهو وكارمن أونايندیا، التي تثبت ذراعيَّ وتغطي فمي بفمها، يطلقان الرصاص على المسيح أمام السور الذي كنته، مثل تلك الليلة عندما كان باو إنجلادا بجواري ويقول: «الآن سيعودون لقتل أبي»، لأن المدافع الرشاشة كانت مصوبة على بضعة رجال باكين أمام سور مقابر قريتي.

أُكررُ:

-أكرهُ أندريو رامايو.

طنينٌ في أذنيَّ ولا أسمع كلمات كارمن. كأنني أبتعد. أغلق عينيَّ لكي لا أرى الحقيقة المؤكدة مثل الشق بين نهدي كارمن أونايانديا. صدغاي ينبضان كأن حجرًا قد سحق رأسي. أشعر بإرهاق وصولي للرجولة. أشعر بالألم لفقدان الطفل الذي كنتُ، كما كنت أشعر بالألم عندما يرسلونني لشراء اللبن في العاشرة من عمري، وكنت أعود لأمي حزينًا لأن اللبن قد انسكب مني في الطريق.

أُكررُ:

-أكرهُ أندريو رامايو.

عينا كارمن مغرورقتان بالدموع. أنزل من فوقها. تغطيني كارمن أونايانديا بالملاءة. جسدي عارق وأشعر بالعرق كأنه مرهم غطوني به قبل دفني.

الضوء قوي، يغشي العينين، فوق جير الجدران. وخارج النافذة، كان سقف العنبر يطقطق تحت شمس منتصف النهار. طلاء الواجهات الجيري يبرق كالانفجار. وفوق نافذة عنبر المرضات، توجد بضع زهور غرنوقي لامعة كالحديد الملتهب.

-كارمن.

-ماذا؟

أرفع رأسي بقدر استطاعتي. تميل كارمن، تغلق عينيَّ، تضع

يدًا على رأسي.

- هل أتيت من أجل هذا؟

- نعم.

-كارمن.

-ماذا؟

-قال لي الأب جابرييل إنني يجب أن أقرأ الفقرة المشار إليها في هذا الكتاب عندما أشعر بالضياع. اِقرئيها أنتِ.

أمسكت كارمن بالكتاب، فتحته على الإشارة، والتي كانت موس حلاقة، وتقرأ:

"*وَلَمَّا جَاءَ إِلَى التَّلاَمِيذِ ...*[9]» نظرتْ كارمن لي.

-استمري.

"...- رَأَى جَمْعًا كَثِيرًا حَوْلَهُمْ وَكَتَبَةً يُحَاوِرُونَهُمْ

وَلِلْوَقْتِ كُلُّ الْجَمْعِ لَمَّا رَأَوْهُ تَحَيَّرُوا، وَرَكَضُوا وَسَلَّمُوا عَلَيْهِ

فَسَأَلَ الْكَتَبَةَ: بِمَاذَا تُحَاوِرُونَهُمْ؟

فَأَجَابَ وَاحِدٌ مِنَ الْجَمْعِ وَقَالَ: يَا مُعَلِّمُ، قَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكَ ابْنِي بِهِ

9- إنجيل مرقص: 9 .

رُوحٌ أَخْرَسُ،

وحيثما أدركه يمزقه فيزبد ويصر بأسنانه وييبس فقلت لتلاميذك أن يخرجوه فلم يقدروا.

فَأَجَابَ وَقَالَ لَهُمْ: «أَيُّهَا الْجِيلُ غَيْرُ الْمُؤْمِنِ، إِلَى مَتَى أَكُونُ مَعَكُمْ؟ إِلَى مَتَى أَحْتَمِلُكُمْ؟ قَدِّمُوهُ إِلَيَّ!».

فَقَدَّمُوهُ إِلَيْهِ. فَلَمَّا رَآهُ لِلْوَقْتِ صَرَعَهُ الرُّوحُ، فَوَقَعَ عَلَى الأَرْضِ يَتَمَرَّغُ وَيُزْبِدُ.

فَسَأَلَ أَبَاهُ: «كَمْ مِنَ الزَّمَانِ مُنْذُ أَصَابَهُ هذَا؟» فَقَالَ: «مُنْذُ صِبَاهُ

وَكَثِيرًا مَا أَلْقَاهُ فِي النَّارِ وَفِي الْمَاءِ لِيُهْلِكَهُ. لكِنْ إِنْ كُنْتَ تَسْتَطِيعُ شَيْئًا فَتَحَنَّنْ عَلَيْنَا وَأَعِنَّا».

فَقَالَ لَهُ يَسُوعُ: «إِنْ كُنْتَ تَسْتَطِيعُ أَنْ تُؤْمِنَ. كُلُّ شَيْءٍ مُسْتَطَاعٌ لِلْمُؤْمِنِ».

فَلِلْوَقْتِ صَرَخَ أَبُو الْوَلَدِ بِدُمُوعٍ وَقَالَ: «أُومِنُ يَا سَيِّدُ، فَأَعِنْ عَدَمَ إِيمَانِي».

فَلَمَّا رَأَى يَسُوعُ أَنَّ الْجَمْعَ يَتَرَاكَضُونَ، انْتَهَرَ الرُّوحَ النَّجِسَ قَائِلًا لَهُ: «أَيُّهَا الرُّوحُ الأَخْرَسُ الأَصَمُّ، أَنَا آمُرُكَ: اخْرُجْ مِنْهُ وَلاَ تَدْخُلْهُ أَيْضًا!»

فَصَرَخَ وَصَرَعَهُ شَدِيدًا وَخَرَجَ. فَصَارَ كَمَيْتٍ، حَتَّى قَالَ كَثِيرُونَ:

«إِنَّهُ مَاتَ!».

فَأَمْسَكَهُ يَسُوعُ بِيَّدِهِ وَأَقَامَهُ، فَقَامَ.

وَلَمَّا دَخَلَ بَيْتًا سَأَلَهُ تَلاَمِيذُهُ عَلَى انْفِرَادٍ: «لِمَاذَا لَمْ نَقْدِرْ نَحْنُ أَنْ نُخْرِجَهُ؟»

فَقَالَ لَهُمْ: «هذَا الْجِنْسُ لاَ يُمْكِنُ أَنْ يَّخْرُجَ بِشَيْءٍ إِلاَّ بِالصَّلاَةِ وَالصَّوْمِ»».

19

أندريو رامايو

أنا واقف في محطة القطار. الحقيبة على الأرض. بجوار قدميَّ. أفكرُ:

–في العصر، لدى الخروج من المدرسة، عندما يدخل كل الأولاد بيوتهم ويلقون الحقيبة على مقعدٍ ويطلبون الخبز، قمتُ بنفخ دراجة أبي. في ذلك المساء، كان هناك سلامٌ في شارعي. سلام مصوغ من واجهات البيوت والنوافذ الخضراء وبياض الشارع، حيث تبقت علامات عجلات العربات العائدة من الحقول. شارعي ينتهي في ميدان صغير ودائري، وكان به صليب مدخل القرية وبضع أشجار كبيرة للغاية، بلون أخضر رطب، وفي الربيع تنبت عليها زهور صفراء طويلة.

في ساعة الغروب، عندما كنت أُخرج الدراجة من البيت بينما أحملها حملًا، يدٌ على المقود ويدٌ على الهيكل، لكي لا تترك العجلتان أثرًا على الأرض، كنت أفكر أنني حتى ذلك اليوم، كنت أكبرُ لكي تصل هذه الأمسية. كنت أفكر أن كل شجاراتي مع فتيان القرية،

والمرات التي رجعت فيها إلى البيت برأسي مفتوح، وكل المرات التي عاقبني فيها السيد بينتُورا بالركوع بينما أضع يديَّ تحت ركبتيَّ لأنني ضحكت واصطدت ذبابًا بينما كان يشرح عواصم أوروبا، وكل هذه الأشياء التي تقود إلى هذه الأمسية، كما كان شارعي ينتهي في ذلك الميدان الصغير ذي الصليب في مدخل القرية، المُظلل دائمًا، خاصة عندما يقول السيد بينتُورا إن الربيع قد حلَّ.

أحيانًا يبدو لي أن اليوم قد حلَّ، أول يوم. كان هذا عندما تعطلت محطة كهرباء القرية. كثيرًا ما كانت تتعطل، أربع أو خمس مرات في السنة. كنتُ أنتظر في الشارع، واقفًا في ناصية بها حاجز، وفناء به شجرتا تين عجوزين للغاية، والكثير من الحطب الجاف، وفي المواجهة، بيتٌ به طاحونة هواء. كان الشارع أسود مثل نفقٍ. الكثير من الكلاب تمر وتتشممني. كنت أعرفهم جميعًا: هذه هو مورو، كلبة المحصل أندريو كالدينتي. هذا هو مونتي، كلب المُهرب جيروني استرادا. وفي تلك الناصية، كنت أستند إلى الحاجز، كنت أشعر بالخوف، كخوف الجنود يوم ذهابهم لأول مرة إلى مكتب توزع المجندين.

كنت أفكر في الطريق، بساقيَّ متباعدتين ومتصلبتين، بيديَّ في جيوبي وعنقي ممدود. كان الطريق مغلقًا مثل أنبوب من ألياف الأسمنت، وكنت أفكر أنني سأحمل خجلي من حاجز إستنسيالاو روكا حتى غرفة اعتراف السيد رامون، بتلك الستارة البنفسجية التي كان يضعها على ظهري، حيث كنت أخرج أكثرَ خفةً ومرونة،

كما كنت أشعر أيام السبت عندما كنت أغير -في ذلك الوقت- ملابسي الداخلية.

الشيء الوحيد الذي كنت أفعله هو المراقبة أمام حاجز الطاحونة. لأنني كنت أضع يدي على الحزام بسرعة عندما أسمع وصولها. كنت أمرر يدي على شفتي، لكي أنظفهما، وأفتح ذراعيَّ وأمدهما للأمام. كانت تمر أمام الحاجز، الذي كان يبدو لي حاجزًا مسمومًا مثل رعب مليء بالفراشات.

-أووووه.

-أنا أندريو رامايو.

- ماذا تفعل هنا؟

- لا سبب محدد. لأنني أريد.

- ألا تنتظر أي شخص؟

- لا...

- هل تعرف أمرًا ما؟

- لا.

- أنا أعرف ما قال ماتيو كروس.

-هل هذا مخيف؟

- لا. مقزز.

-كم عمرك؟

- ثلاثة عشر. وأنت.

- أنا، خمسة عشر.

- أود رؤيتك عندما تذهب للنوم. لقد أصبحت طويلًا للغاية.

-نعم...

- وأصبحت تصفف شعرك للخلف.

-نعم...

-لقد رأيتك عندما كنت تسبح في البحر. كنت تبدو كرجل كبير وكنت أطول من بقية الفتيان، وعندما كنت تخرج من الماء كانت ركبتاي ترتشعان ولا يمكنني تناول الطعام لأنك مستلقٍ على الرمال وكنتَ جميلًا.

- لقد أكملت ألبوم البطاقات المصورة للزعفران.

- رامايوا!

-ماذا؟

- هل ما زلت طفلًا؟

-نعم...

–أنا سيئة يا رامايو. ماتيو كروس أيضًا لم يعد طفلًا. لدى الخروج من المدرسة نذهب إلى الحقول، وأيادينا ملوثة بالحبر. وعندما نكون في الحقل، يكون ماتيو كروس حزينًا كأنه مُعاقب، وكأنه يشعر بالخوف، ولا تبدو عليه تلك البهجة التي كنت أعتقد أن الفتيان يشعرون بها لدى الخروج من المدرسة. يخرج من الباب، يجري. يتركني بمفردي في الحقل، وعندما أصل إلى الطريق، يقول لي الرجال الذين يكسرون الحجر في الطريق أشياء لا يهمني تكرارها، لكنني لا أريد النطق بها.

–لا؟

– مع السلامة يا رامايو.

اليوم الأول لكل هذه الأشياء كان في ذلك المساء. كان الحزن الأول. حزنٌ جذوره طويلة ورطبة. حزنٌ جذوره طويلة، رطبة. حزن رؤية أنني في طريقي لرؤية أن ما سأفعل لم يكن شيئًا اختلقته، أنني سأفعل الأشياء كما يقول ماتيو كروس. تعلَّم ماتيو كروس هذا الشعور بالذنب من صانع فُخار من مدينة ألباثيته في التاسعة عشرة من عمره، وكان اسمه سيفيرينو أولميدو. وتعلَّم سيفيرينو أولميدو من مجنون في قريته، وكان هذا المجنون يحمل دائمًا في جيبه ماكينة حلاقة، وكان يحلق شوارب الفتيان الذين يلتقيهم في طريقه.

كنتُ أسير في منتصف الطريق، بمفردي، وعلى جانبي الطريق

توجد حقول، الحقول الممتلئة بسيقان طويلة، لامعة. وبين حقل وحقل، هنا وهناك، كنت أنتبه لوجود سور من الأعشاب مليء بزهور أمابلوا وزهور أخرى بها براعم بنفسجية، وأعتقد أن اسمها قنطريون عنبري. وفي الأرض المبذورة، وتحت البراعم بكثير، كانت هناك أيضًا الكثير من زهور الأمابولا. كنت أحب الحقول في ساعة العصر.

ومن فوق الدراجة، بيدٍ على المقود والأخرى في جيبي، كنت أنظر للون الأخضر الداكن في أشجار التين، والأخضر الفاتح في أشجار اللوز، والأوراق السوداء في أشجار الخروب، والأزرق بدرجات مختلفة في الجبال. كنت أفكر أن درجات اللون الخضر في الحقول كانت مختلفة مثل طبائع الناس التي تعيش في ذات الشارع؛ وأن جلد كل الأفراد مثل اللون الأخضر للأشجار، سواء كان داكنًا أو فاتحًا، كانت كل الأشجار تمنح الطراوة، والبشر، في بعض الأحيان، يعطون ظلًّا شريرًا سيئًا، مثل أبي والجنود الإيطاليين والسجناء الذين يكسرون الحجر في الطريق.

عندما وصلت إلى سور حظيرتنا، كأن بهجة العالم قد انتهت.

أدخلت الدراجة وتركتها بجوار الحائط، وبرقَ المقود والهيكل وإطار العجلتين تحت الشمس، بينما كنت أسير إلى وسط المكان، باحثًا عن موقع يمكن الوقوف فيه لكي أنفض عن نفسي كل ما علَّمه صانع فُخار من ألباثيته لماتيو كروس.

عندما كنت أذهب للقرية، دون التفكير، كنت أشعر أنني أدخل في مؤسسة تطبع شخصيتها: الشعور بالذنب، والذي كان يجمع بين كل البشر دون أن نتبادل النظرات، ثم ندخل في اتصال بإرادة الرب، وفيها كانت الخطيئةُ صلاةً بإشارات معاكسة، ويتحد الرب معنا عن طريق ابتعاده. كان المرء، لأول مرة، يدخل قريته، أمام الصليب الموجود في مدخلها، والبوابات الكبيرة، وأشجار التين وورش النجارة في قريته، وينظر لأهل شارعه، ويقسم إنه أيضًا كان من المسؤولين عن موت المسيح.

-أيَّ قطار تنتظر؟

- القطار الذاهب إلى قرية أرجيلوس.

-إنه على الرصيف الآخر.

-آه!

-رصيف 2.

أقومُ الآن برحلة أخرى. ليس بالدراجة. بل بالقطار. بين الحقول، بين أشجار الزيتون. لكي أقترف الشر حتى يخرج كل الحزن من عجوز القرية.

تهبُّ ريح خانقة على الرصيف. ريحٌ ممتلئة بالدخان وغبار الفحم وزيت الماكينات. القضبان والفلكنات الخشبية، والأحجار بين كل فلكنة وأخرى، كل هذا ممتلئ بالزيت وغبار الفحم.

أندريو رامايو ذاهب إلى أرجيلوس. يحمل حقيبةً خشبية. الحقيبة الخشبية ما زالت محتفظة بتلك الدائرة الباهتة التي سببها تنظيف بقعة اللبن بورق صحيفة...

20

مانويل تُور

أنا بمفردي في غرفة 13. ذهب عني ذلك الهياج الذي كانت تصيبني به قروح المسيح في يديَّ وفي جانبي وفي قدميَّ.

أشعر أنني مهجور، تافه، بلا مشاعر. أكره أندريو رامايو، مُحطِّم البراءة التي أطالها لي الرب، لكي أعاني مثله، لكن دون أن أرتكب ذنبًا. رامايو أعطاني حيوانيته. وأنا أعطيتها لكارمن أوناندِيا، والآن أفتقد أمي بوحشية، وأيضًا أفتقد الأصباح التي كانت ترافقني خلالها إلى المدرسة في العاصمة.

صباح الرحلة كان باردًا. كان صباحًا في شهر أكتوبر، الشهر الذي يعود فيه التلاميذ إلى النظام والترتيب. بالنسبة لي، لم أكن أعرف ما هو الزي الموحد أو فصول الدراسة. وكان شعوري بالفراغ في بيتنا، بينما كانت أمي تمشط شعرها واللبن يغلي في الكسرولة، نابعًا من الحب المضاعف الذي شعرت به في تلك اللحظة تجاه كل الأغراض الموجودة في بيتنا. بينما كنت أغلق أزرار البنطلون القصير وأضع رابطة العنق –الأولى في حياتي– كنت أسير في البيت وأحط

بعيني على كل الأشياء، وأشعر، للمرة الأولى، بشعور الموت، بحب تجاه كل شيء، اكتشاف للحنان. كنت أنظر للأكياس ذات اللون الكاكي حيث كانت ملابسي المكوية والمنشاة، قطعة فوق الأخرى. وفي طيات الملاءات، وفي الزغب الناعم والجديد في الفانلات الشتوية، التي لم أرتدِها من قبل. كنت أرى وأشعر بيدي أمي وذكائها. كنت أنظر لكل هذه الأشياء بنغمة رجل يكتشف أنه عاشق. بينما كانت أمي تمشك شعرها في المطبخ، تأملت كل أكياس الملابس الموضوعة فوق المقاعد، وشعرت بتتابع كل الأمسية التي قامت خلالها أمي بتطريز الحروف الأولى من اسمي.

وكان لون الحروف الأولى غامقًا على الأكياس، وكان يختلف حسب ما يحتويه الكيس من ملابس داخلية أو للشارع. ذكرى الحروف الأولى تأتي لي بذكرى وشعور اللون في المساء فوق النسيج الذي كانت تخيطه، شعرها وفتحة صدرها البيضاء، بتلك القلادة العارقة...

وفي البيت، كان النور الكهربائي غير مرئي تقريبًا لأن محطة الكهرباء كانت تعمل بالمولد الصغير في الصباح. كان هذا النور يؤدي للشعور باهتمام أكبر بكل الأشياء، لأنني كنت أضطر لفتح عيني كثيرًا لرؤيتها، وشعور العتمة كان يجعلني أقترب أكثر من الأشياء -منديل، مشط، كوب- بخطى متمهلة.

شعور العتمة يجعلني أقبض على الأشياء بقوة أكبر.

كنت أذهب إلى الدولاب وآخذ منديلًا نظيفًا، وعندما أفتح الباب، تخرج رائحة النفتالين القوية من سترات أبي، الذي اُغتيل في العام الأول من الحرب، وفساتين أمي السوداء، فأشعر باختناق كشخص يلبس الحداد منذ فترة طويلة ولم يجرؤ على الدخول مرة أخرى لغرفة الميت؛ وذات يوم يدخل دون اكتراث، ويلحظ أن ذاكرته تؤلمه وأن دفقة لحظية من الروائح المحددة تُحيي حضور الغائب. إنها تلك الرائحة العذبة الكثيفة التي تصدر عن الموتى، مختلطةً برائحة النفتالين في الفساتين المحفوظة وفجأة يتم إخراجها، وهي رائحة البنزين الذي تم استخدامه لتنظيف بقع سترات الرجال.

وسط هذا الإعجاب بالأشياء، أتذكر فساتين أمي السوداء، والتي كان بينها فستان وردي من الحرير، وكانت به بضع زهور بنفسج. كان فستانًا من الحرير الخام. لا بدّ أنه فستان قديم للغاية لأنني لا أتذكر أنني رأيت أمي ترتديه. كانت زهور البنفسج بين تلك الفساتين تثيرني، لأن خصر هذا الفستان كان أضيق من بقية الفساتين السوداء. كنت أتخيل أمي الممتلئة، وهذا الحرير الوردي يحدد جسدها، مثل فتاة كبرت وأصبحت الملابس صغيرة عليها، ولم تعد تحب اللعب وأصبحت عيناها كبيرتين.

كنت أغتسل بينما تكون حواسي منتبهة للأصوات الصادرة عن يديها: ارتطام الملعقة الصغيرة بزجاج السكرية، رنين الملعقة بينما تدور داخل فنجان اللبن (رنين مكتوم إن كان الفنجان الكبير من الفخار المطلي، ورنين أكثر ارتعاشًا إذا كان من حجر

خفيف). كانت أمي تشرب في فنجان مصنوع من الفخار وأنا أشرب من فنجان من الحجر الخفيف. وفي بقية الأيام، كنا نشرب في أول فنجان نراه، هذه هي الحقيقة، لكن أمي أعطتني الفنجان الخفيف في ذلك الصباح لأنها كانت تشعر أيضًا بحبٍّ أكثر.

بينما كانت أذناي منبهرتين بموسيقى يديها، كنت أشعر بالفراغ، كأن هناك فقاعة في وسط صدري، وتعكس الزهور البنفسجية في فستان أمي.

المسافة الفاصلة بين الفستان من الحرير الخام وبقية ملابس البيت الداكنة كانت تجعلني أشعر بموت جزئي لها. لأن هناك، بين الفستان الوردي والفساتين السوداء، امرأة لم تنظر مُطلقًا إلى أذني عندما كنت أخرج من البيت، لم تكن قد عملت الفرق في شعري أو مررت لعابها ليبدو على الشعر أن به تموجًا طبيعيًّا. هذا الشعور بأمي، والذي كنت أراه في البيت، بالجوارب الحريرية في يدها، بالمشط فوق كتفيها، كان يستدعي إلى عقلي موقفًا لم يشعرني بالراحة أبدًا. لأنني كنت أرى -من حين لآخر- إناءً به قطع نسيج قذرة فوق حوض غسل الملابس، وكلما رأيتها تكون أمي أكبر شحوبًا وعيناها أكثر اتساعًا، وكنت أعتقد أنها ستموت، ولم أكن أرغب باللعب في تلك الأيام، وأجلس في الفناء ناظرًا لجلدها الشاحب.

خرجنا مُحملين إلى الشارع، كان الجو باردًا والشارع خاليًا، والبيوت مغلقة، وفي الطرف الآخر من القرية، يمكن سماع صوت

القاطرة. كنا نتحدث بصوت خفيض في طريقنا للمحطة، ونتوقف مع كل خطوة لنبدل الأكياس من يدٍ ليد.

21

أندريو رامايو

- يجب أن نرى إن كنت ستبدأ في ربح المال.

- إنك تشبه أمك. يبدو أن عظامك مغموسة أيضًا في عرق الينسون.

- لا أعرف لماذا يجب أن أشقى. لا أعرف لماذا يجب أن أحمل البيت على كتفي كبغل مليء بالجراح. كبغل عجوز ومرهق.

-وماذا، بدلًا من أن تشكرني (لأنك يجب أن تشكرني، فهذا ما علَّمتك)، تجرؤ على أن ترفع يدك عليَّ، وتأخذ صف أمك، التي تكشف عن وجهها في حانة جوليان إسكوبار كأنثى حصان جافة. ولا تراعي شرفها لأنها غارقة في عرق الينسون.

- مثلك، لا بدَّ أن يديك مثل جذور شجرة سنديان، لكنهما رخوتان كأنك واقع في الخطيئة.

بينما كنت أسمع أبي، الواقف أمامي في المطبخ، كنت أفكر في كل الأشياء التي لا يُمكن أن تُقال لأنها مليئة بالدم، وعندما يقولها

الأبناء، يبدو أن عقابًا جحيميًّا وقع بالدم لكي لا يتخثر مُطلقًا.

كنت أنظر إلى النار. أتأمل قطع الحطب الكبيرة المشتعلة اللامعة، التي كانت تأخذ بالتغطي ببطء برمادٍ لونه شبيه بلون فروع الليلك. كان دولاب الحطب بجواري، ممتلئًا بقطع صغيرة. وسلة الخيزران في أحد الأركان، وبها البطاطس المغطاة بالتراب، وتظهر فيها براغم بيضاء، حيث كانت تتعفن. وخلف نار المطبخ، كان الجدار متقشرًا وأسود. والمدخنة، التي كانت على هيئة جرس طويل، كانت تبدو من موقعي فوق المقعد، داكنة ومغطاة بخيوط العنكبوت المُدخنة والرطبة، والتي كانت تتحرك لأن الرياح كانت تدخل المدخنة دائمًا.

خرج أبي، بلحيته التي لم يحلقها منذ ثلاثة أيامٍ، من المطبخ، دون أن يقول أي شيء. كان الصمت في البيت طويلًا، محسوسًا، مثل الصمت في بيوت الرجال الذين يعيشون بمفردهم لأن الزوجة مرَّت بيوم سيئ، ورحلت للأبد في ساعة نحسٍ. كنت أسمع أبي بينما يصعد السلم لأنه سيذهب للنوم على الفراش ذي الألواح الخشبية والذي كان موجودًا بجوار مخزن الحبوب، مُحاطًا بأجولة من البقوليات، ولفات من الحبال، وعلب تبغ جافة معلقة من العوراض، وسط كمية كبيرة وقديمة من الغبار الذي يفوح برائحة خاصة، وكأن هناك حِدَادًا شاحبًا فوق المقاعد والموائد، بسبب ذهاب أمي إلى حانة جوليان إسكوبار.

عندما يكون المرء بمفرده، يحب الأشياء. لأن الأشياء تمتلك

ضوءًا يعتمد على الشمس، ويشبه نور الطرق التي تقود إلى قرية، إلى غابة أشجار سنديان، حتى عندما لا يكون هناك أي مسافر إلى القرية أو إلى غابة السنديان.

ما إن تأكدت أن أبي في الفراش، حتى نهضت من جوار النار. أول فكرة خطرت على بالي هي فتح باب الشارع والنظر إن كانت البيوت مُغلقة، لأن الوقت كان مُتأخرًا وكنت أريد الخروج للشارع للقيام بما انتويت قبل الثانية عشرة.

كنتُ أعرف أن العجوز ينتظرني لأنني ذهبت إلى بيته في العصر، ودون أن أقول أي شيء، طلبَ مني أن أذهب لمرافقته لأنه كان بمفرده ولأنه يريد أن يحكي لي الكثير من الأشياء بعد ثمانية أشهر دون رؤيتي.

دون أن أعرف كيف، وتقريبًا دون نية للذهاب، وجدتُ نفسي في الجانب الآخر من المطبخ، بجوار الحوض، والذي كان نظيفًا في تلك الليلة، لأن الرب أراد أن يغسل أبي الصحون. لا أعرف لماذا توقف هذا الشعور بالذنب أمام الحوض. أمام وجهي. كانت السماء مرئية عبر نافذة المطبخ، التي كانت مفتوحة، كانت السماء مرصعة بالنجوم، دون قمر، فوق القرية، وواجهة الكنيسة العالية وشجرة الصنوبر في حديقة السيد أوجيني، السوداء مثل السماء، مثل الجدار الموجود خلف مواقد المطبخ، سوداء مثل الفأس الذي كان مغموسًا في الماء في إناء. لا أعرف إن كنت قد ظللت لوقت طويلٍ بيديَّ على الجرانيت الرطب. أعرف أن الخطيئة كانت تتوقف أمام

بضعة صحون عميقة صفراء، وفي داخلها كانت توجد بقع فاقعة الخضرة في أماكن متفرقة. كما كنت أُوقفُ الخطيئة أمام بضعة صحون حمراء، مطلية، أمام هون أبيض كبير، ولم يكن جديدًا، وتجويفه ممتلئ بالصمت كأنه ممتلئ بالماء. في الحقيقة، لم أكن طوال حياتي سوى شخص لا نفع له، ولكي أذهب إلى الحلاق في أيام السبت، كل ثلاثة أسابيع، ولكي أذهب في أيام الأحد إلى حانة رافيل كالدينتي (سأقطع يدي قبل الذهاب إلى حانة جوليان إسكوبار)، كنت آخذ بضع بيزيتات متسخة ومنسية تحت الأطباق على الرف.

في تلك الليلة كنت أشعر بعمق أنني أصل لمكانة بشرية، مكانة القتلة. في تلك الليلة حصلت على فرصة شاغرة... كنت أفكر أن مكانتي البشرية هائلة، مضاعفة. كنت أشعر أن هؤلاء الرجال يمتلكون إيمانًا يائسًا بأنهم سيُقتادون إلى قاعات المحاكم، إلى المحاكم الإقليمية، لأنهم أصدروا حكمًا مناقضًا لصفتهم البشرية ذاتها، دون أن تكون لهم الصلاحية القانونية للتخلي عنها.

ذهبت إلى مفتاح النور الموجود في مدخل المطبخ وأطفأت المصباح. كنت سأخرج إلى الشارع. كان سكون وبريق النجوم يدخلان عبر النافذة، وكان ضوء معدني رصاصي يغسل الصحون والإناء الأحمر والحوض الجرانيتي والهون. كان هذا الضوء يبدو مسمومًا داخل المطبخ. كنت أنظر لكل هذه الأشياء النظيفة المُرتبة، المختلفة، البيضاء، والتي كانت تفوح برائحة الماء.

كنت سأدخل في تلك الليلة في زمرة القتلة دون أن ألحظ رائحة أفرادها، لكنني كنت سأخرج من المطبخ، وسأعود لذات المكان، في الفجر، مغموسًا في الذنب. وسيكون الحوض والأكواب والهون في ذات المكان، لكن في اتجاه مختلف. مطبخي سيصبح مطبخ شخصٍ قاتل.

بعد ذلك فتحت باب الحظيرة وخرجت لهواء الليل البارد. كان الفناء مربعًا وأسواره مطلية بالجير. كانت أعشاب خضراء قصيرة تنمو وسط الشقوق بين البلاطات. وفي كل ركن تنمو شجيرة كبيرة ومدورة من الغرنوقي الأحمر بحجم قبضة اليد. تبولت في وسط الفناء بينما كان ظهري لجدار البيت، ليس بمتعة مرات أخرى، لأنني في الحقيقة لم أكن أشعر برغبة كبيرة في التبول. لكنني أخرجت الولاعة من جيبي لأرى نفسي بينما أتبول. في تلك الليلة كنت أنظر لكل شيء بوجه كالعاشق، كأنني لن أرى قريتي وأشياءها مرة أخرى.

عندما دخلت البيت مرة أخرى، وفي ذات وقت إغلاقي لباب الحظيرة، سمعت أبي يناديني، وبدا لي أنه يبكي وأن صوته مكسور، مثل صوت الرجال الذين يتكلمون بينما ينزفون دمًا.

كان السلم ضيقًا، كان من الطين المحروق والحجر، وكان ينتهي تقريبًا بجوار الفراش الذي ينام أبي عليه. عندما وصلت للعتبة الأخيرة، رأيت أن أبي لم يكن قد خلع ملابسه وأنه كان جالسًا فوق صندوق تبغ، ويغطي وجهه بكلتا يديه. لا بدَّ أن أحشائي

من الحجر إن قلت إن أبي لم يثر بي الشفقة. لم يكن أبي قد خلع ملابسه، لكن القميص كان خارج البنطلون وكان قد خلع الحمالات ويسندها بإحدى يديه. يمكنني التأكيد أنني لم أر أي شيء أكثر حزنًا من رجل يخلع حذائه ليبكي. لأن الرجل الذي يبكي عاريًا تمامًا يُعتبر مشهدًا مليئًا بالأشواك. لكن الرجل الذي يُنهنه حافيًا يثير كل شفقة القرية على شخص يبكي، ليس فوق العالم بأكمله، وإنما فوق أرض صغيرة في منطقته، عندما يبزغ ألمه المحلي من حقل شعير أو من الحظيرة أو من المقابر أو من بقرة حبلى أو من حصان ميت أو من زوجة تجعل جسدها يصدر صوتًا كأفعى الجرس.

كان مصباح الكيروسين مرتعشًا فوق الصندوق ذي الخشب المتعفن بجوار الفراش، وكانت هناك ثلاثة أجولة من الشعير فوق الفراش. كان أبي قد حمل مصباح الكيروسين لينير بينما يخلع ملابسه.

قال أبي الحافي دون أن يرفع رأسه:

-صوتك مرتفع منذ وقت طويل يا أندريو. كأنك ترتطم بي بينما تتكلم. لقد علَّمتك ألا تفعل هذا مُطلقًا. عندما كنتَ طفلًا، كنتُ دائمًا...

قطع عبارته كأن شخصًا ما قد وضع حجرًا في فمه. كان يعتقد أنه يتحدث. لكنه لم يكن يفعل سوى البكاء. ورأيت أن البكاء كثيرًا

يشبه الكلام بينما يوجد حجر في الفم.

كنتُ جالسًا في مواجهته. فوق جوال ذرة ممتلئ حتى المنتصف. وضعت يدي اليسرى على ركبة أبي. دون أن أنظر له. كأنني أشعر بالخجل إن اكتشفَ أنني أحبه. قلتُ:

-يجب أن نبيع الحصان. وشراء آخر. في السوق القادم. نحن بحاجة لحصان آخر لكي نعمل في نقل الحطب، حصان طوله تسعة أشبار. يمكننا القيام برحلات أكثر بحصان آخر، رحلتين أكثر كل يوم. نحن نفقد اليوم بأكمله في الطريق بهذا الحصان.

مع كل كلمةٍ أقولها بصوت خفيض للغاية، كان أبي يرفع رأسه قليلًا. كنتُ أتحدث. وهو يرفع رأسه. كأننا نروي زرعًا.

-إن اشترينا حصانًا جديدًا، أصيلًا، لن نضطر لاستعارة حصان جيروني فاورا كلما جاءتنا شحنة أحجار. إنهم يشفقون عليك. يهدونك الشعير والخروب من أجل الحصان. وعندما يترك شخص ما حصانه لك، فإنك تحصل في هذا اليوم على أجرة لنقل الأحجار. سأقطع يدي قبل أن أترك الناس يشفقون عليك. يجب أن تشتري فحلًا. هكذا ستحصل على مال من حمولات الحطب وعلى مال من مُهرِ الجبل.

كان أبي يرفع جذعه ببطء، كأنه سوط من فرع أخضر طويل، مُثبت من أحد طرفيه، سوطٌ مطوي بقوة، كأن اليد التي تثبته تقوم بإطلاقه بتمهل، وهو يستعيد طوله عندما ينتصب، لكنه

يظل منحنيًا قليلًا، كأن حزنًا طبيعيًّا قد استولى عليه. قال:

-إنك لن تعرف مُطلقًا. فمن المعتاد ألا يفهم الأبناء آباءهم أو يعرفوا عنهم أي شيء. الأبناء لا يدفنون آباءهم أثناء حياتهم. لكنهم يغطونهم بالأحجار كأنهم يدفنون كلبًا ميتًا. تبدؤون في تغطيتهم بالأحجار، كأنكم تغطون رعبًا، وتحديدًا في تلك الساعة التي تكتشفون فيها العفن الكامن داخلكم. إنك لن تعرف أيضًا. لن يمكنك أن تعرف مُطلقًا ما هي بداية الصحراء. أحيانًا تبدأ الصحراء حيث تنتهي غابة أشجار السنديان؛ أحيانًا تنتهي بكتلة دم متخثرة، حيث تنتهي غابة أشجار السنديان. بعد ذلك ينفذ الدم، مثل النمل الأبيض عندما ينتشر في الحقول ويسبب العفن في المطبخ والفراش وكل الأشياء من لحم ودم. الدم مثل الرب: الدم هو الطبيعة الخفية. عندما يخرج الدم والرب للنور، يُضفيان لونًا شاحبًا مثل الزعفران، مثل العفن الأخضر في العملات النحاسية. لن تستطيع أن تعرف مُطلقًا أن الدم تركني في العراء، دون مكان ألوذ به من المطر ومن الشمس ومن هذه الرياح المليئة بالرمال الساخنة التي تسوط البشر، والتي كانت أمك تحميني منها قبل أن يصل عرق الينسون من حانة جوليان إسكوبار.

كان أبي يتحدث كمسكور بالنبيذ. كان جلده مجعدًا ورقيقًا، ومليئًا بالعرق. كان قد ترك الحذاء على الأرض وأخذ يشد الشعر الأبيض في صدره. أبي مُشعر. وورثت بدوري ميراثه في وقت مبكر. لدي شعر كثيف في صدري كما في الساقين. عمري عشرون

عامًا. لدي شعر كثيف في صدري كما في الساقين.

نهض أبي ببطء، كأنه يستيقظ.

قال أبي:

-لقد كبرت للغاية.

فك أزرار القميص وبدا صدره صلبًا، عريضًا ومشعرًا حتى منتصف عنقه.

-أصبح صدرك كبيرًا يا أندريو. وصلبًا. مثل جدار.

كان أبي يفك أزرار البنطلون بيدٍ واحدة. بعد ذلك تركه يسقط على الأرض. ثم انحنى، أمسك بالبنطلون وأخرج قدميه. وبعد ذلك ألقاه على أحد أجولة الشعير الموجودة فوق الصندوق. ثم قال:

-لقد كبرت كما وددتُ أن تكبر؛ الوجه الطويل، الذراعان الطويلان والساقان الطويلتان. ستترك أثرًا كالنقش على المرأة التي تحبكَ. كَبرت كما كنتُ أريد: مثل القش وحجر الصوان، الذي لا يُطلق شررًا إلا عندما...

ضمني أبي إلى صدره، وكانت لحيته التي لم تُحلق منذ ثلاثة أيام تخدش جلد وجهي، وكنتُ ساكنًا وصامتًا بين ذراعيه، لأنني كنت أفكر أن رفض تقديم هذه السلوى للعجوز أمرٌ جدير بكلب.

-أصبح صدرك صلبًا وساخنًا مثل حجر الصوان.

رفع أبي رأسه كأنه يستنشق الهواء. أبعدَ وجنته عن وجنتي. ظل أبي ساكنًا كما يفعل الحصان عندما يشرب.

-لقد أصبحت رجلًا يا أندريو. شكرًا للرب.

أشعرُ تجاه أبي بحنان لا نهائي وشفقة. ذهب أبي إلى الحشية المصنوعة من القش برأس واطئ.

نزلت السلم دون أن أدوس بقوة، كأن أبي نائم، وهكذا، عندما يدير رأسه إلى السلم، سيرى الجدار المطلي بالجير، المغطى بالغبار، وسيعتقد أنه كان يحلم أن حانة جوليان إسكوبار مليئة بالنمور المرقطة.

22

أندريو رامايو

السماء مرصعة بالنجوم الصامتة. وأغلقُ الباب الآن. يبدو الشارع كأخدود طويل أسود، ويقود في النهاية إلى الميدان الصغير حيث توجد تلك الأشجار والصليب في مدخل القرية، حيث الضوء الأخضر المائل للصفرة في مصنع المشروبات الغازية. أمرُّ بين الهواء البارد وحصى الطريق.

ويصاحبني صوت القعقعة الخفيف الصادر عن وقع أقدامي. أسير إلى اليمين في العتمة، فوق الرصيف، ملامسًا كتفي بأسوار البيوت تقريبًا. الآن ينتهي الرصيف ويبدأ سور قديم لحظيرة. أضع يدي على السور وألمس حجرًا مُغطى بالغبار. وألمس بطرف حذائي منطقة من الأعشاب الرطبة. أشعر أن الأعشاب تنمو أيضًا تحت الأسوار. الهدوء المعتاد يسود السماء، والتي كانت ممتلئة بالصفاء والنجوم. نور المصنع يرتفع فوق البيوت. توجد أمامي، إلى جانب الشارع، عربة مُحملة بالسماد العضوي، الذي تصدر رائحته. النجوم لامعة، حية، نظيفة، قوية. كان محورا العربة مرتفعين عن الأرض، في وضع الحركة. كانت العربة مثبتة في مكانها بثلاث

مَذارٍ، اثنتان في الأمام وواحدة في الخلف. كانت العتمة رطبة وذات رائحة بين محوري العربة. كان ميدان الصليب في مدخل القرية خاويًا، وتحيط به الحظائر. كانت النجوم ساكنةً في الهواء. كان الميدان يقود إلى شارع لا توجد به بيوت في الجانب الأيمن، إنما يُطل على الحقول. وعلى الجانب الآخر من الشارع يوجد سور عال رمادي، يبدو كسور المقابر. كان سور حظيرة كبيرة، فارغة، ممتلئة بالصخور والخنازير والأرض المحفورة.

أواصل السير على الرصيف الأسمنتي (أسمنت بورتلاند)، وألامس النوافذ المطلية برأسي. ألامس خصاص نوافذ غرف النوم المُطلة على الشارع. الأحجار التي تؤطر النوافذ، في بعض البيوت، ما زالت تحتفظ بدفء شمس المساء. السماء سوداء والنجوم باردة. مررت أمام شارع كبير عرضه، وكان به بيت واحد فقط في أحد طرفيه، وينتهي إلى الحقول.

بعيدًا، كانت الشواطئ مليئة بأشجار السنديان الصغيرة والمستكة والزيتون والبروق الأبيض، والتي كانت تغمر الليل برائحة حريفة. كانت هناك قرية ترتعش، بأضوائها الضعيفة المتباعدة، بين الحقول والشواطئ.

-كيف حالك يا رامايو؟

إنه مانويل ثيبا. إنه صديقي، يعمل ميكانيكيًّا، في التاسعة عشرة من عمره.

-لم أتوقع لقاءك يا ثيبا. لم أتوقع لقاءك يا ثيبا.

- يا للحياة التي تعيشها هناك، في الجبل. هل عددكم كبير؟

- بين الرجال والنساء، مئة. وفي عنبري يوجد عشرون. هناك فصل بين الرجال والنساء.

- هذا أمر سيئ.

-يا رجل!

-كم عمرك الآن؟

-عشرون عامًا.

- أنا تسعة عشر. سأذهب للخدمة هذا العام. متطوعًا.

-سأنتظر حتى يتم استدعاء دفعتي. ربما أحصل على إعفاء بسبب عدم اللياقة الطبية. عدم لياقة جزئي. أنتظر أن يصدروا قرارًا بعدم اللياقة الجزئي على الأقل.

-هل تود أن تحصل على شهادة عدم اللياقة الطبية في مكتب التجنيد؟

- نعم. أريد هذا. لا يمكنني تحمل الزي الرسمي. ليس لأن الزي الرسمي صعبَ التحمل. لكن لأن المرء سيبدو غريبًا بالسترة العسكرية والقبعة مقارنةً بهيئته عندما يرتدي ملابس مدنية. لا يمكنني. أنا أكون كالوحش عندما أكون بمفردي فقط.

-أنا أرغب بشدة في الذهاب للمعسكر. ليس من أجل أي شيء. إنما لكي أكون شريرًا. هنا في القرية، عندما يكون المرء شريرًا، يشعر بالحزن، لأنه يجب أن يتحمل بمفرده كل الأمور السيئة التي يقترفها، وعندما يمر بلحظة صعبة، يتذكر عائلته. الوضع مختلف في الجيش. كل شيء في الجيش، من السترة العسكرية حتى الحذاء، يُعتبر معدات الخدمة. المرء يكون مغطى في الخدمة العسكرية. خلال عامي الخدمة العسكرية، يقوم المرء بكل شيء كأنه عار تمامًا.

قلتُ لمانويل ثيبا:

-أسهل شيء في الخدمة العسكرية هو الاعتراف. يقول ميكيل دوران إنه لم يكن يعترف مُطلقًا، لكنه اعترف ذات يوم في الإمداد والتموين. لم يشعر بالخجل من هذا. قال إن الأب كان يسمع اعترافه بينما كان جالسًا على مقعد، في عنبر النوم، وكان الجميع في طابور انتظار، في الخارج، دون قبعة، بيدٍ فوق الأخرى والذراعان ممدودين إلى أسفل. يقول ميكيل دوران إنه شعر بالبرد عندما افتقد قهقهات الجنود بعدما قال كل الأشياء التي قام بها. تأثر ميكيل دوران عندما استبدل الكاهن القهقهات ببضع كلمات قليلة حول دم المسيح، قال له إن القدرة على التلهي في الحياة شيء مرعب، خاصة إن كان نعل حذائه مبللًا بدم المسيح لكثرة ما سار عليه. الجنود في طابور في الممر قالوا إن وجه ميكيل دوران لم يعد كوجه عازف جيتار عندما خرج من عنبر النوم.

– لا تصدق أن الجنود أثناء الخدمة العسكرية يفكرون في هذه الأمور التي يفكر بها ميكيل دوران. في الخدمة العسكرية يرتعش المرء قليلًا أثناء الدروس النظرية خوفًا من سؤال حول أجزاء مدفع ماوسير. أحيانًا يكون هناك الكثير من الخوف في الدروس النظرية، لدرجة أن النجوم التي يحملها قائد على كتفه تبدو سؤالًا صعبًا. هذا لأن الضباط يصيحون كثيرًا. دون سبب. مجرد عادة. وأيضًا، لأن الجنود يكونون مُحبطين لأنهم بعيدون عن قراهم ولأنهم يفتقدون السترة الصوفية والحقل. الضباط ليسوا أشرارًا. يصرخون لكي يستيقظ المجندون، لكي يفيقوا. سألوا أخي عن أجزاء البندقية أثناء الدرس النظري، ولم يستطع النطق. كان يعرف كل الأجزاء لكن لسانه كان معقودًا. الشاويش، الذي كان اسمه ألسوا، وكان من مدينة لوجرونيو، أمسك بحزام أخي وقال: «سأسحق خصيتيك وسأ....» وهنا انخرط أخي في البكاء، وأعطاه الشاويش سيجارة تشيستر دون أن يقول له أي شيء، ولكي يدخنها بهدوء، أعطى كل مجند في الفرقة سيجارة. بعد ذلك، عدَّدَ أخي بأجزاء البندقية بهدوء، كأنه يذكر محافظات إسبانيا.

في نهاية الشارع من دون بيوت كنت أرى كل عتمة الحقول وأنوار القرية المجاورة. كانت أنوارًا شاحبة بجوار النجوم الناصعة في البحر. في نهاية الشارع من دون بيوت، كان هناك ضجيج صادر عن أرض مليئة بالبوص العالي، والذي كان يتمايل

تحت الرياح الرطبة التي تهب فوق الحقول. كان نقيق الضفادع في بركة ماء آسن يكسر صمت الليل. وكانت النجوم الكثيرة، التي كان عددها يتزايد، ترتعش لامعة في الهواء. كما كانت أنوار المصنع تمثل رفقة للمرء مثل دقات الساعة أو جنديّي الحرس المدني.

-كل هذه الأشياء ليست سوى عبور الحياة. الحياة في قرية تشبه إطلاق النار من خلف دشمة. الحياة في القرية تشبه الحياة خلف الكثير من أكياس الرمل يا رامايو. الحياة العسكرية أكثر حيوية. الحياة في المعسكر تشبه قطعة لحم نيئة. أعتقد أن رؤية الجنود في الفرقة، عراة ومبتهجين، يسيرون في جماعات ويتحدثون عن الحياة في الخدمة، دون اختلاق أي شيء، هو الخبرة التي يحتاجها المرء لكي يغرس عصا أو السونكي في عنق الجندي الموجود على الجانب الآخر من الدشمة. وينتهي كل شيء، دون الشعور بأي شيء سوى مرارة في الحلق أو رغبة لا تقاوم في الاستحمام.

- غرسُ سونكي... هذا أمر سيئ. أمر سيئ.

- في العنق.

-أحيانًا يجب غرسه في العين. لأن عنق السترة العسكرية يكون مرفوعًا.

-هذا سيئ.

-والجذب بقوة لإخراج السونكي، لا بدَّ أنه أمر مؤثر. يقف المرء على قدميه فوق الصدر، يجذب، فيخرج السونكي.

-يُقال إن القتل يُشعرك بالأمان.

-هذا ما يقولون.

-لا بد أنه يشعرك بالبرد...

- الدم مفزع.

- نعم.

-أكثر إفزاعًا من الموت.

-لا أعرف. لا أريد الموت في الفراش مُطلقًا. هذا يشبه الموت بعد محاكمة. مثل الموت إعدامًا بالرصاص. العائلة التي تنتظر، ساعة البيت، النور الذي يدخل عبر النافذة، أصوات الشارع، كل شيء يتحول إلى ساعة. عندما يوشك المرء على الموت، يجب أن يُترك بمفرده.

-هذا حقيقي.

-شعور الإنسان بإنسانيته لحظة الموت أعلى من أي لحظة أخرى. هذا ما يقولون. لأنه يكون بمفرده تمامًا. دون أن يعطي أي شيء. دون أن يأخذ أي شيء. يمتلك كل شيء: الطريق، الأرض، الخوف، الحنان، الحياة. لكن دون أن يستخدمها. إنه فقط يمتلكها. دون أن يستطيع الإبقاء عليها. الموت قاعدة رهبانية يعيشها المرء بأكملها خلال ساعتين.

–لا أعرف. إن الرفقة هي ما تضفي قسوةً على الموت، رعب رؤية كيف يموت المرء، بيد فوق الأخرى، في انتظار النهاية.

–هذا حقيقي.

–هذا يبدو وحشيًّا. لكنني أعتقد أن القتل هو أقل طرق الموت رعبًا.

نظر مانويل ثيبا إلى عينيَّ. تقدَّم خطوة نحوي. وضع مانويل ثيبا يدًا على كتفي. مرر لسانه على شفتيه.

–ماذا بك؟

–لا شيء.

–أود ألا أكون قد قلت شيئًا جارحًا يا رامايو.

–انسَ هذا الأمر يا رجل.

–لم تكن نيتي...

–ما رأيك بالقتل؟

–لا أعرف. المقتول، إن أمكنه المرور بالاحتضار بذهن ناصع، يمكنه إدراك أنه لا يموت، وإنما هناك من يهبه الموت. أقوى مشاعر المقتول هو اتحاده بقاتله. وداخل هذا الاضطراب العنيف، لا يمكن أن يميز المقتول بين الحب المضاد الذي يشعر به تجاه من يمنحه الموت، ويحمل خطيئة كأن كل حياة الميت تتحول إلى ألم واحد

مؤذٍ. لقد قرأت هذا.

النجوم في الأعالي مكتملة وقوية. وأنا ومانويل ثيبا وكلنا جميعًا، بين النجوم. أفكار الخطيئة بين الهواء الرطب، والبوص والنجوم.

-هل تذكر يا رامايو أننا تحدثنا عن أمورنا؟ دائمًا ما تحدثنا عن النساء.

- نعم. أودُّ الوقوع في العشق. لكن بشكل جاد. أن يشق عليَّ البوح بحبي، أن نذهب في رحلة إلى النهر أو إلى البحر قبل أن نصبح خطيبين. أساعدها في حمل الأكياس، وأنظر لها، وأساعدها في فتح علبة السردين. ووضع السردين على الخبز من أجلها. وأن تكون رغبتي بالكلام ضعيفة، في العصر، بين أشجار الصنوبر، عندما تحين ساعة ارتداء الملابس. يبدو أنني يجب أن أكون هكذا. أليس كذلك؟ أنا لا أفكر سوى بالعاهرات. أحزنُ أحيانًا، عندما أرى أنني لا أشعر بالخجل من خلع ملابسي أمام الآخرين. كأن لا شيء هناك. أخلع ملابسي كأنني لا أمتلك أي شيء.

-أنا أشعر بالخجل. حتى من أجل تجربة بنطلون.

-أنا لم أشعر بهذه الأشياء مُطلقًا يا ثيبا. كأن هناك وحلًا في دمي. دائمًا ما أتحدث مع نفسي. أنا مع نفسي دائمًا. كأنني في رفقة مع نفسي. أُفكرُ أحيانًا، وأقول هذا لك دون مواربة، إنني أود أن أكون شخصًا مثلك، أو مثل ميكيل تينا. دائمًا ما أتحدث مع الفتى الذي أود أن أكون. لكنني لا أسمي الأشياء بمسمياتها

يا ثيبا. أقول: أود أن أكون فتى شريرًا، وما أريد أن أقول هو: أود أن أكون مثلك أو مثل ميكيل تينا، أو إدوارد جيلي، لديكم أوقات حيث يتعكر مزاجكم، لكنها تمر بعد ذلك مثل عاصفة صيفية. أنا غارق في رطوبة تجعلني أرى كل الأشياء، لكن بعينيَّ المريضتين... إن عرفت يا ثيبا. اللعــ... على أمواتي. لقد اعتدتُ على الحياة في هذا الظل وعلى عض ذيلي مثل كلب، دون أن أرى أي شيء، ولمجرد الرد على سؤال عن الساعة، أو عدِّ عربات القطار الذي يمر، يبدو أنني أُولد من جديد.

-يمكنك العمل عندما تخرج من المصحة.

-نعم. أعتقد هذا. المدير أخبرني أن هذا ممكن.

-ستصبح رجلًا آخر إن حصلت على عمل.

-إنني لا أصلح تقريبًا. أشعر بالخجل من قول هذه الأشياء. أحيانًا أكون لامعًا في الحوار. قرأت كثيرًا. منذ طفولتي قرأت كثيرًا، كنت ألتهم الكتب تقريبًا. لكنني لا أصلح لكسب عيشي. لا. أنا أشعر بالخجل من قول هذه الأشياء. أتوه عندما أقوم بالطرح والقسمة. مثل طفل في فصل المتأخرين عقليًّا. أشعر بالخجل من قول هذه الأشياء. ما يحدث لي مع الرياضيات هو ذات ما يحدث مع النساء. هذا ما يحدث لي مع كل الأشياء التي تتطلب دقة. عندما أقوم بعملية ضرب تبادلي سهلة، أشعر براحة كبيرة كما يحدث عندما أعدُّ عربات القطار.

-إن عملت يا رامايو، ستصبح شخصًا آخر.

-إنني لا أستطيع يا ثيبا. كأنني ملتصق بذاتي. مثل أظفر. كأنني محكم الغلق. مثل أنابيب التصريف محكمة الربط، التي لا يوجد بها تسريبات...

-هل ستبقى بضعة أيام؟

- لا. سأعود للجبل. يوم الأربعاء. في العصر.

-سنلتقي مرة أخرى.

-نعم...

-تعال إلى برج الحمام. غدًا. ليلًا.

-نعم...

-هل ستقوم بجولة؟

- نعم. جولة.

وضع مانويل ثيبا يده على كتفي وقال:

-مساء الخير يا رامايو.

- إلى اللقاء يا ثيبا.

23

مانويل تُور

أندريو رامايو يترك خلفه لطخات وبقعًا. مثل الدخان. أندريو رامايو مثل الدخان. يترك خلفه لطخات وبقعًا. أنا مُسودٌ بسبب أندريو رامايو الذي يترك خلفه لطخات وبقعًا. مثل الدخان.

كنت أرى خطايا رامايو، خطايا شريرة لطفل، وكانت تفصلني عنه، كما يُنتظر، كما أبتعدُ عن العربات التي تمر في الشارع. إنها صفة أصيلة في شخصيته. أول ما رأيت كان هذا.

كنت أذهب مع جدي إلى عيد سانتا كانديدا كل عام. إن لم تخني الذاكرة يوم 10 أغسطس. كان جدي طويل القامة، بدينًا، وكان يضع نطاقًا أحمر حول خصره، الذي كان عريضًا مثل مدخنة سفينة. كان جدي صيادًا وكان يحمل شارة حارس مُحلَّف في حزام الحقيبة، حزام عريض مثل حزامات الحرس المدني. كان جدي مُتسلطًا، سريع الغضب وقاسيًا مثل محققي محاكم التفتيش. وكان يشرب العرقي. كان الرجل الوحيد في القرية الذي يحمل له شاويش الحرس المدني تصريحَ السلاح إلى بيته. كان سلاح جدي

ماركة ريمنجتون. الشاويش، النحيف، المريض بالقلب والذي كان طالبًا سابقًا في معهد للاهوت، كان يطلب من جدي أن يحمل له طائر حجل، ليس لأنه لا يحب الأرانب، وإنما لأن الأرانب البرية كانت تبدو له بمذاق الأعشاب البرية، ويسأله متى سيذهبان للعب الورق في الحانة، حيث فتحوا نافذة جديدة.

إن كنت أقول إن جدي كان سريع الغضب، فلكي يمكنك أن تفهم أنه لم يكن يدعوني للذهاب معه إلى عيد سانتا كانديدا. كان يأمرني بهذا. وإن قلت له إنني لا أريد الذهاب معه، لكان قد ترك علامة بحلقة الحزام على وجهي.

في ذلك العام بدأنا السفر قبل ثلاثة أيام كالعادة. أنا وجدي كنا نحمل خمس لفافات ضخمة في طريقنا لمحطة القطار. كانت اللفافات تفوح بالروائح ومربوطة بإتقان بحبل فيما بينها. لم يكن جدي لطيفًا أو حسن اللسان مثل قس القرية، لكنه في الحقيقة كان راجح العقل للغاية.

كان هناك فتي في الخامسة عشرة تقريبًا في البيت الذي كنا نذهب إليه -بيت صياد محترف مثل جدي- وكنت أشعر بالغيرة من هذا الفتى لأن شاربه قد نبت. لست شخصًا مُطيعًا أو أقبل الأوامر، لكن ذلك الفتي كان قادرًا على حملي إلى نهاية العالم، فقط لأن صوته قد تغير. الفتى هو جاومه جاليندو الذي مات في غرفة رقم 13، وكنت معه عندما مات. لم يحملني جاومه جاليندو إلى نهاية العالم، لكنه قدمني لأصدقائه، الذين كانوا يلعبون بالنحلة

الخشبية الدوارة في مدخل القرية، الذي كان ميدانًا صغيرًا به صليب وبضع أشجار لا أتذكر إن كانت أشجار سرو. كنا نجلس على الأرض، تحت الصليب. كان هناك فتى أشقر يحمل شريطًا لاصقًا فوق حاجبه، وأخذ يضحك بينما يشير لي بإصبعه.

-مم تضحك؟

-لأنك لم تربط كل أزرار البنطلون.

-اللعنــ... على أمواتي.

-لا توجد مشكلة يا رجل. هذا مضحك فقط.

-ما اسمك؟

-أنا تُور. وأنت؟

-أنا لويس كابيونك.

عندما رأى جاومه جاليندو وأصدقاؤه أنني أصبحت من مجموعتهم، حملوني إلى بيت على مبعدة نصف كيلومتر من الصليب في مدخل القرية. كان بيتًا قديمًا كبيرًا بجوار الطريق، وكانت رائحته قوية للغاية، مثل عربات البضائع في القطار. وكان هناك فناء كبير للغاية أمام البيت. كان كبيرًا مثل أفنية السجون. لكن أسوار الفناء كانت مطلية بالجير، وكانت به أربعة أصص ممتلئة بالزهور، واحد في كل ركن من أركان الفناء، وأتذكر أن الزهور كانت حمراء. كما كان هناك، في المنتصف، مشرب حجري،

مدور مثل حوض التعميد في كنيسة.

جلسنا فوق حجري طاحونة متجاورين بجوار مدخل البيت. كانت البوابة حجرية ودائرية، وعبرها يدخل ويخرج رجل في الأربعين من عمره تقريبًا، كان طويلًا، نحيف البطن والخصر مثل كلب الصيد. كان يرتدي بنطلونًا من القطيفة المضلعة السوداء، وكانت رائحته مزيجًا من الإسطبل واللبن. كانت واجهة البيت بيضاء، وكان بها ساعة شمسية، حيث كانت الأرقام مرسومة باللون الأسود، مثل رقم البيت. كانت هناك ثلاث نوافذ في الواجهة، في الطابق العلوي. كانت هناك زهور بيجونيا في إحداها، أو على الأقل هذا ما بدا لي. وفي نافذة أخرى كان هناك وعاء قديم مليء بالانبعاجات، وكانت هناك زهرة زرقاء كبيرة للغاية مرسومة عليه، مثل الزهور في صحون المطبخ.

أحببت الجلوس هناك كثيرًا، بينما أنظر لكل هذه الأشياء. كما يحدث عندما أدخل الكنيسة وأسمع عزف السيد رامون، عازف الأرغن، وكنت أجلس في الصف الأخير وأشعر براحة كبيرة ورغبة في أن أكون طيبًا. كنتُ مندهشًا لأن الرجل والمرأة مالكي ذلك البيت لم يقولا لنا أي شيء، وخمنت أنها لم تكن أول مرة يذهب فيها أصدقائي الجدد هناك.

كان جاومه جاليندو وأصدقاؤه صامتين، منكمشين على أنفسهم، بسيقانهم مضمومة، وأيديهم تحت الأفخاذ، كأنهم في مدرسة القرية. أنا أيضًا لم أكن أقول أي شيء، وهو أمر موات

دائمًا. لا بدَّ أنهم يعرفون سبب ذهابهم إلى ذلك البيت للجلوس على أحجار الطاحونة.

كنتُ أنظرُ إلى داخل البيت، الذي لم يكن جيد الإضاءة، والجدار المواجه، حيث كانت هناك بندقية مُعلقة، وتقويم بصورة رجل ممتطيًا حصانًا، وبضعة حروف كبيرة للغاية تقول: «نترات تشيلي». وعلى المائدة كان هناك أصيص به زهرة حمراء على هيئة جرس، وأعتقد أن اسمها الفوشية.

ذلك الرجل الذي يرتدي بنطلونًا من القطيفة المضلعة وكانت رائحته كالإسطبل، كان يغسل قدميه في وسط البيت. كان يغسلهما دون صابون، لكنه كان يفرك بقوة، وكان يمرر أصبع السبابة مرة تلو الأخرى بين أصابع قدميه. وفجأة توقف البخار عن الصعود من الماء في الإناء، وأصبح الماء بلون قذر، مائل للخضرة، ومليء بالقش الذي كان يطفو ويتحرك. بدأ يجفف قدميه، بساق فوق الأخرى، كما يقف الرجال في الصيف على رصيف الحانة. كانت ساقا ذلك الرجل بيضاوين، وشعرهما قليل، وفكرت أن البنطلون الطويل هو السبب في هذا لأنه لا يترك الشمس تنفد. عندما كان يغسل وجهه، رأيت أن شعر صدره فاتح اللون، كالمجندين الذين يؤدون الخدمة العسكرية، وفكرت أن ذلك الرجل لا بدّ أن يكون لطيف المعشر مثل الحلاقين والخياطين.

-جاليندو.

-ماذا؟

-ماذا ننتظر؟

-هل أنت مُتعب؟

-لا. ماذا ننتظر؟

-أن يصل الرجال بالبقر. والمُهرات. نحن نأتي كل يوم.

كان الفناء ذو الجدران المطلية بالجير، والمشرب والساعة الشمسية، يبدون مثيرين للانفعالات مثل صالة الانتظار. وأمام حجر الطاحونة، كان هناك برج جرس الكنيسة، الذي كنت أقارنه ببرج كنيسة قريتي، دون أن أعرف السبب. هذه الأمور تحدث دائمًا. في تلك اللحظة، كنت لأبدل برج كنيسة قريتي بالذي أراه أمام حجر الطاحونة، لأنه كان مطليًا باللون الأزرق.

بينما كنت أفكر في هذه الأمور، دخل رجلٌ يقود بقرة سوداء، بدينة، ليست عالية، والتي كان خوارها طويلًا كأن شيئًا يؤلمها. كان ذيل البقرة مرفوعًا متيبسًا وقذرًا.

تبادل جاومه جاليندو وأصدقاؤه النظرات، بينما كانت أيديهم بين سيقانهم، وهزوا أكتافهم. والفتى الذي كان يحمل شريطًا لاصقًا هز كتفيه أكثر من الآخرين. كان قرنا البقرة يحملان سلسلة مربوطة لامعة في الجزء العلوي، وصدئة في الجزء السفلي، الذي كان الرجل يمسك به. كان رأس البقرة مرتفعًا للغاية،

وكانت تحركه بعنفٍ من جانب لآخر. كانت تحاول رفع قائمتيها الأماميتين، لكن الرجل كان يجذب السلسلة إلى أسفل ويجعلها تُخفض رأسها. البقرة ترفع رأسها والرجل يجذب السلسلة، وكانا يدوران في الفناء لأن البقرة كانت تبحث عن الجدران لكي تسند قائمتيها الأماميتين. كان واضحًا أن البقرة تعاني عندما ترتطم قائمتاها بالجدار، لأن عمودها الفقري كان يتوتر وتمد عنقها وترفع خطمها المبلل كأنها تريد تقبيل الجير.

الرجلان، العامل في الحظيرة ومالك الحيوان، ربطا البقرة إلى حجر مدور في الحائط، وكان به ثقب لربط الماشية. ظلت البقرة بوجهها إلى الحائط. فتحا باب الإسطبل، باب أسود، قديم، من خشب التين، وكان مثقوبًا ومتعفنًا. فكا الثور الذي كان بجوار المأكل الحجري، وكان مربوطًا من قرنيه بسلسلة، وإن لم أكن مخطئًا، كان اسمها «مقود.“

لم يكن الثور طويلًا. اتجه الثور ببطء ووقار إلى وسط الفناء، بينما يتساقط اللعاب من خطمه. اقترب من البقرة، التي لم تكن تستطيع رؤيته لأن عينيها كانتا ثابتتين على جير الحائط وضع خطمه فوق البقرة، ورفعت البقرة ذيلها الأسود. في أحد أركان الفناء كانت أوراق الزنبق بزهورها الطويلة تتحرك لامعة.

عندما عاد الثور إلى الحظيرة، تبادلنا النظرات في صمت، وبدا أن صداقتنا أصبحت أقوى، كما يحدث أحيانًا عندما يموت زميلٌ في المدرسة، وفي يوم الدفن، في العصر، نتحدث بصوت خفيض ويضع

كل منا يده على كتف الآخر دون أن ننتبه لهذا.

خرجنا من الفناء -كلٌّ بيدٍ في جيبٍ والأخرى على كتف الزميل- وذهبنا إلى الكنيسة حيث لا يوجد أي شخص في تلك الساعة. جاومه جاليندو الذي كان أحد خدام المذبح، فتح لنا غرفة خزانة الكنيسة، باب دائري، خشبه متعفن، وعليه لوح صفيح مثبت بالمسامير. كانت غرفة خزانة الكنيسة عبارة عن عنبر طويل، به دواليب على الجانبين، وكان الضوء يدخلها عبر قبة مطلية بالجير وبها أربع نوافذ صغيرة من الزجاج. وفي وسط غرفة خزانة الكنيسة، داخل مصلى ليس بالعميق، يوجد دولاب عال، من الماهوجني، بأقفال من الصفيح. وفوق الدولاب كانت هناك مرآة كبيرة مائلة، وعلى جانبيها يوجد لوحتان. وفوق مترين، يوجد صليب بالحجم الطبيعي مُعلقًا على الجدار. كان مغطى بالغبار، فوق قطعة نسيج حمراء، مليئة ببقع الرطوبة التي كانت حوافها صفراء.

- أين القط؟

وضع جاومه جاليندو إصبعًا في أنفه، كان واثقًا بينما يقول:

- فوق.

مررنا أمام المذبح حيث كانت خزانة البرشان، كان مذبحًا من الحجر الأبيض، ويوجد فوقه ستة شمعدانات مذهبة وإبريقان زجاجيان نحيفان، مرسوم عليهما بضع زهور سوسن صفراء. في الحقيقة، لم أكن راغبًا في تلك اللحظة بالصعود إلى أعلى لقتل

القط الذي كان بمفرده. كنت أفضل البقاء جالسًا على أحد هذه المقاعد الجلدية وتأمل المفرش الأبيض والمصابيح وغرفة الاعتراف الفارغة، حيث كان وشاح العنق مُعلقًا على الباب الصغير والستارة الأرجوانية مضمومة إلى جانب.

صعدنا سلم الكورس المنحدر الطويل، ذا الدرجات المهترئة، وبه درابزين من الخشب المتعفن. كانت أرض الكورس من البلاط الحجري، المليء بنقاط الشمع، وأعتقد أنه من الصعوبة بمكان إطلاق اسم كورس على دكتين من الخشب المسوس ومقعد من الخشب المطلي بلون داكن، وحامل أوراق في الوسط، ويعلم الرب كيف كان مستقيمًا لأن الخشب كان متعفنًا. وفي أحد الأركان كانت هناك كومة من الأخشاب والهياكل والقماش المرسوم، والتي كانت أدوات «الخميس المقدس» مفكوكة. وأتذكر وجود ملاك عليه رداء أحمر ويحمل شعلة تبدو كمصباح كيروسين.

دخلنا صالة ليست بالكبيرة، أرضيتها غير مبلطة، وكان بها بضعة دولايب خشبها مسوس، مليئة بالزهور الصناعية والشمعدانات التي كانت ذهبية ذات يوم، والصلبان بيدٍ مغروسة بها والأكاليل من الصفيح حيث كانت أجزاؤها الداخلية تحمل مسامير. كانت هناك نافذة كبيرة أمام هذه القاعة. كانت النافذة مفتوحة، ومنها يمكن رؤية شجرة حور كبيرة أمام الكنيسة ولافتة دكان الحلاقة بحروف صفراء تقول: «حلاقة مارتي“.

صعدنا سلمًا من الطوب النيئ ولم يكن به درابزين. دخلنا ممرًّا

ضيقًا، مظلمًا، مليئًا بالغبار والألواح القديمة المسنودة إلى الجدار. وعلى اليسار كانت هناك ردهة منخفضة السقف، وكان تجويف الباب لا يحتوي إلا على الإطار فقط، وتفضي الردهة إلى غرفة حيث كانت الجدران وعوارض السقف مليئة بالزهور الصناعية، والزهور من الورق الحريري والورق المقوى الكرتوني والقماش المنشى، وزهور من الصفيح الملون. كان المكان كمقبرة القرية، حيث يحتفظ متعهد الدفن بالتيجان الصناعية في صندوق مدور.

-القط هنا.

تقدَّم الفتى الذي يحمل شريطًا لاصقًا، وكان اسمه كابونيك، خطوة واسعة، سريعة ووضع قدمًا على عنق القط وضغط بقوة. ماء القط بيأس، بفمه مفتوحًا، كاشفًا عن أسنانه الصغيرة المنتظمة، ومُخرجًا لسانه الرفيع، وردي اللون. كان الفتى الذي يحمل شريطًا لاصقًا يضغط بحذائه ببطء، والقط يصدر صوتًا خشنًا. وفي الحقيقة كنت أشعر بالشفقة عليه. وضع جاومه جاليندو وبقية الفتيان أقدامهم على سيقان القط، لكي لا يمكنه غرس مخالبه. أصبح القط مستلقيًا على ظهره، ببطنه إلى أعلى، بطن ممتلئ، دافئ، بشعر أسود يصعد ويهبط فوق قلبه، مع إيقاع حشرجات الحيوان. انحنى الفتى الذي كان يضغط بحذائه. انحنى ببطء دون أن يرفع قدمه. مال بجسده إلى اليمين لكي يضع يده في جيبه. أخرج النحلة الخشبية والحبل وألقاهما في أحد الأركان. بعد ذلك أخرج علبة سجائر تشيستر ووضعها على الأرض. بعد ذلك

وضع يده في أعماق جيبه ثم لمع سكين صغير بين أصابعه.

كان مقبضه أسود ونصله الحديدي مليئًا بالثلمات. أخذ يصعد بقدمه التي تضغط العنق، ببطء، حتى وضعها فوق الرأس. أصبح العنق مكشوفًا، لامعًا وأبيض. وغرس الفتى السكين أربع مرات متتابعة. استمر بقدمه فوق الرأس، وتدفق الدم ثخينًا، أسود وساخنًا. بدا أن القط أصبح أطول وأكثر نحافة. كان ينظر لنا مليًّا، بفمه مفتوح، ويجتهد مرات أخرى ليرفع رأسه التي تعود للسقوط، في ذات الموضع دائمًا. استغرق عشر دقائق حتى مات. عندما مات، كان هناك ضوء قليل في الغرفة، وارتكب جاومه جاليندو ولويس كابونك والآخرون الخطيئةَ قبل الخروج للممر.

خرجت بمفردي واتجهت إلى غرفة خزانة الكنيسة، ثم نزلوا ونظروا في المرآة، وكان يبدو أن سيقانهم أطول وأنهم أكثر نحافة، وكانوا ينظرون لأنفسهم كأنهم يقولون وداعًا لصديق، ثم ربطوا الأحزمة على ثلاثة ثقوب أضيق من قبل.

24

الأخت فرانشيسكا لونا

أقولُ للرب:

عندما كنت طفلة في الثانية عشرة من عمري، كنت أذهب لرؤية الأولاد الذين يخرجون من المدرسة في العصر. كانت المدرسة محاطة بسور من ذات قامتي. كانت المدرسة وسط فناء كبير، حيث توجد أشجار توت وصنوبر، مزروعة بالتتالي، واحدة من كل صنف تلو الأخرى. شجرة توت ثم شجرة صنوبر، شجرة توت ثم شجرة صنوبر، شجرة توت ثم شجرة صنوبر، بطول الفناء، وفي المنتصف يوجد مبنى المدرسة الأبيض.

كنت أنتظر أندريو رامايو، الذي كان من قريتي، كان فتى سيئًا وغير مهندم، وجهه مليء بالحبر ويمسح أنفه في كم السترة. كنت أميلُ إليه، لأنه كان يمر في الميدان يوم الأحد، بوجهه مشرقًا وفرق الشعر متقن، كأنه خرج لتوه من البحر. كنت بمفردي، متكئةً على السور، بجبهتي تلامس الشبكة المعدنية، التي كانت تنهض بارتفاع متر فوق السور الحجري.

عندما يخرج الأولاد من الفصول، كانوا يصيحون بقوة، مثل الطيور لدى شروق الشمس. أصابني أندريو رامايو في منتصف جبهتي بحجر ألقاه بنبلته. ما إن رفعت يدي عن الجرح، حتى رأيت الدم يسيل من أصابعي. كان الألم قويًّا للغاية يا سيدي، مثل ألم عدم الوصول إلى الموت. لكنني كنت أفكر أن ارتطام الجحر بعظام الجبهة هو العنف الذي خرج من قلب أندريو رامايو. لكن بعد نزفي للدم، سيصبح أندريو أكثر عذوبة، لأن حجرًا سينقص من صدره القاسي. بعد ذلك، في الفراش، ليلًا، كنت أفكر أنني لن أستطيع التقافز مرة أخرى في الشارع، في ساعة العصر، كما كنت أفعل في الماضي، لأنني لن أرغب بهذا، لأن وقت المعاناة في صمت قد حان، لأن طفلًا جرحني جرحًا نازفًا، فأصبح هو أكثر عذوبة وأصبحت أنا أكثر قسوة.

اربطوا حياته بوتد إلى عنقه، لكي يرفع رأسه ببهجة ولا تبرز عظام وجهه، لكي يصل إلى السكون الذي يترك كل الأعضاء في سلام.

العنابر مليئة بالنوافذ. بياضها لامعٌ في الشمس، بالزجاج متقدًا، كالمرايا، بسبب أشعة الضوء. خرير الماء يصدر عن العنابر. الأب جابرييل يدخل الجراج. يتحدث مع أجوستي آلكانترا الذي يُصلح شاحنة الإداري.

شردتُ. معذرة يا سيدي.

قميص أندريو رامايو قديم للغاية. عندما يعود من القرية سأعطيه قميصًا بنيًّا من ملابس خوستو باستُور. سأغير الحروف الأولى وأعطيه.

25

أندريو رامايو

الميدان مُربع، ليس بالكبير، محاط بأشجار توت زاهية الخضرة. بين شجرة توت وأخرى، توجد دكك خشبية مطلية باللون الأخضر. معسكر الحرس المدني أمام الميدان، ببنائه غير المنتظم، المليء بنوافذ من أحجام مختلفة. كان المبنى كتلة رمادية توحي بالبرد. كانت الواجهة مطلية بالجير وكان بها نطاق من أسمنت بورتلاند من طرف إلى آخر. أطر النوافذ وإطار المدخل كانوا مغطين بأسمنت بورتلاند أيضًا. وفوق بوابة الدخول، التي كانت ضيقة، توجد لافتة خشبية، مطيلة باللون الرمادي، وتقول: «كل شيء من أجل الوطن». كان صاري العلم المثبت إلى نافذة الشرفة طويلًا وعاليًا وعاريًا في إطلالته على الميدان. يوجد مشرب حيوانات القرية بجوار المعسكر، تحت سقيفة طويلة من بلاط الأسقف والبوص، وكان يستند إلى ثمانية أعمدة من الحجر. وفي وسط مشرب الحيوانات، خلف الفتحة المُطلة على قناة كبيرة وشبه غائصة، كانت هناك البئر التي يصل عمقها إلى مئة وخمسين شبرًا، والساقية والإسطبل حيث كان الحمار، الذي يُقال إنه طويل،

عجوز وأبيض، وكانت ضلوعه بارزة في جلده، وممتلئ بالقروح الناتجة عن اللجام وذباب الخيل.

وفي وسط الميدان يوجد حوض حجري مدور، ممتلئ حتى حوافه بالماء، وكان يعكس النجوم المُحلقة فوق القرية، بينما كان صاري العلم مائلًا على الميدان. أمام المعسكر يوجد دكان أدوات حدادة بأبوابه مغلقة. كان هناك محراثان مستندان إلى الجدار ونبات القراص النابت بجوار المبنى يبدو رماديًّا في ضوء القمر. توجد الكنيسة أمام مشرب الحيوانات، بواجهتها الشبيهة بواجهة جمعية تعاونية، بشجرة سرو، وشجرة لا أعرف اسمها وثلاث أشجار آكاسيا أمام الباب. وعلى أحد جانبي الواجهة، توجد قائمة بأسماء الجنود من أبناء القرية الذين ماتوا في حرب 1936. وعلى الجانب الآخر، بضعة حروف سوداء وفضية تقول: «خوسيه أنطونيو بريمو دي ريبيرا: حاضر.“

على الجانب الآخر من الكنيسة، وأمام سور رمادي متقشر، كانت مشرب الماء ينقط، حيث كان صنبوره صدئًا وكان يبدو كأنه مُثبت في تجويف بزاوية حادة. كان مشرب الماء مزينًا بفسيفساء من الزهور الصفراء والزرقاء، وفي الجزء العلوي توجد لوحة فسيفساء كبيرة بحروف زرقاء: 1926. كانت هناك أعشاب برية خضراء كبيرة تنمو حول المشرب.

(الإنسان هو كل البشر. والموت أحيانًا لا يحدث بسبب الاختناق أو بسبب تدهور داخلي. الموت يحدث أحيانًا بسبب حقل خضروات

يمتلكه القاتل، بسبب قميص أبيض أو بسبب طاقم أسنان جديد. الإنسان الذي يُخرج الدم للنور، لا يكترث بخطيئة الدم، وإنما بسنابل الشعير وحبات البطاطس. ابن الإنسان يرتكب الخطيئة مثل من يلقي نترات في حقل، مثل من يبني جدارًا من الأحجار دون مادة لاصقة. ابن الإنسان يرتكب الخطيئة كأنه يعمل ساعات إضافية...).

أُفكرُ: سلم السيد أوجيني موريل يرهقني. أُشعر: قفصي الصدري يصدر صفيرًا مثل بطن سمكة مفتوحة بالسكين.

(أحيانًا يجب على ابن الإنسان أن يتسبب في الموت كمن يصنع عربة أو ينشئ جسرًا حديديًّا لنقل ألم الحياة، لأننا نشعر في أحيان كثيرة أن الحياة تشبه الشعور بضربة حجر في عظام الساق.

إن الإنسان الذي يقع في خطيئة دم إنسان آخر، يشبه الرجل الذي يكسر عنق ثور هائج، حيث تقوم ملوحة الدم بنزع ذلك الهياج من حضوره. سينساق خلف بياض الطريق أو في عتمة طريق مختصر لكي لا يمسك به من يجهلون أنه وضع إبهاميه على حنجرة إنسان، لكي لا يرهن حقله أو مخبزه أو طاحونته الحجرية، لأن الحقل والمخبز والطاحونة الحجرية هي حياته) .

أنا مُرهق.

(قتل إنسان يشبه السقوط بالملابس في الماء. عندما يخرج ابن الإنسان من الماء، تكون ملابسه ملتصقة بالجلد، وكل الناس يرون

بروز صدره، هيئة فخذيه وأجزاءه الحميمية) .

توجد نافذة ذات إطار في الجدار المطلي بالجير، والسكون المعتاد للنجوم. أمام الجدار المواجه، كان هناك رجل يرتدي قميصًا، كانت يداه على هيئة معزقة فوق حجر النافذة، حرَّك رأسه فجأة إلى اليمين. كان حجر النافذة يصل حتى نهاية فخذه، وكان يضغط بطنه على حافة الحجر. بدأ ضوء القمر في إضاءة القرية. الأسقف تلمع، باردة، مائلة للزرقة، متماهية مع مدخنات المدفآت.

أُفكرُ: قفصي الصدري لم يعد يصدر صفيرًا.

أشعرُ: الباب أعلى مني، بمقدار ذراعين، حسب قياس الأذرع البشرية. الباب من خشب البلوط. كان خشب الباب مسودًّا بفعل مادة كيميائية.

كانت هناك سبع عُقد في الجزء العلوي من خشب الباب، وبالنسبة لي يبدأ الجزء العلوي من القفل، الذي كان من الحديد، عريضًا مثل راحة اليد لموظف مكتب. كان خشب الباب ثقيلًا، قويًّا، ويحول بين قوة رغبتي في الجلوس والمقاعد اللامعة الخاوية الموجودة على الجانب الآخر.

الآن ألمس الباب بطرف حذائي، وكل رغبتي هي سرقة السيد أوجيني موريل وقتله لكي لا ينظر لي مرة أخرى أو يهديني علب تبغ فضية تتفتت مثل الزغب في الحقول. أنا خائف.

أُفكرُ: كل شيء يحفزني.

أشعرُ: رغبة كبيرة في التبول.

أقف أمام خشب البلوط وعُقد الباب، بفكرة وحيدة وهي القتل لأول مرة، كشخص مكرس حرفيًّا للسقوط في الذنب كما يمارس الرياضة لتنمية عضلاته...

يمكنني الجلوس على مقعد واطئ. أمام الباب. خلال وقت طويل. كل شيء سيصبح خطيئة: المقعد، الضجر، العينان الحمراوان لاعتيادهما على البقاء دائمًا أمام ذات الخشب، عدم معرفة لماذا ذهبت، لماذا أعود لهبوط السلم. الخجل، شبيه للغاية بجرأة تحمل الحياة أمام الباب، الشعور بحمى الشر كما تفور جثة داخل التابوت بعد تسعة أيام من الموت. لكن الإنسان يتوغل مثل الجذور أو الرطوبة. الإنسان لا يشبع أبدًا، مثل المعادن أو مثل الربيع. أنا الآن في مستوى رجل في الشارع، لأنني أقف أمام الباب. لكنني سأهبط أكثر. عندما يدق جرس الردهة، سأكون قد تقدمت في الهبوط على سلم الخطيئة الضيق. بعد ذلك سيكون كلُّ شيء تقدمًا: المرور في الممر، الجلوس على الأريكة، وضع يديَّ على عنقه. بعد ذلك سأغوص بيديَّ ببطء، مثل ورق التدخين الذي يسقط من النافذة، طوال كل وقت احتضاره.

بعد ذلك سأبقى بمفردي، داخل موته، ممتلئًا بالخطيئة بين كل البشر، متأملًا خطوت وتعبيرات كل الناس، مثل بضعة أراضٍ على ارتفاع ألف متر فوق مستوى البحر. سأظل في هذا العمق، متمسكًا بموته، مثل الطحلب بصخرة. الرجال في الشارع، الذين

لم يهبطوا، والشرطة، سيطرحون أجسادهم عليَّ. سيسيطرون عليَّ. مديته ستكون فوق حياتي أيضًا، ليس لكي ينفجر الشر مثل عصا مرنة، وإنما لأنني سأكون في أعمق مكان في الخطيئة وهم في المدخل. وكل ما يحملون -المدية والحزام- يكون فوقي مثل بريق القمر على الأرض.

ستصل رعشة الأعماق الحقيقية. سيحدث هذا عندما يصل لي الرجال الطوال، كأنهم يكتشفون كلمة «العدالة» أمام خطيئتي، وسيتصرفون كأنهم يعرفون أن خطيئة رجل تتجاوز نطاق الأرض؛ وسيبحثون إن كان الإنسان موجود في تخوم الرب. سينطقون أمامي بالكلمة الكبيرة «العدالة»، لأن الرب عادل، كأنهم يعبدون رائحة الرب في خطيئتي. سيقولون «العدالة» كأنهم يخافون لأنهم سيقتلعون إنسانًا من النشوة الشريرة للسيد. الخطيئة معبد يدخل فيه الإنسان بشكل غير مفهوم، لأنه يعرف أن براءته ستجعله يبكي...

إنه عقاب جديرٌ بكلب أن تنحصر خطيئة المرء في إنفاذ العدالة بيده.

أجذب سلسلة الجرس، وتلمع النجوم فوق الأسطح. توجد حصيرة من القش المصبوغ خلف الباب. شريط أحمر، شريط أخضر، شريط أحمر، شريط أخضر، شريط أحمر، شريط أخضر، شريط أحمر، شريط أخضر.

-رامايو.

-تأخرتُ لأن...

-لا يا رجل، لا...

-يصل المرء إلى بيته، وكالعادة كما تعرف...

-إنك تكبر في كل يوم يا رامايو.

-نعم...

-ذلك الهواء.

-نعم...

-في الريف. من يمضون فترة في الريف يعودون لقراهم بهيئة كملوك الغابة. لا أحد يعرف لماذا، إنه الريف. -هل رأيت ورقة صحيفة في الريف؟ لا تبدو الأخبار هي ذات الأخبار. ولا أحد يعرف لماذا، إنه الريف.

-نعم، الريح قوية. الملابس تفقد صبغتها في المصحة.

جلسنا على الأريكة الخضراء. توجد وسادة خضراء بين العجوز وبيني. يدي فوق الوسادة. ذقن العجوز محلوق جيدًا. لا يوجد شعر في ذقنه تقريبًا. جلد العجوز مخضب بالحمرة. لديه سنة ذهبية. يفوح برائحة كولونيا. يحرك فخذيه باستمرار. يمرر لسانه على شفتيه باستمرار. يبدو أن العجوز يعيش أمام مرآة.

-لقد كبرت كثيرًا يا رامايو..

- نعم. هذا ما يقولون.

-لقد أصبحت رجلًا يا رامايو.

-اصمت.

-لا بدَّ أنك تلفت نظر النساء.

-لا يعرفن أنني موجود.

-عندما تسير في الشارع...

-لا يعرفن أنني موجود.

-بيديك في جيوبك...

-اصمت.

-طويلًا هكذا...

-وبالشعر مصففًا إلى الخلف...

-يوجد الكثير من الرجال في القرية.

يرتعش صوت العجوز، توجد دائرة حمراء فوق كل خدٍّ، مثل مرضى السُّل، ويتحدث كأنه يشعر بالبرد.

-لقد أصبحت رجلًا يا رامايو.

-اصمت...

مرَّر العجوز لسانه بشفته السفلى. قال:

-والتفكير أن الفتيان مثلك يا رامايو، الذين يكبرون اليوم بطريقة مدهشة -لأنك قد نموت كثيرًا لدرجة أن المرء يرغب في سؤالك إن كانت الريح تهب في الجبل- يصبحون أكثر سُمرةً ولمعانًا، بعيون مسلوقة. بعيون قامت النساء بسلقها. مثل مانويل ثيبا. كانت طلاقة لسان مانويل ثيبا أكبر من تلك التي يمتلكها محام، فيبدو أنه يعرف كل الخدع. دائمًا ما كان في رابطة صيد الحمامً. كان عضوًا في مجلس الإدارة. لم يكن يتحرك من ذلك المكان. يبدو أن الحقول لم تكن كافية له. كان يمر في الميدان بساقيه متباعدتين. كان يمكن لأتوبيس أن يمر بين ساقي مانويل ثيبا. ذَكَرٌ. بعد ذلك بدأ في الذهاب للرقص في بار «ثنترو»، وأنت تعرف معنى الرقص بار «ثنترو»، حيث كلهن طباخات وخادمات ومساعدات في المطابخ. دخل في علاقة مع إحداهن، وكان لها تاريخ مرضي، وكانت تتحدث زاعقة، وعندما تشخر تبدو كسارينة الجمعية التعاونية. وانظر تقلبات الحياة، في غمضة عين، أصبح يرتدي فانلة داخلية شتوية، وينام بكيس ماء ساخن، ويسير كأنه يمشي فوق قشر بيض. يرتدي قميصًا أحمر، ومع كل احترامي، كان يبدو كمريلة الجزار أكثر من أي شيء. دائمًا ما يحدث ذات الأمر: مع النساء يخضب وجهك بالحمرة كأنك لص دجاج. في الحقيقة فإن الأمر كما أقول لك: إنهن مثل أبو فروة على النار.

لأنني أخبرك بحقيقة الوضع: إنهن كسارينة الجمعية التعاونية، مهما كانت الساعة التي تصدر فيها، فدائمًا يكون هذا للإشارة لبدء العمل. تروح. تجيء. تقوم بجولة. وهن دائمًا في المنتصف مثل يوم الثلاثاء. معهن، يعتقد المرء أنه عثر على شيء نادر، مثل ورقة برسيم بأربع أوراق بدلًا من ثلاث. ويومًا بعد يوم، ثم يعتاد المرء على أن يكون وجهه كشخص تافه، مثل مفتشي القطارات أو عازفي الجيتار. لأنني أخبرك بحقيقة الوضع: الشيء الوحيد الذي يهمهن هو الراتب الثابت، الذي يأتي بانتظام كنقاط الماء المتساقطة من صنبور تالف. أنا أخبرك بحقيقة الوضع.

-هناك في الجبل، لا. الأمور تجري بطريقة مختلفة في المصحة. نتحدث عن النساء في شرفة العنبر. من يعانون من التهاب البلعوم (يعاني الكثيرون من التهاب البلعوم في الربيع)، يرسمون نساء عاريات على اللوح الذي يستخدمونه لكتابة احتياجاتهم. وفي بعض الأحيان يرسمون فقط شفاهًا مكتنزة، خطًّا عموديًّا على الحجر. هناك في الجبل، هذه الأمور تشبه فتح نافذة الغرفة في الصباح، بعينين منتفختين بسبب النوم السيئ. إنهم مثل فتح الصحيفة على صفحة الرياضة.

وعبر النافذة يمكن رؤية الأشجار السوداء في الفناء، منعكسة على النجوم البيضاء. شجرة سرو. شجرة أوكالبتوس. شجرة غار. شجرة زيتون. أقولها من الذاكرة. في المواجهة، فوق السور المطلي بالجير، توجد أسوار الأفنية الأخرى، الأسطح، الغرف العلوية.

كلها متتابعة.

وفي الفناء، فوق إحدى الأشجار، يغني عندليبٌ، ببهجة.

-ماذا بك؟

-أنا، لا شيء.

-بما أنك لا تتحدث...

غطاء الأريكة أخضر.

-إنني كنت أنظرُ...

أشعر بالهواء البارد على وجهي. كنت قد نسيت الهواء تقريبًا. وكنت هنا.

-إن لم تكن راغبًا بالكلام يا رامايو، لا تتحدث.

-أنا...

عاد العندليب للغناء فوق أشجار الفناء. وينتهي الآن.

-لا يجب أن تفكر وتتذكر أمور أمك كثيرًا. ولا حانة جوليان إسكوبار. أنا أعرف أن هذا يشبه انفتاح هوة تحت قدميك. لكن لا توجد سوى حياة واحدة. لا يجب التوقف أمام المنغصات. هذا سيشبه زرعها. لكي تنمو. يوجد رجالٌ ينامون مع المنغصات.

كأنهم ينامون مع امرأة. مثل أبيك. ومثلك. اقتلع المنغصات. مثلما يقتلع البستاني شجرة سرو.

-...

-إن لم تكن راغبًا بالكلام يا رامايو، لا تتحدث.

-لم أكن راغبًا بأن تقومَ...

-رامايو. هل هذا ممكن؟ إنك مثل طفل يا رامايو.

إنني أبكي. بعينيَّ مغلقتين بقوة. أضغط على أجفاني كأنني أضغط على أسناني.

-اُنظر يا رامايو، اُنظر.

أبكي بقوة أكبر. أسمعُ بكائي مثل لهاث قصير وثقيل لكلب يصل بلسانه خارج فمه تحت شمس نارية.

-اُنظر يا رامايو، اُنظر.

يد العجوز اليمنى فوق كتفي. أشعر بها كيدٍ قذرة. أبكي وأبتلع الهواء في دفقات كبيرة. أبتلع الهواء ثلاث مرات. صمتٌ. أبتلع الهواء مرتين بفمي المفتوح، أستنشق الهواء عبر أنفي. فمي مُغلق. صمتٌ قصيرٌ. أعود للبكاء. أستنشق الهواء، خمس مرات، بعمق، كأن اللهاث ينبحُ عليَّ. يضغط العجوز على عظام كتفي. بيده. أنخرط في البكاء. كأنني أعود لسماع اللهاث القصير لكلب يلفظ

كبده من فمه. كأن البكاء يشبه خلع البنطلون وسط الشارع، التواجد على الأرض يعني البكاء بقوة، وأنا أبكي الآن. البكاء يعني الجلوس في دكان الحلاقة، في عصر أيام الأحد.

-اُنظر يا رامايو، يا رامايو.

يعود العندليب للغناء في الفناء. فوق إحدى الأشجار. لقد انتهى الأمر.

أُفكرُ: الآن سيفقد العجوز كل ذكرياته، مثل زهرة تفقد كل أوراقها. كل العجوز سيصبح ممتلئًا بجوهري، وسيعتقد أنني أمنحه الموت.

أشعرُ: رغبة لا تُقاوم للتبول.

-رامايو، يا رجل، لا تضعف هكذا.

أدخلُ الآن. كأن شخصًا ما أغلق الباب خلفي، خلف ظهري. أنا حزين حتى موت العجوز. إنه حزن عميق، متواضع، مثل حزن الحيوانات. أشعر بحزن يائس حيث تنحصر القداسة في ارتكاب الخطايا دون رغبة.

-لماذا تنهض يا رامايو؟ لقد وصلت للتو. لا بدّ أن تُفكر في أمر آخر يا رامايو.

لقد حدث هذا عندما كنا نعيش في طاحونة الهواء التي كانت مِلك جيروني استرادا. كان هناك عجوز، وكان بحارًا في الماضي،

يعيش في بيت من ألواح ألياف الأسمنت بجوار طاحونة الهواء لم نكن نعرف عن العجوز سوى أن اسمه باكو وأنه كان نافخ بوق في الجيش في قرطاخينا. كان العجوز ضخم الجسد، ودائمًا كانت عيناه ثابتتين على الأفق. كأنه يرغب أن يكون الجو طيبًا في البحر. كان العجوز يمتلك إناء ممتلئًا بالبطاطس. عندما تغشى عيناه، كان يضع يده في الإناء ويأكل حتى يعود لوعيه.

لم تكن جدران بيته مطلية بالجير، وإنما كانت تحمل تقويمًا لمصنع متفجرات، وصورة قديمة لسيدة متشحة بالأسود وحزمة من أوراق التبغ. لم يكن العجوز يعمل. كان حزينًا.

لدى الخروج من المدرسة، كنت ألتقي بفرانشسيكا لونا، التي أصبحت راهبة الآن، راهبة في المصحة، وكنا نذهب للجلوس مع العجوز لأنه كان يحكي لنا أشياء عن قرطاخينا. كثيرًا ما كنت أجده مستلقيًا على حشية من القش. كان ينام عاريًا. ذهبت ذات مساء. كان متمددًا. لكن كانت ماسورة البندقية تحت إبطه. كان العجوز يبكي. قال:

-رامابيتو!

وأدركت أن العجوز يريد أن يموت، وقلت:

-هل تعرف يا باكو أن جريجوري سانتوس سيبيع لك الرمح ثلاثي الرأس مقابل مئتي بيزيتا؟ قال هذا في بار جوليان إسكوبار. لا يجب أن تسمح لجيروني استرادا أن يمتلك معدات أحدث من

معداتك يا باكو. كان يضحك منا ومنك ومني في حانة جوليان إسكوبار. لأننا بعنا السمك الصغير لمحل السمك، وبعنا السمك الكبير للمطعم. لأنه يحمل كل الصناديق إلى المدينة. في الشاحنة. جيروني استرادا لا يُقتر في كمية الثلج التي يجب أن يضعها في صناديق السمك أو في وقود الشاحنة أو في المال الذي يكلفه تناول الطعام في مطعم المدينة. جيروني استرادا لا يُقتر في أي شيء.

-يجب أن نشتري الرمح ثلاثي الرأس من جريجوري سانتوس. مئتا بيزيتا سعر للأصدقاء. بأسبوع من الحظ السعيد، يمكننا دفع ثمن الرمح ثلاثي الرؤوس.

-في أحيان كثيرة نخسر في العمل لأننا لا نمتلك المعدات المناسبة. خسرنا ثلاثمئة بيزيتا في الأسبوع الماضي، بسبب الطقس والمعدات القديمة يا باكو. جيروني استرادا يسخر منا ومنك ومني. جيروني استرادا يسخر من عماله أيضًا.

نهض باكو. علَّق البندقية على الحائط، بالماسورة إلى أسفل. كانت بندقية بروحين. فردَ البنطلون. كان باكو ينام برأسه مستندًا إلى البنطلون. أدخل ساقيه. ثبَّت الخصر بحزام جلدي، عريض للغاية، عرضه أربع أصابع تقريبًا. وخرج. اتجه إلى منطقة البوص وأشجار النخيل الجافة. كنت أسير خلفه في صمت. رفع عينيه فوق حقل مليء بالعيدان الجافة وشجيرات الزرود الذي يتحرك مع ريح المساء. بدأ العجوز في السير في الطريق الضيق الذي يمر بجوار بيته. كان طريقًا قد مهده بسيره من القرية إلى بيته، وإلى

يمينه توجد بركة محاطة بالبوص. جلس العجوز فوق حجر، بجوار الطريق. وظللت واقفًا بجواره. من هناك يمكن رؤية مقابر القرية. وخلف الحديد المشغول للباب، كانت هناك أحجار بيضاء وبضع زهور حمراء، كبيرة مثل قبضة اليد، وتلمع في الشمس.

-باكو.

كان العجوز يبكي. بوجهه بين يديه. في صمتٍ. خمنت أنه يبكي بسبب ارتعاشات كتفيه.

-باكو.

جلست إلى جواره. ليس لأنني طفل طيب. أقسمُ لا. فعلت هذا لأروح عنه. وضع يدي على ركبته. وأخذت أربت بأصابعي، كنت أتوقف، وكان وجهه يضيء. كنت أنظر له، ضاحكًا في صمت، وهو يحرك رأسه برقة، وكانت عيناه متقدتين، كأنه شرب كوبًا من الجين.

-رامايو، اجلس يا رجل. ماذا تفعل واقفًا. من الأفضل أن تفكر في أمر آخر.

وضعت يدًا على كتف العجوز. ببطء.

كان العجوز بدينًا.

-أنتم الشباب تشبهون عواصف أغسطس. أولًا ألوان بيضاء وبعد ذلك زرقاء. أنت طيب كالخبز يا رامايو. ستصل إلى حيث

تريد.

الآن أضع ركبتي بين ساقي العجوز.

-الفتيان مثلك يا رامايو، يصلون إلى حيث يريدون. يصلون إلى القمة. لم يكن قلبك قاسيًا مُطلقًا يا رامايو. عندما كنتَ طفلًا، ذات مرة نافخ بوق في الكتيبة...

العجوز جالسٌ على الأريكة. أغرس أصابعي في عنقه. أضع ركبةَ فوق صدره.

-رامايو، لاااااااااا.

الآن ركبتاي فوق صدر العجوز لكي أثبت ذراعيه. أُركز كل قوتي في الأصابع. يتشنج العجوز، بقوة قليلة.

-لاااااااااا.

عيناه جاحظتان. الأسنان الذهبية تلمع في فمه المفتوح. جسديَ يتفصد بالعرق. طاقتي تنضب.

أغرس أصابعي بكل قواي، ويتحرك رأس العجوز من جانب لآخر، كما يحدث عندما يتم كسر عود بوص. يغلق عينيه، ويظل الرأس مائلًا إلى اليسار في النهاية. يبدو أكثر نحافة. وجهه أزرق مائل للرمادي. مثل أوراق الأوكالبتوس النضرة. أطفئ النور

وأخرج. لا أشعر بذلك الأمان... أشعر فقط أنني حيوان مُروض. مثل الجير، الذي يتخثر بعد غليه. أطفئ نور الممر وأضع قدمي على السجادة الصغيرة من القش، بخطوط خضراء وحمراء. أفتح، وأخرجُ وأغلق. أضع يدًا على الباب. أدفع بعنف. إنه مُغلق. وعلى العتبة، تلمع النجوم عبر النافذة ببريقها المُعتاد فوق الأسطح والمدخنات. الشارع فارغ، صامت، بارد، بضوء القمر على واجهات البيوت. إن أكلتَ تفاحةً الآن، لن ألحظ مذاقها. كأنني لحدٌ فارغ يسير في شوارع الحرس المدني. ألحظ أنني متعرق، بسبب البرودة القوية التي أشعر بها في وجهي. اخترق الهواء الرطب، وها أنا أمام أشجار آكاسيا الكنيسة، الرطبة الحريفة. أقف أمام شبكة شباك حديدي في الكنيسة، كأنني أمضيت سبعة عشر عامًا في السجن وأعود إلى قريتي، حيث كانت البيوت مغلقة لأنني وصلت في القطار الأخير. في ذلك القطار المتأخر الذي لا ينتظره سوى ناظر المحطة وعامل التحويلة وعامل الحقائب.

لقد قتلت يا سيدي. لقد برهنت على إحدى قدراتي، وكأن الخطيئة عضو جنسي آخر في جسدي. قدرتي وقوتي سيجعلانني أبكي مثل طفل في الرابعة من عمره والذي يغطي وجهه بيديه عندما يكسر كوبًا. أبكي، ليس خوفًا من يدي أبي الضخمتين، وإنما بسبب الاندهاش الجديد إزاء قدرتي على التدمير. أنا أعتقد أن ضوء كل الأشياء مخلوق على صورتك، لكن عواقب الأشياء تصبُّ في مكان لا تعيش به. حيث أنت النقيض، حيث نشعر بالخوف مثل هؤلاء الفتيان الذين تنقصهم ساق، ويلتزم الأطفال الآخرون

أمامهم بصمت قاسٍ لأنهم يعرفون أن الساق الناقصة ستظل ناقصة طوال الحياة. أشعر بلعنة أن أكون مربوطًا، مستلقيًا على ظهري، فوق قانونك، بينما أشعر بعلامات إرادتك على جلدي. لا أحبك. إن كنتُ أحبك، لحفظت كلمتك كما جسَّدتها في شخصي. لا أشعر سوى بحاجة ملحة لك لأنني أحن لأيام البهجة في قلبي الهادئ. إن كانت نعمتك يومية في داخلي مثل الحياة، كنتَ ستعثر على نفسك داخلي. الجحيم هو وجوب الوقوع في الخطيئة لكي نجد أنفسنا كاملين، أنتَ مدمجٌ وأنا كاملٌ. الطبائع هي الجحيم. لكنني أتذكرك كأنما أتذكر الأمور اليومية والمعارف والخطوات المحمومة لأمي، عندما كنتُ طفلًا وكانت تدخل غرفتي، بصحن لبن ساخن، وكنت أشربه كأنني أشربها، وكانت في يدي مثل حبة قمح تنبتُ ورقة وساقًا وسنبلةً وعمرًا وعملًا وخوفًا من موتي.

26

أندريو رامايو

مساء الخميس، عندما رنَّ جرس الراحة في السابعة، دخلتُ غرفتك بينما كنتَ تمشط شعرك أمام المرآة. في ذاك المساء، بينما كنتُ جالسًا على فراشك، كنت أنتظر انتهاءك من تصفيف شعرك، ورأيت وجهك الشاحب، الطويل، باندماج عميق كأنك تتأمل الحقيقة. كنتُ أرى وجهي أيضًا في المرآة. لم يكن هناك فارق كبير بين هيئتك وهيئتي. الفارق الوحيد الذي أثر عليَّ هو السلام في ملامحك، وغياب الأمان من وجهي. في مرآتك، كنتُ شخصًا بلا تعبيرات، دون معنى. في تلك اللحظة، قررت أن أدفعك نحو الخطيئة، لأن براءتك كانت تؤلمني وتوقع بي الأذى.

أتذكرُ نظرات الاحتقار والكُره التي كان القسس يرمقونني بها أثناء الاعتراف. أتذكر آخر مرة ذهبت فيها لكنيسة اليسوعيين. بعد أن عدَّدت خطاياي، بصوت مرتعش، قال رجل عجوز، نحيف وصارم وأبوي إنه لا يفهم أن وجهي يمكن أن يكون وجهَ شخص مميز، في حين أنني شخص يجب أن يكرهه الرب بعنف رهيب.

خرجنا إلى الشرفة، حيث كان كل المرضى ممدين على التشيزلونج. كان كلٌّ منهم يحمل كتابًا في يديه، مُغلقًا وبأصبع السبابة داخله، كإشارة. كلهم كانوا يتأملون المساء والمدينة التي تبدأ في الإنارة من بعيد، والمطار البعيد لكن بمهابطه مرئية تمامًا، وحديقة المصحة بأحواض الزهور، البكورية الطبية، وزهور المريمية. وعائلة المدير التي تتمشى، حيث كانت الابنة تتقافز أمام الجميع مثل طائر.

كنا متجاورين في استلقائنا على التشيزلونج. بعد برهة من الصمت، وضعوا لنا الترمومتر. كانت العادة في كل مساء. بعد ذلك، كانت الممرضة تمر بالأوراق وتدون درجات الحرارة. كانت درجات حرارة عادية، 27.2 و36.9. تركتَ لي الترمومتر لأنني لم أكن أمتلك. كما لم أكن أمتلك مبصقة، لأنني لم أكن أفرز مخاطًا. لكي أجري تحليل البلغم في كل شهر، كانوا يضطرون لوضع مسبار عبر الأنف، من يعرف لماذا، وكنت أحب هذا. كان المسبار يجبرني على إمضاء كل الصباح بين الممرضات، وهكذا كانت مساعدات العنبر يحتفظن لي بالطعام في الصالة، وكُن يغطينه بصحن عميق لكي لا يبرد. يوم كان يضعون لي المسبار، كنتُ أعتبر نفسي فوق الآخرين. دائمًا ما حدثت لي هذا الأمور. في الأماكن التي توجد بها قواعد، كان الخروج على الروتين، حتى وإن كان يعني شيئًا مثيرًا للضيق، يُعتبر تميزًا دائمًا.

–هل ستذهب هناك بعد جرس الصمت؟

– نعم.

-في أيِ ساعة.

- في الواحدة.

بعد كلماتك تلك، أدركت قدرتي على الإيحاء. لم يمكنني تخيل أنني استطعت إدهاشك لدرجة أنك قررت قتل براءتك، وأن تكون قد حددت الساعة («في الواحدة»، قلت هذا بصوت خفيض للغاية) للذهاب إلى غرفة رقم 22، غرفتي، لكي تتخلص من براءتك الأخلاقية التي تلفك. كنت أعتقد أن العمل الذي أتيت به داخلك لم يكن إبعادك عن براءتك، لأن الإبعاد يعني تمامًا أن المرء يمكن أن يعود. كان يجب أن أدمر براءتك، ومنذ تلك الساعة ستولد كرجل جديد في داخلك، وكل حياتك المُستقبلية ستصبح قائمة على الذنب.

كنتُ أقارنُ، بشكل عبثي، بين الحدة والطيبة اللتين عزمت بهما على جعلك شريرًا، بحبٍّ عنيف تجاه المسيح على الصليب، الذي كان يرى أنه لا يستطيع الابتعاد عن خطايا البشر بينما كان ينزف، لأن خطايا البشر هي دمهم، مثلما كان ذنبك هو دم عاري.

في ذات اللحظة التي كنت تمسك الترمومتر بين الإبهام والسبابة وتقول درجة الحرارة: 36.9، قلتُ:

-مانويل.

-ماذا؟

-أريد أن أقول لك شيئًا. الآن، قبل أن يدق جرس الصمت.

–قُل ما يجب أن تقول الآن.

–أنا أشعر بمسؤولية الخطيئة التي تقررها. هذه الليلة. إنني أرى الفارق بين رجلٍ يرتكب الخطيئة لأن شخصًا آخر أفسد أخلاقه، والخطيئة التي يقترفها رجل بذات الطريقة التي تمتلئ بها السماء بالسحب. دائمًا ما كنت من هذه الفئة من الأشخاص. عندما كنتُ طفلًا، كنت أنتقل من الخطيئة إلى الورع بذات التلقائية التي كنت أترك بها الكرة وأذهب للاستذكار. ذات يومٍ، بعد أن قرأت حياة بيير فوكلاود، التي أعارني إياها قس الكنيسة، بعد ذلك أغلقت باب البيت بالمفتاح، ذهبت إلى سقيفة في الحظيرة لأبحث عن حبلٍ. أخذت أكثرها صلابة ورُفعًا، وجدلت ضفيرة لأسوط نفسي بها. كنت بمفردي في المطبخ، عاريًا من خصري إلى أعلى، وجلدتُ نفسي حتى دقت ساعة منتصف النهار في الكنيسة. كان ظهري كله ينزف دمًا. دون أن أجففه، ذهبت للبحث عن العهد الجديد الذي كنا نضعه فوق مائدةٍ، وضعت ذراعيَّ على هيئة صليب وقرأت الآلام بحسب إنجيل القديس متى. بعد ذلك، خلعت ملابسي لأغسل الدم، وبعد أن اغتسلت بالماء البارد، بينما كنت أجفف جسدي بالفوطة، ارتكبت إساءة بحق المسيح. ربما كانت كل الذنوب التي ألقيتها على الأرض هي عرقي ودمي في بستان أشجار الزيتون ذاك يا مانويل.

وبعد ذلك، بعدما وضعتَ الترمومتر في جيبك، التفتَّ نحوي وقلتَ:

- أنت لن تكون حاضرًا في الأفعال التي سأقترفها. هذه الأمور تؤلمك. لكنك لن تستطيع الذهاب حيثما ذهبت. عندما أرتكبُ الخطيئة، لن أتبعك أنت، أنت يا من أفسدني؛ سأتبع نفسي. لن يمكنك مساعدتي على اكتشاف الشر لأنك علَّمتني إياه، وأنا سأقترفه. نحن نهب الشر بعضنا لبعض، ونقترفه بمفردنا، كأننا لم نتلقه وكأن الشر جزءٌ من طبائعنا. نهاية برائتي ستتركك في وحدة كبيرة، وستكون رفقةَ لي. لأنك ستحتفظ ببرائتي، والبراءة تُسبب الكثير من الوحدة والعزلة أمام وحول المرء. أعرف أن ما يثير ضيقك (يرتعش صوتك كثيرًا عندما تحكي بعض الأشياء!) ليس سوى حُب لبرائتي، رغبةً لرؤيتي ملهوفًا وليس خاطيًا. لا بدّ أنك ستنفر من رؤيتي بينما أرتكب الخطيئة. أنت، لأنك لا تمتك هبة الثقة، تبحث في شخصي عن دليل واضح على قوتي.

"***سلامي أعطيك. سلامي أترك لك***[10]. وبالنظر للأمر في ظل هذا الواقع، ***لست أَنْتَ من اختارني، بَلْ اخْتَرْتُك أنا، لكي تخلد ثمرتك وهي الشر، في شخصي.***[11]

لكنك سترى مثلي، من منظور حياتي الجديدة كإنسان، سأرسل لك معزٍّ. «***وَمَتَى جَاءَ الْمُعَزِّي الَّذِي سَأُرْسِلُهُ أَنَا إِلَيْكُمْ مِنَ الآبِ، رُوحُ الْحَقِّ، الَّذِي مِنْ عِنْدِ الآبِ يَنْبَثِقُ، فَهُوَ يَشْهَدُ لِي***[12]. هذه الشهادة ستكون الدليل على أن حياتي البريئة هي ما تجعلك خاطيًا.

10- إنجيل يوحنا، 14: 27. بتصرف في الأصل.
11- إنجيل يوحنا، 15: 16. بتصرف في الأصل.
12- إنجيل يوحنا، 15: 26 .

وسيكون ذنبي هو ما يجبرك على تأمل نقائي، وهذه ستكون الطريقة المتناقضة والمأساوية والتي سنحب بعضنا بعضًا، مثل البشر، بعضهم لبعض.

كنت أنظر إلى صف التشيزلونج، كلها مشغولة. من اليمين إلى اليسار: خيسوس لابوردا، الذي كان جنديًّا في الفيلق بالجيش في شفشاون، وخضع لعملية تنظير الصدر. جوردي بلاناس، الفقير، ابن الأرملة الذي يعاني من التهاب رئوي في الجانب الأيمن. جوسيب توس، ذو التسعة عشر عامًا، ابن الفلاحين من إيبيزا، التهاب رئوي في الجانبين، حالته خطيرة للغاية. جورج شميدت، إيرلندي، ستون عامًا، تليف في الرئة، مُطلق، مُستهلك كبير للثوم النيئ. في الصباح يفطر طبق نخالة شعير باللبن المتخثر وبرتقالاً. يرش الغرفة بمبيد حشري ثلاث مرات في اليوم. جوليان جومث، في الأربعين من عمره، أصلع، من مدينة ماهون. يقيم علاقة بخادمة نحيفة وشقراء تعمل في عنبر النساء، ثلاث مرات في الشهر، أيام 9 و19 و29، في السادسة صباحًا. أنطوني سيجي، في الثالثة والستين من عمره، عازف أرغن، الرجل الوحيد في المصحة الذي يمتلك مُنبهًا فوق الكومودينو. أنطونيو رودريجث، من غرناطة، صحفي من مدينة ماهون، ينتظر أن تشفى إحدى رئتيه ليجري عملية ترميم للرئة الأخرى. يسعل سعالاً رهيبًا. زوجة أجوستي آلكانترا تأتي له كل أسبوع بزجاجتي لافندا، كل منها سعة لترين. إدوارد بدريرو، اثنان وعشرون عامًا، من مدينة ماهون، طالب سابق في معهد اللاهوت. يعاني من نوبات هيستريا. يرتدي نظارة

إطارها ذهبي ويتحدث بصوت أنفي بطريقة وحشية. في الأيام الأخيرة من كل شهر يمضي الليل في القراءة ليقولوا له إنه شاحب.

كانوا مدعاة فخري، كما ترى، لأن أيًّا منهم لا يمتلك إرادة مثل إرادتي.

دق جرس العشاء. كانت الثامنة مساءً. ما زال هناك ضوء كثير في الحقول وفي أحواض الزهور. وكان البستاني يروي الزهور بخرطوم جديد وطويل للغاية. عندما أصبحت في الغرفة فتحت الصنبور -كانت الخادمة قد نظفته وأصبح لامعًا- ورطبت وجهي بإلقاء الماء البارد أربع مرات، بيديَّ مفتوحتين، إحداهما بجوار الأخرى. أخذت الفوطة الصغيرة بينما كانت عيناي مغلقتين ورأسي منحنيًا فوق الحوض لكي لا أبلل البلاط، ووضعت الفوطة على وجهي لتجفيفه. كانت الفوطة ويداي أمام عينيَّ، والمرآة في المواجهة، حيث كانت تنقل وتعكس، في الوقت نفسه، كلًّا من البستاني والخرطوم وحقل أشجار الزيتون الجاف.

عندما علَّقتُ الفوطة في الخطاف الموجود بجوار الحوض، رأيت أن بضعة خيوط بيضاء قد تبقت في وجهي، في الأماكن التي توجد بها لحيتي، وأخذت أزيلها عن طريق الربت بخفة على وجهي، كأنما أريد أن أكون لطيفًا.

كان الممر أكثر بهجة وشبابًا، بذلك الضجيج من الأصوات والأبواب، خاصة أبواب الحمامات، حيث كان ضجيج الماء

والضحكات مثيرًا للمزاج الرائق، مثل ممر الاستحمام في معسكر. بينما كنت أنتظر أن تخلو إحدى المباول، كنت أنظر لتعبيرات وجوه من يتبولون: من كانوا يقتربون بأكبر قدر ممكن من الجدار بينما تكون رؤوسهم مرفوعة، وينظرون لعوارض السقف. كانت هيئاتهم منتظمة جيدًا. هؤلاء، بشكل عام، كانوا أعضاء في كورس كنيسة، أو أعضاء في جمعية ما أو طلابًا في مدرسة داخلية. كنت أنظر لمن كانت رؤوسهم محنية. كنت أُعجبُ بمن يتبولون في هدوء، بيدٍ على ردفٍ، الجسد منحنٍ قليلًا، مثل مصارعي الثيران. ومن كانوا يتحدثون مع شاغلي المبولات الأخرى، كانوا يبدون لي بشريين للغاية، كانوا يمدون رؤوسهم فوق الرخام الذي يفصلهم.

كانت المائدة طويلة، في الجزء الأمامي من قاعة الطعام، كأنما تترأسها. في تلك الليلة كان عليها مفرش بخطوط خضراء وبيضاء. كنتَ تتناول عشاءك. كنتُ أنظر لكَ.

لم أرك من قبل تتناول عشاءك بذلك البطء وذلك الصمت كما في تلك الليلة. كنتَ تملأ الملعقة ولا تحملها إلى فمك. كنتَ تُقرب شفتيك من الملعقة، بينما تغلق اليد الأخرى، حتى تغلق قبضتك. بينما تنتظر أن تحمل الخادمات صحون اللبن، كنتَ تمرر أصابعك على أزرار القميص، بعضها من الصدف، لامعة، بيضاء. في تلك اللحظة تذكرتُ أمسية الصيف، عندما كنتُ أنا وأنت طفلين. كانت أمي تذهب كل عصر للخياطة في فناء بيتك. كنا نجلس على الأرض، بينما كانت هي تخيط أزرار أقمصتنا. في ذلك الوقت

كنت أشعر بالألم لرؤية أمي، التي لم تكن تشتري لكي توفر في النفقات. بعد الحرب، كانت هناك فرقة جنود أمام بيتنا. كانت أمي تغسل ملابس عريفٍ من فالنسيا، كان اسمه بيلار، ولجندي آخر من مورثيا اسمه كامبوس. عندما رحلا عن القرية، تركا الكثير من الجراميق الواقية للسيقان والبنطلونات. كانت أمي تستخدم أزارها. أزرار صغيرة دائرية، من الفخار المطلي. كانت أمي أيضًا تشعر بالضيق لأنكم كنتم تشفقون عليها، كأنها امرأة فقيرة، تجرجر نعل حذائها في كل أحياء القرية.

عندما انتهى العشاء، ذهبت لأحبس نفسي في الحمام. ظللت في الداخل. بعينيَّ مغلقتين، وغرست أظافري في راحة يدي، وظللت هكذا لوقت لا أعلمه. بعد ذلك، عندما رأيت الضوء الرمادي يدخل عبر النافذة، ذهبت إلى غرفتي بينما كنتُ أرتعش وأنظر ليديَّ.

27

مانويل تُور

تبقت خمس دقائق على الساعة الواحدة. يمكن سماع صوت خطوات جوردي ميركادير في الممر، كان يذهب للحمام باستمرار، لأنه يعاني من التهاب البلعوم، وكان عليه أن يشرب ماء مُطهرًا ثلاث مرات في اليوم ليعقم حلقه.

صوت نباح كلب طويل، يعوي ويطلق تأوهات مثل إنسان. أشعرُ بالتوتر، فعندما ينبح كلبٌ في الليل، يتقلب الجميع في فُرشهم في العنبر، ويطلقون اللعنات لأن هذا يعني أن تلك الليلة ستشهد نفثًا للدم أو موتًا.

يُغلق جوردي ميركادير باب الحمام ويعود لغرفته، يجرجر حذاءه في الممر، لا بدّ أنه يضع يديه في جيوب سترة البيجاما، يضعهما متجاورتين فوق بطنه لأن البنطلون بلا زر، وهو شخص خجول للغاية، حتى عندما يكون بمفرده.

أنظرُ ليديَّ. أفتح أزرار سترة البيجاما وأنظرُ للجانب الأيسر من صدري. تحت الحلمة، المتجعدة الآن لأنني أشعر بالبرد، كانت هناك القرحة التي سببها الرمح، قرحة مُقوسة، لأن حراب الرومان

كانت تحمل نصالًا مُقوسة. الآن لا توجد أي قرحة في جسدي. كل جسدي ماصخ. لا أمتلك ذلك الاندفاع الذي وعدني به، عندما جاء إلى غرفتي، ببنطلون الدريل الأزرق، مثل الفلاحين، وجهه أسمر، مثل مُجند بعد أربعين يومًا في معسكر التدريب.

أندريو راماو اقتلع آلام المسيح من جسدي، وأنا أنهض الآن.

أستند إلى الفراش بيديَّ المفرودتين، على جانبي جسدي، وأبحث بقدمي عن الخف تحت الفراش. أخرج للممر. أتجه إلى غرفة رقم 22، غرفة أندريو رامايو. كان الجبل مرئيًّا عبر النافذة. كان ممتلئًا بأشجار الزيتون ويبدو أكثر رمادية تحت ضوء القمر البارد، ويبدو أكثر بروزًا بجوار جير الكنيسة وعنبر الممرضات والبئر الموجود في المقابل.

أفتحُ باب غرفة رقم 22. يُصدر صريرًا. وأدخل ببطء.

- رامايو.

-تُور.

تحدثنا بصوت خفيض، كما كان عندما اختبأت مع باو إنجلادا في تلك الشجيرة التي يلتصق بها الذباب ورأينا كيف تقوم السيارة بإنارة سور المقابر.

أجلس على الفراش ببطء، لكي لا تصدر قاعدته صريرًا. أندريو رامايو، الذي كان مُستلقيًا على ظهره، يستدير نحوي.

-اعتقدت أنك لن تأتي.

- لم يمكنني الخروج لأن جوردي ميركادير ذهب للحمام.

وضع أندريو رامايو يدًا على كتفي.

-مانويل...

-ماذا؟

-هل كنت دائمًا فتى طيبًا؟

لم أرد. أتذكر كارمن أونايدنيا، التي جلست بجواري ولم أكن مغطى سوى بالملاءة ولم أكن أستطيع الفرار، وكانت الأشياء التي حكاها لي أندرو رامايو تغويني، ولم أتحرك كأنني شربت الكثير من النبيذ. الكلب يبكي مثل إنسان.

-لمَ لا ترد؟

لا بدّ أن أقتل أندريو رامايو لأنه فتح عينيَّ وأغلق جراح يدي وصدري وقدميَّ.

-مانويل، أنا شخصٌ لعين، لكنني صديقك، وفي الصباح، عندما تحلق ذقنك، أذهب إلى غرفتك و....

الأب رامون، في قريتي، عندما كنت أعترف معه، واقفًا على قدميَّ، كان يقول لي: إن رأت إحدى عينيك شيئًا فاضحًا، اقتلعها. إن فعلت إحدى يديك شيئًا فاضحًا، اقطعها. كان الأب رامون يقول

لي أيضًا إن الحروب العادلة ليست خطيئة. أندريو رامايو عينٌ فاسدة شهوانية ويدٌ تخنق، مثل الغدد السامة.

-لم لا ترد؟

- لأنني كنت أفكرُ...

يبكي الكلب مثل إنسان. أضع يدي على الوسادة لكي أخرجها شيئًا فشيئًا من تحت رأس أندريو رامايو، وفي اللحظة المناسبة، ألقيها على رأسه وأجلس فوقه وأخنقه. لقد أجروا له عمليتين في الرئة وسيكون هذا سهلًا. الكلب يبكي مثل إنسان.

-مانويل...

-ماذا؟

-هل تتذكر ما قلت لك؟

-عن ثيفيرينو أولميدو؟

-نعم.

-كيف كان؟

أزاح أندريو رامايو الملاءة حتى قدميه.

صوته مرتعش. يرفع رأسه عن الوسادة.

-أولًا تضم يديك، وبعد ذلك...

ألقيتُ الوسادة بسرعة على وجهه. جلست فوقها. دفعت بكل قوتي. يرفع ساقيه وترقص قدماه في الهواء. فحيح أندريو رامايو يبدو كلهاث قطار يوشك على التوقف. حشرجات أندريو رامايو مثل الماء الذي يغلي في كسرولة. أمسك يده التي سقطت، ثقيلةً فوق الحشية.

–رامايو...

أُدير رأسي. المدينة، البعيدة، تلمع تحت القمر. أشجار الزيتون أكثر دكنة. ترتعش شجرة الصنوبر، الموجودة بجوار المشرحة.

أُغلقُ عيني أندريو رامايو.

–رامايو...

يبدو كفتى مشعث الشعر، غير مهندم، ووجهه شاحب لأنه بدأ بالتدخين. لا يمكنني التحرك. كأنني فارغ كما يُفرَّغ جوال من الأعشاب.

–مانويل تُور.

أرفعُ رأسي. إنه هو. الجزء العلوي من القميص ليس خارج البنطلون، مثل ذلك اليوم، في غرفة رقم 13. يرتدي بنطلونًا رماديًّا وقميصًا أبيض. يداه في جيوبه. إنه المسيح...

–مانويل تُور.

يُخرج يدًا من جيبه، ويربت بين ساقيه ثم يجلس على الطرف الآخر من الفراش.

-ماذا؟

-لماذا تعتقد أن إيمانك قادر على بعثه؟

الذبابة الخضراء الضخمة، تملأ صمت الغرفة برنين معدني. تدور حول فم أندريو رامايو. تصعد حتى السقف المطلي بالجير، تزوم بإصرار. تتوقف على الجير، وينساب الصمت مرة أخرى، ثقيلًا، كأن أندريو رامايو ما زال يحتضر.

-سيدي، لكي لا نكون هباءً، ستقوم من موتك، وإيماني حيٌّ لأنه مُتأصل في قيامتك. نعيش بالإيمان لكي يكون الموت جزءًا من حيواتنا ولكي يكون مجد الرب ممتلئًا باحتضارنا الخلاصي. لقد تحولت خطيئتي إلى إيمان.

إنه جالسٌ فوق الفراش، يضع ساقًا فوق الأخرى، وبعدما يكشف عن قدمي أندريو رامايو، يلمس أظافره. كان أحد أزرار البنطلون مفكوكًا، فقام بربطه بيدٍ واحدة وقال:

-إنك تنسى ماهيتك يا تُور. ماهيتك كفلاح تربى وسط أحداث كبيرة وعواصف رهيبة وأفجار وغروب شمس وشجارات شرسة بين الحيوانات. جوهر الفلاحين ليس سوى تلقائية رائعة يا تُور. جوهرك ألا تندهش إزاء أي شيء. بالنسبة لكم، المعجزة لا تتمتع بأهمية أكبر من إنجاب إحدى بقراتكم لعجلين. لسانكم يتعامل

بألفة مع الموت والأبدية، لأنكم تقعون في الخطيئة باستمرار وسط رطوبة قراكم. حتى إنكم لستم الشر يا تُور. إنكم مجرد شيء مثير للسخرية.

نور القمر، الحي، يجعل غطاء الفراش يبدو كطبقة من الجير فوق جسد أندريو رامايو. وتجعل قميص الآخر وأسنانه أكثر بياضًا.

- سيدي المسيح، لقد مات أندريو رامايو لكي يتجلى مجدك في شخصه وفي إيماني، الذي لا يتطلب برهانًا على وجودك وإنما برهان على قوتك. لا أطلبُ معجزةً. أُصلي لكي أرى أن إيماني أكبر مني. أعرفُ أن كل قوة حياتي ليست قادرة على إعادة هذا الفتى للحياة، لأن أندريو رامايو أصبح على الجانب الآخر من الجحيم. لكن إيماني بك هو حضورك في شخصي.

تنزل الذبابة الكبيرة حتى فم أندريو رامايو شبه المُغلق، وطنينها الجاف المرتعش يُعبر عن نأي هذا الفتى. كانت ضربة حادة، مثل قطرة ماء كبيرة فوق زجاج. حطَّت الذبابة الكبيرة فوق المرآة.

يمد ساقه فوق الحشية. قدماه بجوار وجه أندريو رامايو ويسند ظهره إلى عوارض السرير الحديدية. أقولُ:

- لتكن قويًّا عبر ضعفي يا إلهي. هذه هي طريقتك، الطريقة العميقة لكي تكون قدسيًّا في تواصلك. تذكر الطريق الذي مررت به أمام ذلك الذي ولدَ كفيفًا. تلاميذك، الممتلئون بالهوس العميق

بالخطيئة، سألوك إن كان سبب عمى هذا الفتى هو خطيئته هو ذاته أم خطيئة أبويه. وقلتَ: «لم يقع هو أو أبواه في الخطيئة. إنه أعمى لكي يتجلى عمل الرب فيه. من الضروري أن أقوم بالعمل الذي كُلفت به، أثناء النهار». بعد ذلك يا إلهي، بصقت على الأرض وصنعت وحلًا باللعاب ودهنت جفونه. قلتَ له: «اغتسل في بركة سلون». وذهب الفتى هناك يا إلهي واغتسل وعندما عاد من البركة، كان يرى. بكلمة منك أمكنك أن تعيد الحياة لمقلتيه الميتتين. كان اهتمامك بالمادة هو ما جعلك تدهن عينيه بالوحل. ابعث أندريو رامايو بواسطتي.

وضع يدًا تحت سترة البيجاما وقرصني قليلًا في جلد ظهري. رفع يده وجذب شعر إبطي العارق. قال:

- «أنت طفلٌ في يديَّ. دائمًا ما كنت طفلًا في يديَّ. تذكر أزمة غضبك قبل المراهقة. أُصبت بأول نوبة في الثالثة عشرة، في ميدان قريتك. بدأت في الاضطراب في العام الأول من الحرب الأهلية، بعد تلك الإعدامات بالرصاص أمام سور المقبرة. لقد ولدتَ على شاكلة الحياة، وكلما قلتُ حياة فأنا أعني التضامن يا تُور. كانت عائلتك يمينية، وفي ربيع 1936، ألحقوك بفرقة الشبيبة الفاشية في قريتك. كنت ترتدي بنطلونًا قصير أسود من القطيفة المضلعة، وقميص الفاشية الغامق بالشعار مطرزًا باللون الأحمر، وحبل أبيض مُعلقٌ فوق صدرك وفي طرفه صافرة تدخلها في جيب القميص. وفي أيام العمل، كنت تحمل عصا في الجانب الأيسر، وفي

أيام الأحد كنت تحمل بلطةً ملطية بالنيكل أو خنجرًا كلَّف أباك خمسًا وأربعين بيزيتا. وكنت تستخدمه سواء لقتل قط أو لتهديد زميل لا يريد أن يعطيك البطاقات المصورة التي كان يمتلكها. كما كنت تستخدمه لإخافة الفتيان الذين يربحونك في الشجارات، وكنت تحبسهم جميعًا طوال المساء في الزنزانة في أيام نوبتك في الحراسة.

من تلك الأيام تتذكر جيدًا شخصية الكونت روسي، ذي اللحية الحمراء، ذات البريق المعدني، والصليب الأبيض على الصدر، وذات يوم ذهب إلى قريتك، وعندما مرَّ أمامك بينما كنت تشكل جزءًا من النطاق المصطف لكي يفتح الناس الطريق. رفعت ذراعك لتحيته، ولم يفعل هذا سواك –كنت وما زلت مندفعًا– فربت على وجنتك مرتين وقال: فتى جيد».

كما رأيت أشياء أخرى. ورأيت ميتًا، أبا باو إنجلادا. بعد ذلك، أثناء الحرب الأوروبية، ساد الجوع. وأمك، بينما كانت تأكل خبز الذرة وترسم خطوطًا بالعصا في رماد المطبخ، كانت تقول: «في الحقيقة، تبدأ الحرب بعد مسيرة السلام». كنت تنظر لها وألقيت بقطع الخبز في النار لأنك لم تكن جائعًا.

أصبحت تهوي كل ما يتعلق بالكنيسة. وتعلَّقت **بي**، لأن قس قريتك كان يتحدث عني كثيرًا في الخطب التي كان يلقيها من شرفة مبنى البلدية، واقفًا بين العمدة وضابط الحرس المدني، الذي كان

اسمه هيلاريو، بعد صلاة شكر في الكنيسة لأن القوات الوطنية دخلت ليديا أو ترويل.

بعد ذلك سقطتَ أنت وآخرين مرضى. كأن الحرب قد بدأت بالنسبة لكم في ذلك الحين. سقط منكم الكثيرون. كنتم كبضعة أبرياء لامعين وقساة ومتحمسين، محبوسين داخل الفكرة المتوهجة بالعثور على الخير في أعماق الشر. لم يكن عبثًا أنك كنت ابن رجال يستخدمون حوار المسدسات لصالح الدين، مثل رجال حروب صليبية مثاليين ومتحدين. كانت الحرب التي جاءت بعد السلام، هذه الحرب التي تتوغل في الأرض، تخلق كهوفًا مظلمة وتثير الفجور. مثل البحر. تذكر العملية الغامضة التي تحدثُ عبرها هذه الأشياء، في كل المراحل، واحدة تلو الأخرى. قبل أيام عديدة من الأزمة، الزهري، الهزال، الاضطراب الشعوري، حساسيتك المفرطة المفاجئة التي كانت تُحزن كل أهل بيتك، لأنهم بدؤوا ينتظرون منذ ذلك الحين. كنت تسير حزينًا بعينيك مطفأتين، في الفناء وفي الغرف المعتمة، كأنك تنتظر أزمتك في صمت. بعد ذلك، فجأة، مثل البرق، تأتي نوبة الصرع: الدوائر المتقدة في العينين وفي تيبس أحد ذراعيك، تسرب الأفكار، الغياب المفاجئ للخجل. كنتَ تسقط على الأرض في لحظة إطلاق صرخة قوية، مثل المسيح قبل أن ينفق. ممددًا على البلاط، كنت تدفع رأسك بعنفٍ إلى الخلف، العينان الذاهلتان، الخاليتان من التعبيرات. كنت تضغط بحنق على فكيك، كنت تشد عمودك الفقري، كأنك تصارع نارًا. كان ذراعاك وقدماك

متيبسين، مصعوقين بالكهرباء، بدوار داخلي مرتعش. كنت تغرس أظافرك في راحة اليد، بحمية. كانت أنفاسك تنقطع، كنت تأتي بحركة متلهفة كأنك لا تستطيع سوى استنشاق الهواء فقط. تبدأ عيناك في الدوران بنشاط مرعب، دون النظر لأي مكان أو لأي شيء محدد. وعلى وجهك ترتسم سلسلة من التعبيرات الوحشية، دوار من الوجوه المرعبة، عاصفة من الملامح الحيوانية. كانت أسنانك تصطك –حينئذ كان يبدو كتكسر الأسنان– وكنت تعض لسانك بألم ينفجر برغوة تشبه رغوة الأحصنة، بينما يخرج لعاب مصبوغ بالدم عبر طرف فمك. ويصدر صوت غرغرة الرغوة في حنجرتك، حشرجة كصوت الماء عندما يغلي. كان أهلك في أحد أركان البيت، ويغطون وجوههم بأيديهم. كان الجيران يضعون ملعقة في فمك لكي لا تقطع لسانك بأسنانك. بعد ذلك يأتي الطبيب. كل البيت في صمت. كان يحقنك بـ (لومينال) في العضل. كان يصف لك حقنًا شرجية مع ثلاثة جرامات من هيدرات الكلورال. وصفته لمرضى الصرع في القرية».

تدخل رائحة الغابة القادمة من الجبل إلى الغرفة. والرائحة النتنة للأوراق المتعفنة والخشب تدخل غرفة رقم 22. ترتعش نجمة كبيرة حادة الحواف فوق الجبل. الضفادع تغني في البركة، بين عيدان البوص. وخلف المدينة، يلمع البحر الممتلئ بالقمر.

ينهضُ. يغطي قدمي أندريو رامايو، يربت بين ساقيه ويخرج.

أنا مُتجمد. أمرر يدي على وجه أندريو رامايو، بعينيه، بعظام أنفه.

-رامايو...

أُمرر طرف أظفري بالصليب المعدني الذي أحمله، وأشعر أنني مثل هؤلاء المحتضرين المجهولين الذين يضع القسُ البرشانَ عنوةً في أفواههم.

أخرجُ للممر، بعينيَّ مفتوحتين. كانت الإضاءة الزرقاء في الممر تسقط على مشعاع التدفئة وعلى زهور بيجونيا في النافذة وعلى المؤشر الأتوماتيكي.

-رامايو...

أدخلُ غرفتي. أرتمي بثقلي على الفراش، والضجيج الصادر عن الحشية يشبه صوت سقوط جوال عشب على الأرض.

هناك ضجيج في الغرفة التي يشغلها ستة مرضى. يضحكون. صوت أنطوني ثيبا يقول «دالينج، دالانج، دالينج، دالانج». يضحكون يقهقهون. تمر الآنسة آنجيلينس بسرعة في الممر. تتجه إلى الغرفة التي يشغلها ستة مرضى. يصمتون فجأة.

-قذرون. يجب أن تشعروا بالخجل. ستبقون جميعًا في الفراش غدًا. حفلات ماجنة مثلما في زمن الرومان.

تمر الآنسة آنجيلينس في الممر مرةً أخرى. جوردي ميركادير يفتح باب غرفته.

-ماذا حدث يا آنسة؟

-مرضى غرفة رقم 4 كانوا عراة، في طابور، ويدورون في الغرفة.

-آوه!

-مساء الخير يا خورخي.

-مساء الخير يا آنسة.

28

جابريل كالدينتي

أجوستي آلكانترا يدفع النقالة التي يصدر صرير عن عجلات الدراجة المُركبة فيها أثناء مرورها في الممر.

أنا وجوردي أجوستي، الخادم الجديد، نسير خلفه في صمت.

الممر بارد، نظيف، ممتلئ بضوء السادسة صباحًا وصياح الطيور التي تغرد فوق أشجار الأوكالبتوس الموجودة بجوار عنبر الأطفال.

نذهبُ لحمل جثة أندريو رامايو. زملاؤه في العنبر عثروا عليه ميتًا.

دخلنا غرفة رقم 22. كان خصاص الباب والنافذة المُطلة على الشرفة مغلقين. كانت الغرفة غارقة في العتمة. كان الفتى فوق الفراش، رأسه مائل إلى جانبٍ. كان يرتدي بيجاما قديمة. كانت عيناه شبه مغمضتين.

قال جوردي آجوستي:

-النقالة لن تسعه تقريبًا.

-قرِّبها. بجوار الفراش.

فردنا غطاء الفراش على الأرض. سنحمل الفتى. أنا سأرفع من تحت ركبتيه وجوردي أجوستي سيرفع من تحت إبطيه. يسقط رأسه إلى جانب. أسيرُ بظهري إلى النافذة. أُباعد بين ساقيَّ، أُباعد بينهما بأقصى ما أستطيع لكي لا أدوس على غطاء الفراش المفرود على الأرض. وأسير إلى الخلف. أترك ساقي الفتى تسقطان ببطء على النسيج. جوردي أجوستي يُطلق إبطي أندريو رامايو فجأة، ويرتطم رأسه بالأرض. بعد ذلك يأتي الصمت. دون أن نعرف لماذا، نتبادلُ أنا وجوردي أجوستي النظرات. نغطي الميت بما فاض من غطاء الفراش على الجانبين.

-إن ساقيه طويلتان!

-نعم.

-يموتون مثل الكلاب، في زهرة العمر.

-كان هذا كالحيوان الأليف في العنبر. كانت يتقافز من مكان لآخر في الشرفة. كأنه من المطاط.

-يبدو وجهه كأنه من الزنوج.

وضعناه على النقالة. أنظر للوقت في ساعة جثة أندريو رامايو: إنها السادسة. يبتعد جوردي أجوستي في الممر. الميت الأبيض في

الأمام، وهو خلفه، بين ضوء الفجر البارد المنتشر.

وفوق الحوض الحجري، ما زال هناك أنبوب معجون أسنان (بروفيدان)، قطعة الصابون والكوب البلاستيكي لغسل الأسنان، وداخله فرشاة الأسنان.

29

مانويل تُور

الشمس ساطعة. الحر رطب، خانق. مصحتنا على ارتفاع منخفض. مئتا وأربعة وثلاثون مترًا تعتبر ارتفاعًا منخفضًا. أخذت أتبع رصيف الجزء الخلفي من المصحة. كان هناك ظل رطب على الرصيف، وجعلني أشعر ببرد في الصدر والظهر، لأنني كنت عاريًا من خصري إلى أعلى. لكي أذهب إلى مكانك، كان يجب أن أضع القميص الأبيض فوق البيجاما، ذلك القميص الأبيض الذي كنت ترتديه مفكوك الأزرار دائمًا لأنك لم تكن ترغب في أن تبدو كحلاق من الدرجة الثانية.

كنت أشعر بالخوف من المرور أمام عنبر الأطباء لأنهم قد يسألونني إلى أين أذهب. لم أكن أنتوي إخبار أي شخص بوجهتي، لأنني كنت ذاهبًا إلى المشرحة الموجودة بجوار أشجار الصنوبر، فقط لكي أراك، إن كانوا قد تركوا الباب مفتوحًا.

كأن ماءً باردًا يسقط على ظهري لدى التفكير أنك موجود خلف الباب، الممتلئ بالشمس والهدوء وغياب تام للخجل، كأن تميزًا

زائفًا تبقى بعد موتك.

كنت أسير بينما أنظر في كل الاتجاهات. ولكي لا أمر أمام قاعات الأطباء، مررت أمام مباني التدفئة والغسالات الكهربائية. لم يخطر على بالي أن الخادمات وعاملات الكي يمكن أن يرينني. إن كنتُ قد فكرت أنهم قد يلحظون حضورًا غريبًا بالقرب من السخانات، في تلك الساعة، لكنت قد ذهبت مباشرة نحو عنابر الأطباء. إن سألوني إلى أين أذهب، لكنت قد وجدت عذرًا كمريض في عنبر رقم 1، حيث دائمًا ما يوجد تدهور لأن الغرف أغلى.

كان أجوستي آلكانترا يقوم بإزالة انسداد إحدى المواسير وسط ضجيج الغسالات الكهربائية والضحكات العالية للنساء اللائي يغسلن الملابس، وكانت فتحات صدورهن واسعة ومتسخة. كان أجوستي آلكانترا يعمل ببطء. نظر باتجاه الباب.

-إلى أين تذهب؟

وبعد النظر لي خلال برهة:

-إن نظرتك شاردة. ماذا بك؟

-أنا. لا شيء.

-سأخبرك بم بك.

-ماذا؟

–إنك لم تغمض عينيك. إن كنت قد قتلتَ شخصًا، لن تكون عيناك هكذا.

–آلكانترا!

شعرت بالحاجة للمواصلة والابتعاد عن حضور عامل الصيانة وعاملات الكي اللائي توقفن عن العمل ونظرنَ لي، كلهن ممسكات بملابس الرجال في أيديهن، بأعينهن القذرة اللامعة. وقالت كارمن أونايينديا:

–مسكين رامايو. أليس كذلك؟

–نعم.

–كان صديقك.

–نعم.

–ولم يمت بسبب بصق الدم. تقريبًا كلهم يموتون بسبب بصق الدم.

–لا. هو لا.

–من عثر عليه؟ يقول آلكانترا إنهم عثروا عليه ميتًا في الفراش.

–أنا. كنتُ أنا من عثر عليه. كنت أذهب إلى غرفته كل صباح. قبل الجرس. لكي أقول له صباح الخير. كانت يحكي لي أشياء. يحكي لي ما حدث في الليل. بينما يغتسل. كانت عادته دائمًا. بعد ذلك كان

يأتي إلى غرفتي ويجلس في الفراش. وكنت أحلق ذقني. كان يقول إن أفضل رائحتين بالنسبة له هما كريم الحلاقة ورائحة الصحف بعد خروجها من المطبعة مباشرة.

-انس هذا. يرتسم على وجهك تعبير مؤثر!

-أي تعبير؟

-أنت تعرف...

-آلكانترا!

خلال لحظة، لحظة واحدة فقط، نظرت إلى كومة الفوط المتسخة الموجودة في أحد الأركان. كانت ملاءاته وفوطه هناك. فوطة الحوض الوردية وفوطة الاستحمام البيضاء. كانت هناك، فوق القطع الأخرى. لا بدَّ أنها القطع الأخيرة التي أتوا بها. ربما حملتها كارمن أوناينديا، دون أن تنظر لها، كأن فوطه وملاءاته يمكن أن تنفجر. كانت كارمن أوناينديا تأتي لك بأعواد نبات الهليون من المدينة، في أيام الأربعاء، عندما تعود مُحملة بمجلات رياضية ونبات الهليون والمجلات الفكاهية. كنتَ تُطلق على كارمن أوناينديا لقب «الصليب الأحمر الدولي».

قالت ماجدالينا باثيوس:

-لا يجب أن تتمشوا تحت الشمس.

-لا.

-الشمس مُضرة.

-هذا ما يقولون.

- إلى اللقاء يا تُور. اطلب مُهدئ فينوباربيتال من الآنسة إيستر هذه الليلة.

-آلكانترا.

عندما خرجت من صالة الغلايات، وددت الجلوس على الدكة الموجودة تحت أشجار الأوكالبتوس. كان ضروريًّا أن أفكر بك في تلك اللحظة. كان يجب أن أتأمل بك. قلتُ «التفكير بك»، وأعني التفكير بكل تلك الأشياء، تلك الأشياء الغريبة، التي حدثت ليلة أمس. في غرفة رقم 22، غرفتك، التي يبدو اليوم أنها قد اتحدت بغرفتي، لأن غرفتي اليوم تبدو أكبر وأكثر برودة. أنا في غرفة 27، أقوم بالدق على ركبتيَّ بأصابعي، كأني أنتظر النداء على دوري للدخول إلى صالة مرضى الالتهاب الرئوي.

أسير على الرصيف، باحثًا عن الظل.

يوجد الجراج الكبير المُربع بعد صالة الغلايات، حيث لا توجد سوى شاحنة المدير الصفراء. مررت من الخلف، حيث توجد نافذة طويلة، زجاجها مغبر. كان الأب جابريل في الجراج، كان جالسًا على لوح خشبي مثبت إلى الجدار بالمسامير، وكان يعمل في

جهاز جديد اسمه «جاكوبس[13]». كان قس المصحة يعمل ببهجة وتركيز مثل البستانيين. وكان الحارس بجوار الشاحنة، بملابسه الزرقاء وأسنانه الطويلة والحزام المرصع بالمسامير، وكان يدق بقوة بالمطرقة على رأس دبوس سيئ التركيب في الصندوق.

-هذا لن يطلب أغنية «مجدفي الفولجا» مرة أخرى.

أشار الحارس إلى التابوت الفارغ بينما يقول «هذا». كان التابوت يفوح برائحة خشب الصنوبر الطازج.

- لا. هذه هي الحقيقية.

-دائمًا ما كان يطلب ذات الأسطوانة. كان يرسل ورقة بالطلب إلى إذاعة المساء.

- يا لهم من فتيان مساكين. هذه هي الحقيقة.

-كان خطه كبيرًا، طويلًا، كأنه يكتب في العتمة. ذات مرة قلت له: «خطك كبير وطويل»، فردَّ عليَّ: «بسسسسس...».

-دائمًا ما كان يسب الخادمات.

الحارس، الجالس على الصندوق بساقٍ على كل جانب، كان يغطي مناطق ضم الألواح الخشبية بمعجون أصفر. وكان يستخدم الإزميل العريض لدفع المعجون بين أماكن الضم، بعد

13- جهاز كيب ابتدعه الصيدلي الهولندي بيتروس جاكوبس كيب لتحضير الغازات الخفيفة كالهيدروجين.

ذلك يُمرر الجزء الداخلي من نصل الإزميل لإزالة الفائض من المعجون. أصبح الصندوق نظيفًا متساويًا، يفوح برائحة الصنوبر وزيت التربنتين.

بعد ذلك، عندما تجاوزت النافذة واتجهت إلى المشرحة، سمعت صوت الطرق، مثل دقات أي عمل آخر، مثل تعليق لوحة بمنظر طبيعي مديني على الحائط أو تثبيت منصة الموسيقيين في حفل بداية الصيف.

كان باب المشرحة حديديًّا. كان الباب من الحديد ومطليًّا باللون الرمادي. كان الجزء العلوي صدئًا. كان الجزء العلوي من باب المشرحة بذات لون وجه الحارس. عندما يكون الحارس عاريًا أمام المرآة في الحمام، لا بدَّ أن يشبه باب المشرحة، بجسد رمادي مائل للخضرة، والوجه أحمر أو أسود أو بني مائل للصفرة، مثل علبة صفيح مُلقاة في الشمس منذ خمسين عامًا.

عندما وضعت يدي على الباب ورأيت أنه يستجيب وينفتح للداخل، شعرت بقشعريرة كأن يدي ترتطم بشكل مفاجئ في العتمة بأحشاء رجل ممدد على مائدة. كنت أريد أن يكون الباب مفتوحًا. لكن رؤية أنه كان مفتوحًا لكي أدخل كان أمرًا شبيهًا بأول مرة أرى فيها إعدام رجلٍ بالرصاص.

كانت صالة المشرحة مربعة وبيضاء ومضيئة. كانت ممتلئة بالشمس. كان الضوء يضفي شعورًا بالهدوء على الأدوات المُرتبة

النظيفة الصادمة. كانت هناك ثلاثة قفازات مطاطية وثلاث زجاجات طويلة شفافة فوق مائدة مطلية باللون الأبيض. كان يجب أن يعقدوا حفلًا على أرض المشرحة لكي أكون رفقةً لك قبل أن تذهب إلى أسفل. لكي يمكنك أن تعيش شيئًا من الربيع بين الأدوات الجراحية قبل أن تصل السيارة وذلك السائق الذي يضغط على البوق طوال الطريق، لكي يسمعه أجوستي آلكانترا ويذهب لمساعدته. لا يجب على السائق أن يضغط على البوق عندما يصعد على المنحدر. حتى إن جاء في الساعة الواحدة، عندما نكون جميعًا في قاعة الطعام، لأننا نسمع البوق، ومن توجد في أوراق تشخيصهم ثلاث علامات حمراء يشربون ماء ويرسمون خطوطًا بالشوكة على المائدة.

كنتَ ملفوفًا في ملاءة. في ذات ملاءة فراشك. كشفتُ عن جثتك وكان وجهك بذات الهدوء والسكون، وجه الناس عندما يخرجون من غرفة الاعتراف. عندما مرَّرت يدي بين شعرك المشعث الأسود اكتشفت سبب الرعب الذي يوحي به الأموات وسبب العطف والثقة التي كنتَ تلهمهما. تذكرتُ موت أبي، ليلة موته، الصرخة الجماعية للعائلة عندما قام رجلان من وكالة الدفن بالدخول بالتابوت، أحدهما في الأمام والآخر في الخلف. أتى فتى طويل ونحيف، وجهه أصفر، بالقماش الأسود والشمعدانات والصليب الملفوف في صحيفة. بعد ذلك قام أحد إخوة أبي بقطع الجزء الخلفي من الحذاء بالسكين لكي يسهل وضعه في قدميك. وضعت عمتي آنا طرحة كنا نحتفظ بها في الدولاب. ذهب أصدقاء أبي

إلى الحانة لشراء العرقي والروم من أجل الرجال الذين سيأتون للسهر على جثته. بعد ذلك لم يتبق سوى الانتظار، طوال الليل، حتى دقت الساعة التاسعة صباحًا. كان الانتظار كريهًا، كأننا ننتظر الإعدام بالرصاص. بعد ذلك معرفة أنه لم يتبق سوى أمرين: أن تأخذ العائلة في البكاء عندما تسمع أنشودات مسيرة الكنيسة التي تقترب بالرايات مرفوعة، وانتظار أن يضع نجار القرية الغطاءَ على التابوت، لكي يستريح الجميع ويظلون هادئين إلى حدٍّ ما. الرجال الميتون مُصففو الشعر، حليقو الذقون، بربطة عنق وسترة، الأموات بأحذية لامعة بالورنيش وكعب مصبوغ بلون أسود، كأن الحذاء خرج من ورشة الإسكافي على التو، هؤلاء الأموات مثيرون للتقزز.

لكن أنت، ببيجامتك القديمة، ذات الخطوط البيضاء والبنية، بشعرك المشعث واللحية، حافيًا، دون دم، كان مظهرك يبدو مثيرًا كمن ماتوا بسبب الحب، وهم كُثر في القرى.

كانت نيتي أن أصلي صلاةً قصيرة، لكنني لم أتذكر أي شيء وربتُّ بمودة على وجنتك. بعد أن غطيتك، كما كنت قبل، خرجتُ حيث كانت العنابر بيضًا.

عندما دخلت شرفة الطابق الأول، كان الحارس يسير في الممر. كان يحمل وعاءً أبيض، زجاجة فنيك وحزمة صحف. دخل غرفتك، وترك الباب مفتوحًا. كنت أنظر له من موقعي في الممر. أخرج مقصًّا من جيب ملابس العمل. أخذ يقطع مزقًا من الصحف ثم

يلصقها بين ألواح الباب. بعد ذلك أغلق خصاص النافذة والزجاج. وكان يستدير من حين لآخر بينما يرتب الفراش ويلصق مزق الصحف على ألواح الزجاج.

-إلام تنظر؟

-أنظر لعملك.

-هذا سيئ.

-سيئ.

-ما اسم ذلك الفتى؟

-أندريو رامايو.

-كان فتى شابًّا.

-تسعة عشر عامًا...

-وأنت؟

- ثمانية عشر.

-لا بدّ أنكما كنتما صديقين.

-نعم.

-من الأفضل أن تفكر الآن في شيء آخر.

أغلق الحارس باب الممر. أحاطه بمزق الصحف. كانت رائحة الفنيك الحزينة المقززة تخرج من التجاويف التي لم يسدها بعد بين الألواح. وعندما أصبح كل شيء محكم الغلق، قام الحارس، ذو الوجه الصدئ مثل باب المشرحة، بالسير في الممر بينما يدوس بقوة بحذائه الممتلئ بالدبابيس المعدنية.

دخلتُ الحمام دون رغبة، ببساطة لأنني كنت حزينًا. وعندما أصبح وجهي للجدار، انفجرتُ حزنًا. ليعفو عني المسيح يا أندريو.

30

الأخت فرانثيسكا لونا

لم أعطِ قميص خوستو باستُور البني لأندريو رامايو لأن أندريو رامايو مات. كان لديه التهاب في كلتا الرئتين. كان قد خضع لعملية استئصال في الحجاب الحاجز. كان أندريو رامايو يطلق على هذه العملية اسم «الندبة الفاضحة»، وهو عنوان فيلم عُرِضَ في القاعة. وكان يُطلق على فيلم «الندبة الفاضحة» اسم «فيلم يوم القيامة» لأننا في الرهبانية كنا نريد مشاهدة الأفلام ذات يوم، وجلسنا خلف الشاشة، وفي منتصف الفيلم سقطت الشاشة التي كانت عبارة عن ملاءة، فأصبحنا نحن الراهبات مكشوفات أمام كل المرضى، فصاح أندريو رامايو صائحًا «الشرطة الكندية الجالسة[14]». وضحك الجميع.

كانت ضحكته كضحك الأرانب، كان قاسيًا. وعندما يراني، كان يقول:

– قبلاتي لعضوات الرهبانية.

14- تحوير لاسم «الشرطة الكندية الراكبة»، وهي فرقة خيالة. وأيضًا عنوان فيلم أمريكي من إنتاج عام 1940.

لقد شردت. معذرة يا سيدي.

هذه المكواة قديمة. اشترى المدير راديو-جرامافون ورينولت وعقدًا من المرجان لزوجته.

معذرة يا سيدي.

31

مانويل تُور

انتشرت شبورة شفافة فوق الحقول. بعد مطر الليلة السابقة، أصبحت البراعم في الحقول خضراء ولامعة. كان هناك ضوء متكلس على الصخور الرمادية فوق الملقاة فوق الأعشاب. وفي وسط المرج، يوجد صف من الخوص الذي يتحرك بخفة منتصبًا مع رياح المساء الباردة. في نهاية المرج، كانت أوراق شجرة حور صغيرة تلمع في الشمس. وخلف الفروع اللامعة، توجد غابة أشجار السنديان، ذات الخضرة الجافة، والتي كانت تمثل حدود سماء العصر الشاحبة، والتي تمر بها سحب بيضاء يتحول لونها إلى الدكنة في المناطق الريفية. وفي حاجز الشرفة، يوجد صف من زهور البيجونيا التي تحرك أوراقها الفضية والحمراء. من الأصص يتساقط الماء، متعكرًا بفعل الأرض السوداء، وينساب على قرميد سور الشرفة. من بعيد، كانت الجبال الخضراء والأرجوانية تكشف عن تموجاتها وعن البقع التي تمثلها الغابات في جو نظيف.

-تُور.

إنه جوردي ميركادير. أسأله عم يريد بحركة من رأسي.

-هل مرَّ المدير؟

-لا. إنه في الاستقبال. إنه يتحدث مع طبيبَي النوبتجية. في مدخل الاستقبال. يتحدثون عن تشريح جثة أندريو رامايو. يشكون أن موت أندريو رامايو كان بفعل فاعل.

تحدثَ فران لابوردا. يقول الآن:

-أطلب الكلمة. خبر قنبلة: في الخامسة مساءً، في صالة أشعة إكس، حصلت على أمر الخروج، أنا فران لابورد بشخصي. لقد انتهت هذه الحياة اللعينة. نهاية الكلام.

تصفيق غير متناغم، مبتهج، طويل. تمتلئ الشرفة بالصيحات. وفي الطابق الأول، تدوي بضع تصفيقات باردة، تبدو نائية. فران لابوردا في منتصف الشرفة، يقوم بالتحية بشكل كوميدي، كأنه على خشبة مسرح.

-ليضيئوا الضوء الأخضر للطفل المعجزة.

-نعم، نعم.

-لنر الآن إن كنت ستجيد تصويب التلسكوب في المدينة.

إنهم ثلاثة زملاء، من مدينة «سيجوربيه». دائمًا ما يجلسون

متجاورين على التشيزلونج. أخرجُ من الشرفة عبر الباب المؤدي إلى غرفتي.

-إلى أين تذهب يا تُور؟

أفتحُ باب الدولاب. أمسك العلبة التي توجد بها ماكينة الحلاقة. أُخرج الموس، ويجعلني بريقه أفكرُ في قطعة من مرآة قديمة تالفة. أغلقت عينيَّ لبرهة أمام بريق الموس. كما كان يحدث عندما كنا نحن فتيانًا نغشي بعضنا بعض عيون بعض بقطع من المرايا من نافذة لأخرى. موس الحلاقة، بثقوبه الثلاثة في المنتصف، يبدو لي أيضًا كتذكرة قطار، مثقوبًا بمفتش غير مرئي. يأتي هواء بارد من الممر. أحني رأسي فوق البلاط الأسود اللامع، وفوق مشعاعات التدفئة الفضية الجامدة، فوق الجدران الصامتة. وفي وسط فتحة النافذة، توجد أشجار الأوكالبتوس، الجبال ذات الصخور الرمادية تبدو قريبة للغاية.

أفتحُ باب الحمام. ألحظُ أنه ينغلق خلف ظهري بنعومة. أضع يدي اليسرى فوق باب الحمام وأعبر دون دفع الخشب تقريبًا، كأن اندفاعي الداخلي يفتحه. والآن أغلقه بنفسي.

نافذة الحمام مفتوحة. لا بد أن أرى، للمرة الثانية، الجبال الواضحة، أحواض الزهور. باب الكنيسة مفتوح أيضًا والضوء الأبيض على الجدران يسقط على المقاعد، في المكان الذي كنت أشغله. والآن، عندما يجلس زملاء عنبري، سيكون بنعومة الأرض

المحروثة قليلًا. أغلق النافذة الزجاجية المغطاة ببخار الماء، ولا أرى سوى بقعة في الجبال والأشجار والعنابر التي لا أتواجد بها الآن. كأن دماء عيني تبرد وأنا أموت.

أقف أمام البانيو. أفتح الصنبور اللامع، ويتبلل وجهي ببخار الماء، كأنني أشعر بعرقٍ لا يصدر مني. يسقط الماء على الحجر الأبيض، وأسمعه.

-مانويل!

المرآة نظيفة. تعكس النافذة الزجاجية المُغلقة، وظل أشجار الأوكالبتوس والجبال على الزجاج. أفكُّ أزرار قميصي. كان أزرق، وبهتَ لونه بفعل بيكربونات الصوديوم والغسالات الكهربائية. أتركه مطويًّا فوق المقعد. كأن غدًا سيكون يومًا آخر. الآن الفانلة الرياضية، بالحروف الأولى زرقاء وبخط سيئ. أُخرجُ الجزء السفلي، الطري والمتكرمش لأنه كان داخل البنطلون. أرفعُ ذراعي، ولبرهة، عبر النسيج الرفيع، أرى المرآة المضببة، وكأنني أموت مجددًا، بينما أسمع كيف يسقط الماء على الحجر الأبيض...

-مانويل!

يبدأ شعر صدري في الظهور. شعر أسود، مُظلل. كالذي ظهر في ساقيَّ في الرابعة عشرة.

-مانويل!

أضع يدي اليسرى على حجر الحوض. أفك أزرار البنطلون بيدي اليمنى. واحد، اثنان، ثلاثة، أربعة، خمسة أزرار. أتركه يسقط، وأُخرج قدمي اليُمنى أولاً ثم اليسرى. وأطويه بعدما خلعت الحزام الجلدي. ظل الحزام على الأرض، مثل ثعبان متيبس. وأشعر بالحزن لعدم وجود رغبة في الإمساك به.

إنه هنا. يرتدي بنطلونًا من الدريل الأزرق وقميصًا أبيض، داخل البنطلون. يقول:

- في ذلك المساء في الصيف، عندما كنت تركب الدراجة...

أنا عار تمامًا. لم أدرك في أي لحظة قبل الآن أن جسد الإنسان هو تجسيد للصمت...

-... كان المايوه مربوطًا في المقود.

يصل الماء حتى منتصف البانيو. البخار يغطي المرآة. أمرر يدي فوق الزجاج. مرآة الحوض تصبح واضحة، ويدي تصبح مبللة.

-»لم تكن تنظر للحقول المحصودة على جانبي الطريق. كنت تبدل بعنفٍ. برأسك خفيض. كنت في الثالثة عشرة، وكان هناك سور مغطى بالعليق على جانبي الطريق. عندما وصلت إلى البحر، تركت الدراجة في كوخ. تتذكر البحر لامعًا، والشاطئ أبيض تحت شمس نارية. أشجار الصنوبر خضراء، غامقة، مليئة بالظل. عرق ثقيل. تتذكر صرخات الأطفال. صرخات قوية حادة. كان الأطفال يرفعون أذرعهم عندما تصل موجة. اختبأت خلف شجيرة. وبعدما

أخرجت علبة تشيستر والولاعة من جيب البنطلون، وضعت حجرًا فوق ملابسك. شعرت بالخجل عندما ارتديت المايوه ثم خفضك رأسك لتدرك في ذلك العصر أنك لم تعد طفلًا كما كنت في الصيف السابق. عندما كنت تغير ملابسك الداخلية أيام السبت، لم تكن قد اكتشفت هذا بعد، لأنك دائمًا ما تكون ميتًا من النوم عندما ترتدي الغيارات النظيفة. عبرت الشاطئ جاريًا، بينما تحرق الرمال قدميك. كانت الصخرة رمادية، والطحالب بيضاء. كان البحر أخضر وشفافًا حتى أعماقه. وكان ممتلئًا بأطفال صدورهم عارية وشفاههم وأظافرهم بنفسجية. كما كان هناك حصان في البحر، وكان رجلٌ يمُسك باللجام بينما يلقي بالماء على ظهره وجانبيه. أشعلت سيجارة تشيستر. أول سيجارة في حياتك. قضبت جبهتك عندما أشعلتها، لكي لا تمتلئ عيناك بالدخان. تذوقت التبغ في فمك، وكنت تحتبسه كأنه ماء. بعد ذلك، رفعت رأسك، بنشوة تقريبًا، نفثت الدخان وأخفضت عينيك لترى كيف يخرج من أنفك. كان هناك بضعة أطفال معهم كرة مطاطية، وقالوا:

-مانويل، انزل. إننا نتحدث عن أمر...

تركت علبة تشيستر والولاعة تحت حجرٍ. نزلت ببطء لأن تقشرات الصخور كانت تنغرس في قدميك.

-مع السلامة يا مانويل!

كانت بضع نساء ينظرن للبحر.

وعندما وصلت إلى مجموعة الأطفال الذين يحملون الكرة المطاطية:

-وييييي، تُور!

-ماذا؟

كانوا جميعًا يضحكون ملء أشداقهم، بقهقهات قذرة، مبتهجة، ضخمة، بينما ينظرون للمايوه الذي ترتديه.

-وييييي، تُور!

سقطت على الرمال غاضبًا، وتدحرجت عليها، مثل جذع شجرة يهبط على منحدر، وأخذت تدور حتى وصلت للماء. بعد ذلك، بمفردك، شعرت بحزن فارغ في جانبك الأيسر، كأنك تعوم في الليل، بظهرك للشاطئ، بحنين لا نهائي إلى ملابسك، بينما تسمع حوارات أصدقائك، دون أن تفهم سوى حروف اسمك».

أغلقتُ الماء الساخن. عدم سماع صوت سقوطه على الحجر يشبه الوصول إلى نهاية المدينة وعدم سماع سوى قلب المرء وصوت خروج السكين من جرابه، صوت شبيه بالصفير.

أخلع حذائي، بينما ما زلت واقفًا، بالاستناد إلى قدم واحدة. اليسرى أولًا، ثم اليمنى. صمت الحمام أبيض، جامد. كأن خزان ماء يأخذ في التجمد.

-تُور!

المرآة نظيفة. أفتح ماء الحوض، لا أعرف لماذا، لكن كأنه يكون رفقة لي.

-يا إلهي، أنا دائمًا، أبدًا، مثل...

-تُور، لست أنت على الإطلاق. مثل حجر. لقد وقفَ مثل حجر، نهارًا وليلًا، بشمسي ومطري الأبديين.

«لقد أخرجتك من طريق الرب وضممتك لجلدي حتى اختلط عليك اتقادُ كُرهي بقوة حب الرب. لم أفعل شيئًا سوى اقتلاعك من طريقه. لم أزرعك في طريقي لكي يمكنك أن تجري في الشر كما يجري المرء في الصحراء. لا بدَّ أنك قد اعتقدت أنك قد عثرت عليه مرات كثيرة. لقد شعرتَ كأنما يقتلعون قلبك، واعتقدت أنك قد عثرت عليه. كنت تراه خيرًا. كنت قد سمعتَ عن طيبته، أنا أخبرتك بهذا، أنا من يبعثه في موت الخطائين. إن لم يكن بسبب إرادتي المصوغة من الثعابين التي تجعلك منتصبًا، ولأن الرحمة ليست مسموحة لي، كنتُ سأشعر بألم هائل لدى رؤية أنك ترتكب الخطيئة بمنتهى الوداعة، كأنك تشرب لكي تنسى. تلتهم الخطيئة حتى تترع ويختنق تنفسك، حتى تضطر لتقيؤ كل الرعب لكي يمكنك الاستمرار في الابتلاع وتبدأ في الالتهام من جديد، مثل من يبحث عن كنز مُخبأ».

-تُور!

المرآة لامعة. وتحت المرآة يسقط الماء على حجر الحوض. أنا

معتاد على الصمت التام في جسد الرجل الذي يدخل البانيو. كأنما يقتلعون حضوري من المرآة. أنا داخل الماء الساخن، الذي يغطيني حتى منتصف الصدر. ساقاي الطويلتان تحت الماء. يتحرك الشعر الأسود النابت منهما.

موس الحلاقة لامع بين أصابعي مثل شبورة رمادية. الباب المطلي بالأبيض، المشعاع، النافذة المغطاة بالبخار، الحوض، الماء الذي يسقط على الحجر. الملابس المطوية فوق المقعد. الحزام على الأرض. وهذه المرآة، هذه المرآة، هذه المرآة!

-آييي!

أدفع ذراعيَّ في الماء عميقًا وألقي بموس الحلاقة خارج البانيو. يصعد الدم كثيفًا من أعماق الماء. دمي الساخن الأسود. يصطبغ كل الماء، أغلقُ عينيّ وأنتظر. لا بدّ أن المرآة نظيفة!

-يا تُور!

كل الماء أحمر الآن. أشعر بضجيج رهيب في أذنيَّ، مثل قعقعة قطار يمر فوق جسر. هناك من يدق بقبضته على الباب. العدالة قادمة. لا أنتظرها لأن الوقت قد فات، لأنها تأتي لمحاكمة دمي، ولقد خرج دمي وجلس أمامي، كما في محكمة. لتساعدني رحمتك على أن أرى أنني عانيت بالفعل، لكي يمكنني تصديق أن كل شيء كان حُبًّا. ربما لم يكن شيئًا سوى حــ...

32

جابريل كالدينتي

انتهيتُ من القداس. أخرج من غرفة حفظ المقدسات. أركع أمام الصف الأول. يصدر الصرير من الخشب. أشعر بسلام راسخ بسبب الجدران المطلية بالجير في المصلى، الزجاج الوردي (لون نبات بخور مريم كما تقول الأخت فرانثيسكا لونا)، لوحة المذبح الجديدة، المذهبة، صورة العذراء في الوسط، زهور السوسن الصفراء في المذبح. أستعيد حيويتي بالاستحمام والقداس وصلاة الفجر، كل هذا قبل طلوع الشمس، ويتركني كسماء نظيفة، مثل غرفة مكنوسة.

يا سيدي المسيح، لقد دفنَّا مانويل تُور.

في الصباح الباكر.

كنا أجوستي آلكانتار وجثته وأنا. وأشجار الصنوبر الغامقة التي تفوح بالرائحة، خلف المشرحة. أشجار الصنوبر في المصحة والتي دائمًا ما كان يتحدث عنها، بعينيه الصافيتين الغائرتين. اغفر له. كان مهووسًا. لم يطلب منك أن تشفيه (لم يطلب هو أو

أبواه)، لأنه لم يعرف مُطلقًا بوجود الصحة. جاء للحياة مُحاطًا بالموتى والنار، وكان الواقع البارد بالنسبة له كشعلة ينبعث منها الدخان، حيث سرتَ يا سيدي بالتزامن مع مراهقته، بالعينين باكيتين بسبب الدخان.

كنت أفهمه عندما يدخل غرفتي شاحبًا مثل ملاك يهذي، ويُريني قروحه المُتخلية، والندوب التي كان يصنعها لنفسه بالألوان أثناء هذيانه، من يدري بأي حالةٍ.

أندريو رامايو، الوحشي والرقيق، كان أيضًا مجنونًا ملائكيًّا. ملاكٌ توجد ثلاث علامات حمراء في ورقة متابعته.

لقد عفوتَ في كنائس كثيرة في أوروبا عن المتسببين في الصراعات، بأيدينا هذه، التي تفوح برائحة صابون رملي رخيص. اعف عن الضحايا. إنهم فيك، لأنهم سبب دمك، على الرغم من أنك لست فيهم لأنك لست سبب خطاياهم. إنهم لا يعرفون ما يفعلون. إنهم يعون أنهم يقتلون أنفسهم، وليس أنهم يصلبونك أنت. لا أطلب مجدك، وإنما أن تنهي ألمك هذا المستمر منذ ألفي عام. إنك مُعلقٌ على الغضب الحزين للخطاة، مزروعٌ داخلهم مثل حبة شعير تأخذ في النمو، مسوطًا بالشر، ورافعًا الرجاء الذي يغطي كل إنسان مثل الجلد، لأن البشرية لا تنتظر سوى أن تكون حقيقية لمجرد أنها تعيش بينما تعيش أنت أيضًا. لهذا أنت موجود بيننا، لكي تنفد إرادة أبيك في الأرض، كما تنفدها أنتَ، بينما يهذي البشر لأنك تُمثل غيابك بينما توجد بينهم، ونحن موجودون، عالقون في

حيواتنا، يائسون من الرجاء.

أخرج من المصلى. الظل يخيم على العنابر العالية البيضاء الممتلئة بالنوافذ الخضراء الصامتة. أركب الدراجة التي كانت مستندة إلى واجهة الكنيسة. أنا أحب الدراجة في الصباح الباكر. الدراجة المطلية.

أمرُّ أمام عنبر الرجال. الشرفة خاوية والتيشزلونجات مرتبة. كلهم نائمون. يخرج جوردي ميركادير من غرفته بالبيجاما مُغتسلًا ومصفف الشعر.

يحمل طبق سلطة في يدٍ وقطعتي خبز في اليد الأخرى.

-يا لك من مُبكر.

-نعم، كما ترى يا سيدي القس.

-شهية مفتوحة؟

-جوع.

-ستعاقبك الآنسة أنجيلينس إن رأت أنك قد نهضت قبل دق الجرس.

-باهههه!

يضع جوردي ميركادير طبق السلطة على حاجز الشرفة،

ويجلس واضعًا ساقيه على جانبي الحاجز. ويبدأ في الأكل، في الالتهام.

-هل تريد القليل؟

-لا شكرًا.

-في الصباح، أفتح فمي أولًا و...

-وبعد ذلك عينيك.

-إنك تعرف نظامي.

-نعم...

-هل ستخرج؟

-نعم، بالرينولت الخاصة بي.

يضحك بسبب التلميح. مزحتي مكشوفة للغاية.

-إلى اللقاء يا ميركادير.

-إلى اللقاء سيدي القس.

الدراجة لا تُرهق إن سار سائقها ببطء، إن لم يكن راغبًا بالذهاب لمكان محدد، وإنما رؤية الحقول من فوق دراجته. أقوم بالتبديل شيئًا فشيئًا. القسس، بسبب الرداء، يجب أن نستخدم دراجة نسائية.

الأسفلت أسود، لامع، صلب؛ مثل شيء غريب بين حقلين مليئين بالأعشاب. الأسفلت شيء غريب.

-مع السلامة.

جوان سامون وصبيه قاما بتحيتي بأيديهما من كابينة الشاحنة.

إلى جانب الطريق، تتفتح الزهور البنفسجية والبيضاء في الخرشوف الأندلسي.

-مع السلامة.

ها هم الرجال الذين يعملون في حجر الطريق. اثنان منهما من آبيلا.

وبجوار الأسوار العالية الوردية المغبرة، توجد أشجار الخروب وأشجار الصنوبر ذات القمم الغامقة التي تفوح بالرائحة وتنثر ظلها الأسود على الطريق. بين الأشجار، توجد الشجيرات الداكنة، بزهور المستكة الحمراء. كانت ساكنة، تفوح بالرائحة الحريفة، في مواجهة شروق الشمس. الشروق المتواضع، البسيط، المتحمس.

أسير ببطء، بدرجة من البطء تجعلني أفقد توازني في أحيان كثيرة. وعندما أوشك على السقوط، أدرك كنه الإنسان: عندما أبحث عن الاستقرار في خضرة الحقول، تظل الحقول وكل زهورها ساكنة.

الآن يأتي منحدر. إنه ناعم. أنزل من العجلة وأجد نفسي كطفل

لأنني أشعر أنني أضفي أهمية كبيرة على المنحدر. أضع يدًا على المقود وأخرى على هيكل الدراجة، وأسمع ضجيج الجنزير والترس بين الحقول الخضراء.

جوردي ميركادير، في الأعلى، بساقيه على جانبي حاجز الشرفة، لا بدّ أنه يأكل بنهم، مثل حيوان ذكي شاب.

أشعر بسلامك مثل وسم نار يقتلعني من هنا... أنت بيننا كما كنت بين أهلك.

بينما تحتضر على صليب آلامك، ونحن نمتلك السلام الوحيد لمعرفة أن إرادة أبيك تتحقق على الأرض، ونشرب كل يوم ثقة أنك ستبعث داخلنا كلما جلس رجل ليتكل على روحك، مثل أخٍ لك، ظل مُطيعًا للحياة حتى الموت.